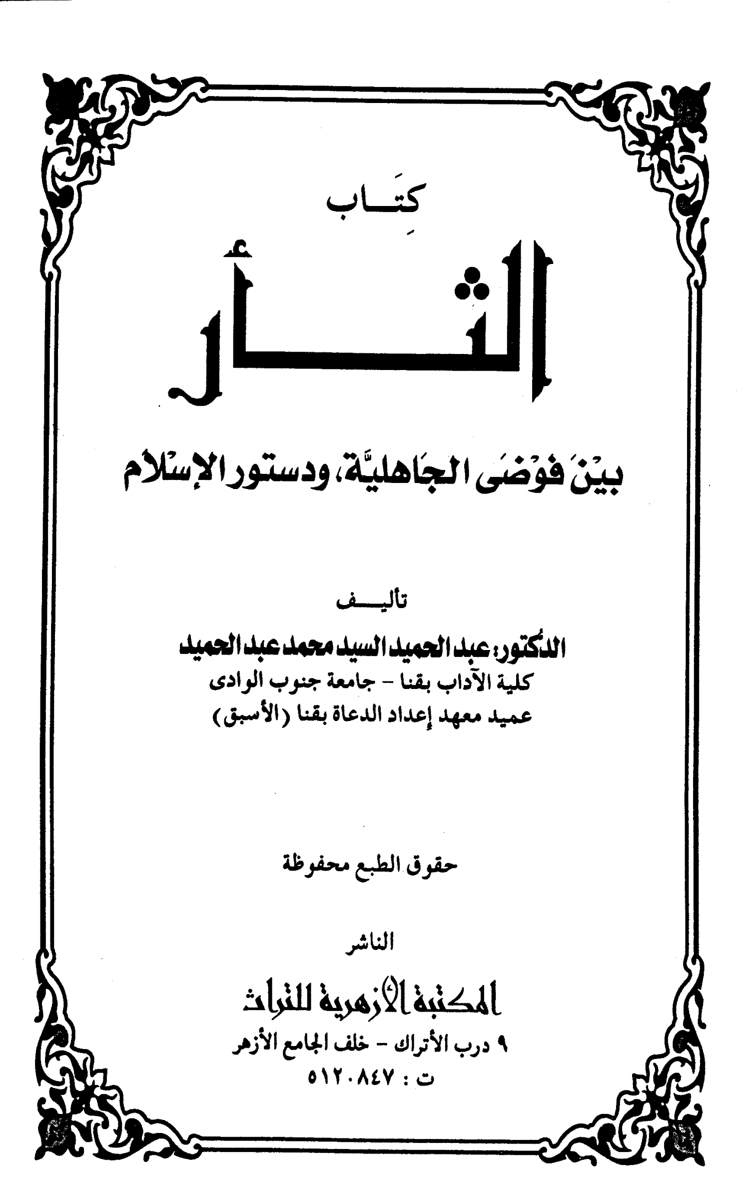


كتـــاب

الثأر

بين فوضى الجاهليَّة، ودستور الإسلام

تأليـــف

الدكتور: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد

كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى

عميد معهد إعداد الدعاة بقنا (الأسبق)

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٢٠٨٤٧

رقم الإيـــداع : ١٤٣٩٤ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى: I.S.B.N
977-315-071-2

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله، الَّذى هَدانا لهذا، وما كنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أنْ هَدانَا اللّه..

أَحْمدُهُ حَمْدَ مُعْترف بفضله، شاكر أنْعُمه، فقد اختار لنا الإسلام دينًا، والقرآن الكريم كتابًا، والرسول العظيم : محمداً رسولاً.

فقد هدانا فى كتابه الكريم إلى التى هى أقوم، وطهَّر القلوب من الأغيار والشرك، وأرْسَى قواعد السلوك، وفى الأخذ بها، والتمسك بأهدابها، والتحلى بالعمل بها ما يرقى بالإنسان – مع بَشَرِيَّته – إلى مراقى الملائكة، الكرام، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا : محمد الذى جاءنا بالسراج المنير، فانقشعت ظلمات الشرك. والتخبُّط، وكان قرآنا يسير على الأرض. وطبَّق جميع ما جاء به على نفسه، فكان لنا القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة فى كل شىء، وقد أوتى مثله، أو مثليه معه.

وإن البشرية لم تحقق نجاحا إلا إذا تمسكت بالكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وما أصاب البشرية من ضعف، وضُرّ إلا بمقدار بُعْدها عن الكتاب، والسنة.

وفى هذا الكتاب الذى أقدِّمه للإنسانية جَمْعَاء : صَوْنًا للدِّماء وحفظا للكرامة، وتحقيقا للسِّلم، والسلام على ربوع الأرض.

وقد نشأت فكرة الكتاب وكانت أَمَلاً يراود قَلْبى، ويتردد فى أقطار نفسى، وحُلما حُلْوًا، آمل أن أُعَان على نقله إلى أرْض الواقع.

وكان هذا الخاطر يُراودُ نفْسى، ويلح عليها كلما شجر خلاف بين بنى البشر، سالت من أجله دماء زكية، كان أملها أن تعيش فى أمن، وأمان، وأن تؤدى أدوارها فى رقىّ مجتمعاتها...

وقد بدأت فكرة الكتاب فى الستّينيات حينما عيِّنت من موجه سياسىّ ومسئول تثقيف للمحافظة إلى أمانة المكتب التنفيذى «بأبو تشت».

ولم يؤخذ رأيى للقيام بهذا العمل الجليل..

وقد سَعِدْت بوقع الخبر حينما رأيته منشوراً بالصَّحافة.

وأيقنت أن ربِّى هو الذى اختارنى لهذا العمل.

وتذكرت حديث الرسول الأمين، إجابة، وتوجيها لمن سأله الإمارة..

«... فإنك إن أُوتيتها عن غير مسألة أُعِنْت عليها، وإن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها...»

فالعون من الله (عز وجل) عند الإتيان عن غير مسألة، وعدم العون عند سُؤَالها، والإلحاح فى طلبها...

ولما كنت قد أدركت أننى مُعَان على هذا العمل أخذت أفكر تفكيراً جادا فى مَنْهَج العمل، الذى يرضاه رب الأرض، والسماء، ويسعد عباده على أرضه.

وهُدِيت إلى العمل للتنمية.

وإلى التنمية بشقيها:

(أ) الاجتماعى.

(ب) والبشرى : من أجل رفع المستوى من جميع الوجوه: الأخلاقى، والمادىّ. إذ أن الهدف من وجودنا على الأرض.

(أ) معرفة الله تعالى حق معرفته.

(ب) عمارة أرضه: بزراعة، وتجارة، وصناعة، وتعدين.. **وغير ذلك: مما يرقى** بالبشرية، ويسير بها إلى شاطئ الأمن، وبرّ السلام...

ودَرَسْتُ واقع المركز، ونشاط أهله فى قراهم: الست، والثلاثين... فوجدت طريق التنمية الشاملة تقف فى سبيله **معوّقات، أهمها** :

١ - القبليّة، الممقوتة. والتى تسير وفق العاطفة، ولا تستعمل العقل..

٢ - السّطْو المسلّح، والوافد إلى بلاد المركز من خارجها، وله أجنحة فى بلاد المركز: تستقدمه. وتمهد له، وتَدُلّه على مواطن الثروات، للاستيلاء عليها: غَصْبًا، وقَسْرًا، وسَطْوًا، وحرَابة....

٣ - وجود من يشفع لتلك العصابة إن وقعت تحت طائلة القانون. ويداويها إن أصاب فردًا من أفرادها جرَاح نتيجة المقاومة، والتى تكون ضعيفة فى أغلب الأحيان. والذى يكون واسطة فى رَدِّ المسروقات. بعد قبض الإتاوة: الحلوان، وأخذ نصيبه، وتقديم ما بقى للأشرار. ورد المسروقات.

٤ - الحياة المعطلة : فى الزراعة، والضرب فِى الأرض ابتغاء أسباب الرزق بسبب ما بين العائلات من ثأر، والترقب، والتّرصُّد للأخذ به، **والخوف من وقوعه فى ليل، أو نهار....**

٥ - النزاعات القضائية، المنوعة...

تلك هى أهم مشكلات التنمية بشقيها، والعوائق، التى تعوقها والتى تقف حجر عثرة فى طريقها، وعلى صخرتها تتحطم كل الجهود...

ومن أجل أن تسير سفينة التنمية فى بحر لُجىّ، وريح رُخَاء، وتصل إلى شاطئ الأمن والسلام.

كان لابد من إزالة المعوقات من الطريق..

وهنا : وضح الطريق، وقويت العزيمة، ورَخُص فى سبيل تحقيق الغاية كل نفيس، مع الاستهانة بالصِّعاب، واحتمال المكاره..

فالمصلحون فى كل زمان ومكان تواجههم المعوِّقات، وعلى مقدار عزيمة كل منهم يأتى النجاح المُؤَزر.

وإذا كان علماء الشريعة يقولون: التَخْلِيَة : أى : التخلِّى عن أعمال الشر. مقدمة على التَّحْلِية، أى: التمسك بالفضائل..

فكان لابد من إزالة المعوقات التى تقف فى طريق التنمية، وأن يعيش الناس إخوانا، متحابين، متعاونين، كان لابد من إزالة المعوقات...

وقد كان ما يلى :

أولاً : بالنسبة للقبلية، والاعتزاز بها، والانطواء تحت رايتها، والاستجابة لدواعى العاطفة، والتخلى عن أوامر العقل...

كانت النصيحة الرشيدة، والتوجيه الهادئ السليم، والتعهّد المستمر، وقمة ذلك، وسِنَامه : القُدْوَة الحسنة من كبار النفوس. وأولى العزائم، وأصحاب العقول الراشدة،...

لرد الأقوام إلى التآخى فى المواطنة، فى العروبة، فى الإسلام، فى الإنسانية، وهو المفهوم الأشمل، والأعم...

وكانت نتيجة ذلك: توارى النُّعْرَة القبلية، التخلى عما تفرضه من التزامات ضارة إلى التحلى بما توجبه الإنسانية من تعاون، وتآخ، وتناصر فى الحق لوجه الحق...

والقبلية - وإن كانت متأصلة في النفوس - نتيجة تربية غير سليمة، وانعدام القدوة الصالحة، إلا أن آثارها البغيضة قد توارت، أو خفت حدتها، وانطفأت جذوتها..

ثانياً:

بالنسبة للسطو المسلح: الحِرَابة:

فهو أكثر المعارك شراسة، وأقساها اقتحاماً...

وقد كان هذا السطو: يرد إلى قرى المركز من عصابة مسلحة، تستخدم العقل، والسلاح، والعزم. والعزيمة فى بلوغ ما تريد.

وكانت تَفِد إلى بلاد المركز من بلدٍ مجاور شمال بلاد المركز: مــركز البلينا. ولهــا مــرشــدون. ومعاونون فى شتى بلاد المركز: يستقدمونهم وييسرون لهم الطريق. ولخلوص النية، ووضوح الطريق، والعزم الأكيد تَم التعاون بين الجهات الآتية:

١ - الجماعات القيادية للقرى، التى كانت تبلغ المكتب التنفيذى - فى أمانة - عن كل ما يجرى فى حينه، ووقته...

٢ - مركز الشرطة بأبو تشت : فقد كانت ترد إليه التقارير، التى تصاغ من المكتب التنفيذى بأبو تشت، وترفع إلى المكتب التنفيذى للمحافظة، ومنه إلى مديرية الأمن بقنا، ثم إلى مركز أبو تشت.

وبذلك: كان المركز يحاط بكل شيء يجرى فى مختلف القرى.

٣ - أعضاء المكتب، وكان أبرزهم عضوى مجلس الأمة - إذ ذاك - اللذين ضُمُّوا إلى المكتب (رحمهما الله تعالى).

وأحدهما ابن عالم جليل، تربى فى بيت علم، وفقه، والثانى تربى فى بيت ولاية... وقد وفقنى الله تعالى :

إلى حصر خطط المجرمين : القريبة، والبعيدة، وإلى الأماكن التى يجتمعون فيها، وينطلقون منها إلى جميع البلاد...

وأدى المركز واجبه، وهاجم الأشرار فى أوكارهم، وأبلى بلاء حسنًا فى تعقبهم... وقد كلّل الله تعالى الْمَسْعَى بالنجاح. كما تحملوا الجراح، والمشقة فى سبيل هذه الغاية النبيلة...

ثالثاً:

بالنسبة للشفيع، وهو دكتور، يعالج أمراض البلهارسيا فى مدينة أبو تشت... وتم اتصالى بالسيد المحافظ النَّابه - وحينما عرضت الأمر عليه وجدته على دراية بما يجرى (رحمه الله رحمة واسعة)..

واستجاب لى ، وتم نقل الدكتور إلى الإسكندرية، ووُدِّع من «أبو تشت» بالدموع ممَّن يرغبون فى بقاء الأمور إلى ما هى عليه رغبة منهم فى الانتقام من

أعدائهم كما قُضِى على بقية العصابات من قوة المركز، أو مخافة أن ينالهم ما نال إخوانهم وكان آخرهم :

شقى من إحدى بلاد المركز، وكان يسير على جسر فى طريق مزدحم بالمارة وكان يوم غيم فقضى عليه الله (عز وجل) وأرسل على رأسه صاعقة من السماء، صائبة التنشين، لأنها مِنَ الله، فأحرقه، ودابته فى ثانية أو تزيد قليلا، ولم يصب أحد : أمامه، أو خلفه بسُوء، وقد أدرك الناس : أن هذا انتقام السماء جزاءً، وفاقًا..

وأعان على ذلك : تجربة، نفذتها فى قريتى. فهم أطوع لى.

جمعتهم جميعًا فى أوقات السطو المسلح، واتفقنا على الآتى :

- **تؤمن مداخل البلد بمُسَلَّحين، مرخَّص لهم. من أول الليل حتى الصباح، وإحاطة المركز.**
- **على القادرين مدّ الساهرين بما يحتاجون إليه من سكر، وشاى، ......**

وكانت نتيجة لذلك: أن ضرب الأمان أروقته على ربوع القرية، وانتشرت التجربة إلى قرى أخرى...

انفقنا فى هذا العمل الجاد، المضنى قرابة عام...

النتيجة لما تقدم :

١ - جفت منابع السطو المسلح، والسرقة بالقضاء على الأشرار، والمجرمين، أو إسكات صوتهم، وتقليم أظافرهم، وَقطع أجنحتهم..

٢ - ظلّت البلاد سنين عدَدًا - بعد ذلك - لم تقع فيها سرقة واحدة.

٣ - نام كل مواطن قرير العين، هانئ البال سوَادَ ليله، ليقوم مبكرا إلى أداء عمله المنوط به، وليكون عضوا فاعلا فى التنمية.

رابعـــاً:

الثـــأر:

أهم أسبابه القتل لما يلى:

(أ) **إبعاد المقتول عن الساحة**، حتى لا ينافس مستقبلا فى مركز سياسى، أو نشاط اجتماعى، أو يظهر على غيره، أو يكون له صوت مؤثر لدى الجماهير، أو الحكومة.

(ب) **توارى العقل**، وبروز العاطفة الشريرة: **فإذا لم يفلح فى إقناع الخصم تخلص منه بالقتل، فى أية خصومة تنشأ من أمور الحياة.**

(ج) **الاستناد إلى قبيلة**: تحميه، وتدفع عنه أذى الأعداء عندما يرتكب جريمته... وذلك : من مساوئ القبلية.

(د) **وجود غنى مجرم**، يدفع قاتلا مجرما، ليقتل خصمه، أو من انتقص حقه. واعداً المجرم بكفالة أولاده - إن قتل - وذلك : بمقدار من الأرض يعيشون عليه.

كما يعده - عند التقاضى - أن يوكّل عنه أعظم من يدافع عنه، ويبرئ ساحته.

وهناك بعض من قُتلوا بسبب أنهم وافقوا على زواج بعض بناتهم من خارج الأسرة، والقبيلة . **وهذا أسوأ أنواع القتل.**

وقد تقتل البريئة، ويقتل أبوها.. دون ذنب، أو جريرة..

هذه هى أهم الأسباب للقتل، الذى يتبعه الأخذ بالثأر..

وقد خطط المكتب، ونجح - بتوفيق الله تعالى - بما يلى :

- الصـلـح ، الذى كانت تُنْفَق فيه الليالى، والأيام، حتى تجف المنابع.. وكان الصلح يتناول الأفراد، والعائلات، والبلدان...

والحق يقال:

إن الصلح مرغوب فيه من جميع الناس؛ لأن التنازع فيه ما فيه من يتم أطفال، وترميل نساء، وقطع علاقات، وتربص بالشر، وتفويت للمصالح، وإضرار بالتنمية: فهو ضرر على القاتل، والمقتول.

ما وجد الصلح النفس المبَرَّأة من القصد، والتى تقصد به وجه الله، وتتحرى الحق والعدل..

وللصلح طرائق - سنتناولها - إن شاء الله تعالى - فى فصل آت...

خامســاً:

الحياة المعطلَّة، بسبب :

مَـوْتُور: يخطط للأخذ بالثأر، ويتحيَّن الفُرَص، فهو لا ينام ليله مترقبا غفلة من خصمه، لينقض عليه، ويطفئ نار قلبه.

وظالم أزهق نفسـاً بغير نَفْس، وهو لا ينام، لأنه يترقب السُّطو عليه، والانقضاض فى أية لحظة من ليل، أو نهار..

وأهل الفريقين، الَّذين يعيشون فى ألم، وقلق، وتعطيل حياة...

سادســـاً:

المنازعات القضائية ، التى تشتعل نارها ، لأتفه الأسباب ، وأتفه الدواعى ، والتى تستهلك المال ، والوقت ، والجهد ، وتشغل المحاكم ، ويثقل كاهلها على السّادة القضاة..

وقد اتجهت عناية المكتبَ - كل العناية - بالصلح فى كل هذه الأمور ، وانتقلنا إلى القرى ، والنجوع ، وأُنفق الوقت ، والجهد فى سبيل ذلك .

وكانت نتيجة هذا العمل الجاد المخلص ، ما يلى :

١ - **تحقق المثل:** «لَوْ أَنْصَفَ النَّاسُ اسْتَرَاحَ الْقَاضِى» فقد استراح القضاء لانعدام ما يقدم إليه من خصومات .

٢ - اتجه المال ، الذى ينفق فى التقاضى للتنمية ، وللإنفاق على العيال .

٣ - تعاون الناس ، وأقبل بعضهم على بعض فى بشاشة ، وإخاء . وكان ثمرة لهذه الجهود المخلصة ، المستنيرة : **إقبال الناس على أعمالهم** ، وفى الضرب فى الأرض فى أمان ، واطمئنان..

كما وجه المكتب نشاطه إلى ما يخص الزُرَّاع فى المجالات الآتية :

(أ) الإرشاد الزراعى المستنير بالزراعة بأسلوب علمىٍّ ، فى مواعيدها ، والإفادة من جميع التجارب فى ذلك .

(ب) وصول مستلزمات الإنتاج فى مواعيدها ، لتنمو الزراعة نمواً سليماً..

(ج) معرفة كل زارع بمديونيته ، وماله ، وما عليه فى سهولة ، ويسر ...

ونتيجة ذلك:

نمت الزراعة، وازدهرت الحياة، ومضت قافلتها فى يُمْن، وأمْن. وأمان...
وزاد الإنتاج، ونمت الإنتاجية... وتحقق الأمل.

وإنى إذ أضع هذه التجارب - فى صدق ، وأمانة - فإنما أبغى نشر التجربة، مادامت توصل إلى أمان، ونماء، وسلم، وسلام، إرضاءً لربِّى...

وقد جعلت الكتاب فى «مقدمة» وهى التى قدمتها، وفصول،.. وقصدى وجه ربى، وأن ألقاه، وما بخلت بنصح لخلقه..

«وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أُنيب»

د/ عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد
دكتوراه من كلية اللغة العربية - بالقاهرة - جامعة الأزهر الشريف
بامتياز مع مرتبة الشرف
كلية آداب قنا - جامعة جنوب الوادى
عميد معهد إعداد الدعاة بقنا - (الأسبق)
قنا - المنشية البحرية
ت : ٠٩٦/٣٣٣١٧٢

الفصل الأول
بحث لغوي
في
كلمة «ثـــأر»

وما سبقها، وتلاها من كلمات، وثيقة الصلة بها، ونشأت عنها...

تمهيـــد:

الكلمة : صَوْت.

والصَّــوْت : «مصدر» صَات يصُوت صوتًا، فهو صائت، وصوَّت تصْويتًا، فهو مصوِّت»[1].

«وهو عام، ولا يختص.

يقال: «صَوْت الإنسان، وصَوْت الحمار»

وفي الكتاب العزيز : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ الآية ١٩ من سورة لقمان.

والصـــوت : معقول؛ لأنه يدرك، وهو عرَض، ليس بجسْم، ولا صفة لجِسْم، والدليل على أنه ليس بجسم: أنه مدرك بحاسَّة السَّمْع...»[2].

---

(١) ص ٥ : سر الفصاحة.
(٢) ص ٧ ، سر الفصاحة.

وتكوين الصوت :

أنه «يخرج (هَوَاءً) مستطيلا، ساذجًا. (بحركة الحجاب الحاجز) حتى يعرض له في القصبة الهوائية، والحلق، والفم، والشفتين مقاطع، تثنيه عن امتداده.

كما أن للرأس، وما حوت ما يساعد على خروج الصوت على الهيئة والصفة، التي قد لا يتفق عليها اثنان.. في التنغيم»[١]

وتلك : صنعة المولى، البديع، الذى خلق كل شيء، فأحسن خلْقَه. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ الآية ١٤ من سورة (المؤمنون).

والمقاطع الصوتية، التي تعرض لهواء الحجاب الحاجز، وتأخذ طريقها، وتخرج حروفا، وكلمات..

وهذه الحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت.

«حتى شبـه بعضـهم الحلق، والفم بالنَّاى، لأن الصوت يخرج منه مستطيلاً، سَاذَجًا، فإذا وضعت الأنامل على خُرُوقه، ووقعت المزاوجة بينها، سمع لكل حرف منه صوت، لا يشبه صاحبه.

فـكـذلـك : إذا قطع الصوت في الحلق، والفم بالاعتماد على جهات مختلفة سمعت الأصوات المختلفة، التي هي حروف....»[٢].

---

(١) ص ١٤، سر الفصاحة - بتصرف.

(٢) ص ٥ إلى ١٤ ، سر الفصاحة.

انظر مايلى ٢ / ٤٠٤، ... الكتاب.

وانظر ١ /٣٢٨، ١ / ٣٩٢، ... المقتضب

وانظر كتابنا الواو. ص ,٢٥.... ٣٧ ....

وانظر كتابنا الباء ص (٣، ..... وما بعدها).

ومن هذه الحروف : تتكون الكلمات، ومن الكلمات تتكون الجمل. والكلام، وتأتي الفصاحة، والبلاغة..

وقد أفاض العلماء الأُوَل فى حَصْر الحروف الهجائية.

ومعرفة مخارج تلك الحروف، وصفات تلك المخارج.

وجـــعلوا ذلك : منارة لمن أراد الفصاحة، وارتقى إلى البلاغة، ولمعرفة فصاحة الكلمة التى هى اللبنة الأولى فى فصاحة الكلام، وصرح البلاغة.

والكلام : قبل أن يخرج من الفَم، سالكا طريقَه المتقدم.

يمر بمرحلتين :

الأولى : الكلام النَّفْسيّ، والذى يتهيأ فى النفس، قبل أن ينطق به اللسان.

والثانيـة : إبراز هذا الكلام النفسى عن طريق اللسان، وينوبُ عنه القلم فيما يُكْتَب.

وقديما قالوا : «القلَمُ أحَدُ الّلسَانَين».

كما قال حكيم :

إنَ الكلامَ لَفِى الفؤَادِ، وإنَّمَا جُعِلَ الّلسَانُ عَلَى الفؤَادِ دليلاَ

كما قيل :

لِسَان الفتَى نصفٌ، ونِصفٌ فؤَادُه فلم يبْقَ إلا صورة اللحم، والدِم

والكلام - فى أرجح الأقوال - عند العلماء

ا - توقيفىٌ: من الله (عز وجل)

وذلك : فى أول الأمـــــر - حينما علَّم الله (عز وجل) آدم (عليـه الصـلاة، والسلام) الأسماء كلها.

وذلك : فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ الآية ٣١ من سورة البقرة.

وهى - فى أدق التفاسير : أسماء الموجودات، التى سيتعامل معها على الأرض، وطريقة الإفادة منها، حتى يتحقق لحفظ الحياة، كما أن استمرار الحياة إنما يأتى بالزواج. وقد وعَىَ كلَّ ذلك.

ب - بالتواضع :

أى : يضع الناس أسماء للموجودات، التى يحسونها بحواسّهم المختلفة..

وقد وضعوا فى أول الأمر أسماء للمحسوسات: كخرير الماء، وحفيف الشجر، وفحيح الحية، وثُغَاء الشاة، وخُوَار البقر، وطقْطَقة النار... وغير ذلك.

ثم ارتقت مداركهم، ووضعوا ألفاظا للمعنويات.

«كالعقْل، والحلْم، والكَرَم، والعَدْل، والصَّفْح...» وغير ذلك من أسماء المعنويات...

وتم ذلك : فى أوقات متباعدة، مع مراعاة قانون النشوء، والارتقاء، الذى تسير عليه نظم الحياة..

والكلام :

نعمة من الله (عز وجل) خصّ به من كرَّمهم على كثير ممن خلق تكريمًا.. حتى يتم التفاهم، ويتم التعاون، ويقوم أمر الحياة على نظام، محكم فريد.

وقد اختلفت لغات بنى البشر اختلافهم فى سُكْنَى الأقاليم، وتعاملهم مع الحياة.. وما يحيط ببنى البشر.

وذلك : مظهر من مظاهر عظمة الله (عز وجل) :

﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ الآية ٢٢ من سورة الروم.

وعلينا ان نُبيِّن :

الكلمـــة : وهى قَوْل مُفرَد، وتتكون من حروف ذات مقاطع - كما ذكرنا -

والكلمة : يتكون منها الكلام، وتكون اللغة.

وعلينا أن نذكر أن كل كلمة تخضع لقانون الكون العام، الذى وضعه بديع السماوات والأرض.

فكل مافى هذا الكون يخضع لهذا القانون العام، والذى وضحته الآية الكريمة فى حقِّ من كرمهم الله تعالى على كثير ممن خلق تكريمًا.

يقـول (عـز وجل) : ﴿ ... خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ... ﴾ من الآية ٥٤ من سورة الروم.

ولم يقل (عز من قائل) وشيخوخة، وهرمًا، ومَوْتًا، حيث يُكْفَتُ فى الأرض، ويدفن فيـها ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ الآيتـان ٢٥، ٢٦ من سورة المرسلات. ثم بعث، ونشر...

والكلمـة كـذلك : تولد فى بيئتها، التى تولد فيها، ثم تواتيها أسباب القوة، بكثرة تداولها، واستعمالها، ثم بعد هذه القوة تنتابها عوامل الضعف، والوهن، ويقل استخدامها فى الكلام، ثم تتلاشى، وتدفن فى بطون المعجمات، والقواميس.

وقـد تبعث، وتنشر مرة أخرى لدواعٍ تقتضيها، وهنا يؤم المتكلم المعجمات، والقواميس حيث يأخذ منها، وينشر ما ضمته بين دفَّاتها.. وإذا كان هذا القانون يجرى على الكلمة، فإنه يجرى على اللغة التى منها الكلمة لكن بطريق، سهل، مأمون، يخضع لقانون النشوء، والارتقاء..

وآية ذلك : أنك لو قرأت المعلَّقات، أو قصائد من الأدب الجاهلي لوجدت أنك تحتاج إلى القواميس لتأخذ منها معاني كلمات، تَوارَى معناها، ولم تستخدم في العصر، الذي نعيش فيه.

مع أن الشاعر حينما أنشأ قصيدته كانت جميع كلماتها مألوفة عنده، شائعة في عصره وبيئته، لا لبس فيها ، ولا خفاء..

وإننا حينما نفسر مادة «الثأر» نجد كثيراً من الكلمات، التي نشأت ودارت في فلكها، أو كانت شديدة العلاقة بها.

وإذا كنا قد وعينا ما تقدم، وذكرنا أنه قانون كوني عام... في الكلمة، واللغة،... فإننا نستثني من ذلك: اللغة العربية، فإنها لغة كتاب حفظه الله (عز وجل) وصانه، فحُفظت بحفظه، وحفظت كلماتها به.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الآية ٩ من سورة الحجر.

حِفْظَ : لغةٍ، ومعْنى، وهدايةٍ، ودستورٍ، واتّجاهاتٍ...

وإذا كنا قد وعينا ما تقدم فعلينا أن نقدم مادة الثأر، وما دار في فلكها من كلمات، ونشرحها شرحا لغويا مبسوطا، حتى لكأننا نعيش في العصور التي كانت سائدة قوية فيها هذه الكلمات.

فنقول: والله الرحمن، المستعان
سبب «الثأر»، والأخذ به «القَتْل»
وعلينا أن نقدم مادة (ق ت ل) :

مادة : (ق ت ل) :

عبّرت عن أول جريمة قَتْل في بني البَشَر، وسجلها القرآن الكريم بملابساتها فكانت هي المادة الأولى، التي ينبغي أن تنال منا عناية في العرض والتوضيح .

قال الله تعالى قاصًّا علينًا ما جرى بين أخوَين، تربيًا في حجرْ بيت نُبوّة، وطُهْر، ولم يكن لهما إلف، سابق بالقتل، ولكنها حكمة الله تعالى، التي تسمو عن مداركنا، قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠ من سورة المائدة.

وجاء استخدام مادة (ق ت ل) في الآيات الكريمات على النحو التالي :

١ - «لأقتلنّك» فعل مضارع : لام موطئة للقسم، ومؤكد بنون التوكيد الثقيلة.

٢ - «لتقتلني» فعل مضارع أيضا : وبه اللام، ونون الوقاية، وياء المتكلم.

٣ - «لأقتلك» : فعل مضارع، مسبوق باللام، وبه كاف الخطاب للمخاطب.

٤ - «قَتْلَ» مَصْدر «قَتَل، يقتُل قَتْلاً»

٥ - «فقتله» فعل ماض، به فاء العطف، التي تدل على التعميم، والمبادرة بالقتل، دون إبطاء، أو تأخير، كما أن به هاء الغائب، فكأنه أجنبي عنه.

ونوردُ ظروف الواقعة، وملابساتها أخذاً من جار الله في كشافه بتركيز، ما أمكن ذلك، وذلك في النقاط التالية :

- ابْنَا آدم: هما لصُلْبه، وهما : قابيل وهابيل.
- منبع الجريمة : الحقْد الأَسْوَد :

فقد أوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجمل، واسمها «إقْليمَا». فحسده عليها اخوه، وسخط.

- تدخل آدم (عليه الصلاة والسلام) وقال لهما: قرِّبا قُرْبَانًا، فمن أيكما تقبل تزوجها.

فقبل قربان هابيل: بأن نزلت عليه نار، فأكلته.

- ازداد قابيل سخطا، وحَسَدًا على هابيل وتوعده بالقتل.
- قال هابيل لقابيل : إنما أتيت من قبل نفسك، لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قِبَلِي، فلم تقتلني؟ ولم لا تحمل نفسك على التقوى، فتنال درجة القبول؟
- وكان هابيل أقوى من أخيه، وأبطش منه، ولكنه خاف الله...
- فطوعت لقابيل قتل أخيه نفسُه، ووسعته له، ويسرته عليه..
- قُتل «هابيل» وهو ابن عشرين سنة.
- وموضع قتله: عند عقبة حِرَاء، وقيل بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.
- هابيل: أول قتيل من بني آدم على الأرض، وقابيل أول قاتل..
- ولما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء، مايدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره سنة....
- بعث الله تعالى غرابين، فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة... وسوى عليه التراب.

- أخذ قابيل الدرس من الغراب، وفعل مثله.[١]

واستخدم القرآن الكريم مادة (ق ت ل) في مائة وستين آية، وقد تتكرر المادة أكثر من مرة في آية واحدة. ونقتطف من ثمار الاستخدامات ما يلي :

جاءت المادة :

- فعلا ماضيا، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ الآية ٢٥١ من سورة البقرة.

- فعلا ماضيا، مسنداً إلى تاء المتكلم في قوله تعالى : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ الآية ٤٠ من سورة طه.

- فعلا ماضيا، مسندا إلى جماعة المخاطبين، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ الآية ٧٢ من سورة البقرة.

- وغير ذلك....

جاءت المادة :

- مصدراً، قال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ الآية ٣٠ من سورة المائدة.

- فعلا مضارعا، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ الآية ٢٦ من سورة غافر.

- فعلا مضارعا كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ الآية ١٤ من سورة الشعراء.

وغير ذلك كثير.

جاءت المادة :

- فعل أمر، كقوله تعالى : ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ الآية ١٩١ من سورة البقرة.

- فعل أمر كقوله تعالى : ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية ١٩١ من سورة البقرة.

جاءت المادة :

- فعلا ماضيا، مبنيا للمجهول، قال تعالى : ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ الآية ٩ من سورة التكوير.

وجاءت المادة :

- فعلا مضارعا، مبنيا للمجهول، قال تعالى : ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية ١٤١ من سورة الأعراف.

- وغير ذلك...

وجاءت المادة :

- مصدراً للفعل المركب : المشدَّد، قال تعالى : ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ الآية ٦١ من سورة الأحزاب.

- وجاءت المادة :

- جمعا كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ الآية ١٧٨ من سورة البقرة.

ويستدل بهذا المقدار اليسير على الكثير...

كما جاءت مادة (ق ت ل) :

متبوعة بشيء يتعلق بها :

- القـتل الخطأ : قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا ﴾ الآية ٩٢ من سـورة النساء.

- القتل ظلمًا : قال الله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ الآية ٣٢ من سـورة المائدة.

- القتل العمد : قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية ٩٥ من سـورة المائدة.

- وصف النفس بالزكية فى القتل : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ الآية ٧٤ من سورة الكهف.

- القتل سفهًا : قـال الله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا ﴾ الآيـة ١٤٠ من سورة الأنعام.

- القتل من إملاق : قال الله تعالى ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

- القتل خشيـة الإملاق : قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ الآية ٣١ من سورة الإسراء.

- القتال فى سبيل الله : قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية ٧٦ من سورة النساء.

- القتال فى سبيل الطاغوت : قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ الآية ٧٥ من سورة النساء.

بعد عرض ما تقدم :

علينا أن نفسِّر مادة (ق ت ل) : وعلينا أن نُتَمِمَ شطْر القواميس، والمعاجم اللغوية.

مَعْنى «القتل»

في معجم مقاييس اللغة، مادة (قتل) :

«القاف، والتاء، واللام أصل صحيح، يدل على إذلال، وإمَاتة، يقال : قتله قتلاً، والقِتْلة : الحال، التى يقتل عليها، يقال : قتله قِتْلَه سَوْء، والقَتْلة : المرة الواحدة، ومقاتل الإنسان : المواضع، التى إذا أصيبت قتله ذلك، ومن ذلك : قتلت الشيء خُبراً، وعلماً....

ويقال : تقتلت الجارية للرجل، حتى عشقها، كأنها خضعت له...
وأقتلت : فلانا : عرضتُه للقتل، وقلب مقتَّل : إذا قتله العشق.

قال امرؤ القيس :

وما ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ، إلا لتَضْرِبِى بسَهْمَيْكِ فِى أعْشَارِ قَلْبٍ. مُقَتَّلِ

فالمادة : تدور حول : الإذلال، والخضوع، والقتل، والتعمّق في الشيء

وفي أساس البلاغة، مادة (قتل) :

ومن المجاز : دَابة مُقَتَّلة : مذلَّلَة، قد مرنَت على العمل، وقلب مُقَتَّل : أهلكه العشق، واقتتلته النساء : افتننَّه حتى أهلكنه...

وقتَلْتُ الخمر : مزَجْتُها.. والمنايا، والليالى قواتل للأنام..

وفي القاموس المحيط، مادة (قتل) : باب اللام. فصل القاف.

«قتله، وبه عن ثعلب قَـتْـلاً، وتقتَـالاً: أماته، كـقـتَّله، والشيء خبْـرا: علمـه، والشراب: مزجه بالماء، وقاتله قتَالاً، ومقاتلة، وقيتَالا، وقتَله قِتلة سَوء، والقِتْل - بالكسر: العدو، والمقاتل جمع أقتال...

والقاموس ضم جميع ما تقدم، وزاد عليه..

وجاء صاحب اللسان بعلم، وتصريف كثير من مادة (قتل) باب اللام، فصل القاف.

نقتطف منه ما يلى :

«.... قتله: إذا أماته بضرب، أو حَجَر، أو سُم، أو علة، والمنية قاتلة.

وفى الحديث : «أَشَدُّ النَّاسِ عذابًا يَوْمَ القيَامَة مَنْ قَتَل نبيًّا، أو قَتَله نبيٌّ»

أراد من قتله وهو كافر، ومن أمثالهم : «مَقْتَل الرَّجُلِ بيْنَ فكَّيْه» أى : «سبب قتله بين لحييه، وهو لسانه...» ولقد أتى صاحب اللسان بعلم غزير.

وبذلك :

يكون قد اتضح لنا معنى المادة، وما تدور حوله..

وننتقل بعد ذلك - بمشيئة الله تعالى - إلى تبيان كلمة «الثأر»

مادة (ث أ ر)

فى معجم مقاييس اللغة، مادة (ثأر) :

«الثاء، والهمزة، والراء»: أصل واحد، وهو الذَّحْل المطلوب، يقال : ثأرت فلانا بفلان، إذا قتلت قاتله، قال قيس بن الخطيم

ثأرتُ عَديًّا، والخطيم. فَلَمْ أضِع   وَصِيَّة أشياخٍ جُعلْتُ إزاءَها[١]

ويقال: هو الثأر المُنيم، أى: الذى أدرك صاحبه نام.
ويقال فى الافتعال منه: «اثأرْتُ» قال لبيد:

والنِّيبُ: إنْ تَعْرُ منى رِمَّةً خَلَقًا   بعْدَ المَمَاتِ، فإنِّى كنْتُ أَتَّئرُ[٢]

فأما قولهم: استأثر فلانٌ فلانًا، إذا استغاثه فهو من هذا، كأنه دعاه إلى طلب الثأر، قال:

إذَا جَاء مستثئرٌ كان نَصْـــره   دُعَاءً ألا طيروا بكلّ، وأى نَهْدِ[٣]

والثؤرة: الثأر - أيضا - قال:

بَنى عامرٍ: هلْ كنْتُ فى ثؤرتى نِكْسًا[٤]

وجاء فى أساس البلاغة، مادة (ثأر):
«ثأرْت فلانا بحَميمى»: إذا قتلته به.

وثأرتُ حَميمى، وبحميمى: إذا قتلت قاتـله، فعدوّك مثـئورٌ، وحميمك مثئور به....

---

(١) يقول: أخذت بثأر عدى، والخطيم، متبعا وصية أشياخى العظماء.
وهذا يدل على تعطشهم للأخذ بالثأر.
(٢) ويقول لبيد: والنوق إن لم تلمم بقبرى، فتأكل عظامى، أخذاً بالثأر منى، فقد كنت أنحرها للضيفان فلها ثأر على... ومن عادة الإبل: أنها إذا لم تجد حِمْضًا أكلت عظام الموتى.. والبيت يدل على تأصل عادة الأخذ بالثأر حتى عند الحيوان..
(٣) والبيت: يدل على المناصرة فى الأخذ بالثأر.
(٤) وشطر البيت يدل على عدم الضعف فى الأخذ بالثأر...

وقال كبشة :

فإن أنتم لم تثأروا بأخيـكم فمشوا بآذان النعَام المُصَلَّم

وثارى عند فلان أى: ذَحْلى، وأنا أطلب ثأرى عنده...

ويقال للثائر أيضًا : «ثأرٌ» ، فكل واحد من الطالب، والمطلوب ثأر صاحبه، وكل واحد منهما يقول. فلان ثأرى : أحدهما كالصيد، والثانى كالعدل. وأدرك فلان ثأرًا مُنيمًا، وأصاب الثأر المُنيم: إذا قتل نبيلاً فيه وفاء لطلبته.

وجُمع الثأر، الذى هو معنى، فقيل «يا لثَارَات الحُسَيْن، أريد: تعالين يَا ثَارَايه، أى : يا ذُحُوله، فهو أوان طلبكن...

ومن عرض جار الله : يتبين : الحرص على الأخذ بالثأر، والدعوة إلى التناصر بشأنه، وقد يؤخذ به النبيل، .....

وأوجز القول صاحب القاموس المحيط حيث قال: مادة (الثأر) :

الثأر: الدم، والطلب به، وقاتل حميمك، الجمع «أثآر، وآثار، والاسم الثؤْرة والثؤُرة، وثأر به: كمنع : طلب دمه، وقتل قاتله، وأثأر أدرك ثأره، واستثأر: استَغَاث، ليثأر بمقتوله،

ويَا ثَارات زَيْد، يا قتلته ، والثائر من لا يبقى على شىء حتى يدرك ثأره، ولا ثأرت فلانا يداه، لا نفعتا، وأصله: اثتأرت: أدركت منه، ثأرى.

والثأر المُنيم: الذى إذا أصابه الطالب رَضى به، فنام بعده.

وثأرتك بكذا : أدركت ثأرى منك

وقد أقل صاحب القاموس الحزَّ، وطبَّقَ المفْصَل - كما يقال

وقد كان موفق العرض :

- حيث جاء بالجمع.
- وذكر الاستغاثة فى الأخذ بالثأر ، والمطالبة.
- كما بين أن الثائر : لا يبقى على شىء ، حتى يدرك ثأره.
- وفسّر الثأر المنيم ، الذى ينام صاحبه بعد أن يرضى عما فعل...

ونلمم بلسان العرب ، فقد سجل ابن منظور فيضا من استخدامات مادة «ثأر» : نقتطف من أزاهيره بعضها...

«الثأر ، والثؤرة» : الذَّحْل.

ابن سيده : الثأر : الطلب بالدم ، وقيل : الدم نفسه ، والجمع : أثآر ، وآثار على القلب..

وقيل : الثأر : قاتل حميمك ، والاسم : الثورة..

الأصمعى : أدرك فلان ثؤرته : إذا أدرك من يطلب ثأره...

ويقال : ثأرت القتيل . وبالقتيل ثأراً ، وثؤرة ، فانا ثائر ، أى : قتلت قاتله...

قال الشاعر :

شفيتُ به نفْسى ، وأدركت ثؤْرَتى بنى مالك : هل كنْتُ فى ثؤرتى نِكْسَا

والثائر : الذى لا يبقى على شىء ، حتى يدرك ثأره..

والثائر : الطالب ، والثائر : المطلوب...

وقال الشاعر :

قتلتُ به ثأرِى ، وأدْرَكْتُ ثُؤرتى ... ...

وقال حسَّان :

لتسمعنَّ وشيكًا فى دِيَارِهـــم　　　الله أكبرُ يَا ثَارات عُثْمَـــانَا

وقال لبيد :

والنِّيبُ: إنْ تَعْرُ مِنِّى رِمَّةً خَلَقًــا　　　بعْدَ المَمَاتِ، فإِنِّى كنْتُ أَثَّئِرُ

أى : كنت أنحرها ، فقد أدركت منها ثأرى فى حياتى مجازاة لتقضّمها عظامى النخرة، بعد مماتى.

وذلك : أن الإبل إذا لم تجد حِمْضًا ارْتَمَّت عظام الموتى، وعظام الإبل تحمض بها .

وفى حديث عبد الرحمن يوم الشُّورى: «لا تُغْمِدوا سيُوفَكُم عَنْ أعْدائِكُم، فتوتروا ثأركم».

الثأر ههنا : العدو ، لأنه موضع الثأر، أراد : أنكم تمكنون عدوكم من أخذ وتره عندكم.

يقال : وترتُه : إذا أصبته بوتر ، وأوترته : إذا أوجدته وتره، ومكنته منه.

وقال الجوهرى :

الثأر المنيم: «الذى إذا أصابه الطالب رضى به فنام بعده...»

وقد جمع صاحب اللسان كثيراً من أقوال السابقين عليه ، وأفاض، وأجاد ، وقد فهمنا : من كلمات أصحاب القواميس ما يأتى :

أن العرب لا ينامون على ثأر، وأنهم يجدون فى الأخذ به ، وأنه نار تؤرقهم، وتقضُّ مضاجعهم، حتى يصلوا إلى بغيتهم.

كما أنهم يعيَّرون إن تقاعسوا، أو تهاونوا فى الأخذ بالثأر..

وأن الأخذ به قد تعدى من عالم المعقول إلى عالم البهائم، والأنعام..

وعلينا بعد أن أوضحنا كلمة «القَتْل» وأن ميلادها ارتبط بأول حادث قتل، وحادث قتيل..

وقد جاءت كلمة «الثأر» تبعًا لها، فهي مرتبطة بالقتل، ونتيجة عنه.. وقد فهمنا كلمة «ثأر» في مختلف المعاجم، والقواميس، وقد جاءت مرادفة لها، أو ناشئة عنها بعض الكلمات..

وعلينا أن نوضح ذلك. حتى تكتمل الصورة في ذهن القارئ، والمطلع..
فمن ذلك كلمة :

(ذحـــل)

في المصباح المنير، مادة (ذَحْل)

الذَّحْل : الحِقْد، وبفتح الحاء، فيجمع على «أذْحال» مثل سبب، وأسباب، ويسكن فيجمع على «ذُحُول» مثل : فَلْس، وفُلوس. وطلب بذحله ، أي بثأره.

ويستفاد من كلام الفيُّومي :
أنه الحقد، الذى يترتب على القتل، ولا يسكن أُوَارُه حتى يؤخذ بالثأر.
ولم يخرج الرَّازى عما تقدم حيث قال في المختار، مادة (ذ ح ل) :

الذَّحْل : الحقد، والعداوة.
يقال : طلب بذحْله، أى : بثأره، والجمع «ذُحُول»

وجاء في القاموس المحيط، مادة (الذَّحْل)

«الذَّحْل» الثأر، أو طلب مكافأة بجناية جنيت عليك، أو عداوة أوتيت إليك، أو هو العداوة، والحقد، جمع «أذحال، وذُحُول...»

وزاد الفيروزبادى المعنى إيضاحا، وأتى ببعض الاستعمالات.

وفى معجم مقاييس اللغة، مادة (ذحل) :

«ذَحل» الذال، والحاء، واللام أصل واحد، يدل على مقابلة بمثل الجناية يقال : طلب بذَحْلِه»

ولم يخرج ابن فارس عما تقدم.

وقال جار الله فى أساس البلاغة، مادة (ذَحَل) :

«طلبت عند فلان ذَحْلاً، ولى عندهم ذُحُول، قال عبد القيس بن حقاف البرجُمىّ:

وَلاَ سَابِقِى كَاشِحٌ، نــــازِحٌ بِذَحْلٍ، إذَا ما طَلَبْتُ الذُّحُـــولاَ

يريد أن يقول: إنه جادٌّ فى طلب ثأره، لا يسبقه سابق..

وجاء فى اللسان مادة (ذحل) :

«الذحل: الثـأر، وقيل: طلب مكافأة بجناية جنيت عليك، أو عداوة أوتيت إليك، وقيل: هو العداوة، والحقد، وجمعه أذحَال، وذُحُول، وهو: التِّرة، يقال: طلب بذحله، أى : بثأره.

وفى حديث عامر بن الملوّح: «ما كان رجل ليقتل هذا الغلام بذحله، إلا قد استوفى...»

ولم يفض ابن منظور كعادته..

وقد بان لنا من العرض المتقدم معنى كلمة «الذّحل» واستعمالاتها المنوعة.

ومما يتصل بمادة (الثأر) ويترتب عليها مادة (وتر)

وقد جاءت المادة فى بعض ما عرضناه من كلام المعجمات اللغوية.

كما جاءت بعض تصاريف المادة في قول أخت كليب لجليلة: زوج كليب حينما قتله جسّاس.

«قُومِي عَنْ مأْتَمِنا، فأنْت أُخْت قاتلنا، وشقيقة واتِرِنَا..»

مادة(وتـــر)

في المصباح المنير، مادة (وتر) :

«.. والوَتر» : الذَّحْل - بالكسر فيهما - لتميم، وبفتح: العَدَد وكسر الذَّحل لأهل العالية. وبالعكس، وهو فتح الذحل، وكسر العدد لأهل الحجاز...»

وفسّر الفيّومي «الوتر» بالذحل، وأتى بأكثر من لهجة لأكثر من قوم...

وجاء في أساس البلاغة، مادة (و ت ر) :

«... ووترت الرجل: قتلت حميمه، فأفردته منه، وطلب وِتْرَهُ، وتِرَتَه، وهو : طلأَب الأوتار، والتِّرات...»

ولكأنَّ جار الله يرد الكلمة إلى الوتر: الفرد، إذ قتل الحميم يجعل الحميم فرداً، بعد أن كانا حميمين.

وجاء في معجم مقاييس اللغة، مادة (وتر) :

«.. والوَتر: الذَّحْل» يقال: وَتَرتُه أَتِرُهُ وتْراً.

والوِتْر، والوَتْر: الفرد....»

ولم يخرج ابن فارس عما تقدم.

وجاء في القاموس المحيط، مادة (وتر) :

«الوتر - بالكسر، ويفتح - الفرد... والذَّحْل، أو الظلم فيه، كالتِّرة، والوتيرة،

وقد وتَرَه يَتِرُهُ وتْراً، وتِرَة، والقوم جعل شفعهم وِتراً، كأوْتَرهم، والرجلَ أفْزَعه، وأدركه بمكروه....»

وقد ذكر الفيروزبادى :

من المعانى : أفْزَع غيره، وأدركه بمكروه، ولا مكروه أكبر من القتل. وجاء صاحب اللسان بفيض من المعانى، والاستعمالات لمادة (وتر)

نأخذ من ذلك ما يلى :

وأوتره، أى : أفذّه...

والوَتْر، والوِتر : التِّرة، والوتيرة : الظلم فى الذَّحْل، وقيل : هو الذَّحْل عامة..

وقد أوترته وتراً، وتِرةً، وكل من أدْرَكتَه بمكروه، فقد وترته والموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه...»

وأتى صاحب اللسان بعلم واسع غزير...

وقد لحظ لنا :

- أنه أكد كثيراً من المعانى المتقدمة فى معجمات اللغة.
- وأكد على أن الوتر : الإدراك بمكروه.
- كما زاد عما تقدم : بأن الموتور : الذى قتل له قتيل، فلم يدرك بدمه.

- ومن ذلك نفسر قول أخت كليب : «شقيقة واترنا» : من أفزعنا بقتل كليب، ولم نأخذ بثأره بعد.

ومما له علاقة بالقتل، والدم مادة

(هَـــدَرَ)

وعلينا أن نوضح معنى المادة، واستعمالاتها. فقد وردت استخدامات لها.

يقولون : «دَمُه هَدَر» : أى : باطل..

وقـد أهدر الرسـول الأمين دم كَـعْب بن زُهَيْـر ، قبـل أن يأتى مـسلمًـا ، وينشـد قصيدته : «بانَتْ سعَادُ»

وكان قد سبق منه هجاء مقذع لأخيه ، وللإسلام...

وقد جاء فى المختار مادة (هـدر) :

هَدَر دمُه : بَطَل، وبابه ضرب ، وأهدره السلطان ، أى : أبطله وأباحه، وذهب دمه هَدْرًا ، بسكون الدال ، وفتحها ، أى : باطلا ، ليس له قَوَد، ولا عقل...»

ويريد :

- إباحة قتل من أهْدَر دَمه.

- ولا يقتل به قاتله، وليس له قَوَد، ولا عقل... ، ديَة...

ويقول الفيومى فى المصباح المنير، مادة (هَدَر) :

«... وهَدَرَ الدَّمُ هدْرًا» من بابى «ضرب ، وقتل» : بطل، وأهدر- بالألف - : لغة، وهدَرْتُه من باب قتل ، وأهدرته : أبطلته ، يستعملان متعديين أيضا .

والهَدَر - بفتحتين - اسم منه ، وذهب دمه هَدْرًا- بالسكون، والتحريك أى : «باطلا ، لا قوَدَ فيه...»

وقد أكد الفيومى المعانى المتقدمة ، كما أثبت أكثر من ضبط ، ولغة.

وجاء فى معجم مقاييس اللغة ، مادة (هَدَر) :

الهاء ، والدال ، والراء : يدل على سقوط شىء، وإسقاطه...

وهدر السلطان دم فلان هدراً : أباحه...

وقد أكد ابن فارس ما تقدم...

ويقول جار الله فى أساس البلاغة ، مادة (هَدَر) :

«ذهب دمـــه هدَراً، وهـدر دمـــه يهـــدر، ويهـــدُر، وأهدره السلطان: أبطله، وأسقطه...

وقد أكد جار الله ما تقدم.

وفى القاموس المحيط، مادة (هدر) :

«الهدَرُ: محركة: ما يبطل من دم، وغيره... ودماؤهم هدَرٌ :

محركة – أى : مُهْدَرَة....

وسجل الفيروزبادى استعمالات كثيرة للمادة.

وجاء ابن منظور فى اللسان، مادة (هدر) بفيض، نغترف منه ما يلى :

«الهدَر: ما يبطل من دم، وغيره، هدر يهدِر – بالكسر، ويهدُر – بالضم – هدْرًا، وهدَرًا – بفتح الدال، أى : بطل.

... وأهدره السلطان: أبطله، وأباحـه، ودماؤهم هدَرٌ بينهم، أى : مهتـدَرة، وتهـادَرَ القوم: أهدرُوا دماءهم، وذهب دم فلان هدْرًا، وهَدَرًا – بالتحريك – أى : باطلا، ليس فيه قَوَد، ولا عَقْل، ولم يدرك بثأره...

وفى الحديث : «من اطّلَع فى دار بغير إذْن فقد هدَرَت عينه، أى : إن فقئُوها ذهبت باطلة، لا قصاص فيها، ولا دية....»

وأهم ما أضافه ابن منظور :

– هدر الدم : إباحته لمن يباشر قتل من أهدر دمه.

– الدم الهدر : الذى لا قَوَدَ فيه، ولا عَقْل، ولا يقتل قاتله به

ونتقل إلى مادة :

(بطـــــل)

وقد استخدم المادة امرؤ القيس بن حجر الكندى عندما قتلت بنو أسد أباه، وكانوا قد ملكوه عليهم، وليس منهم نظير رواتب معينة...

قال امرؤ القيس متوعدًا :

والله : لا يُذْهَبُ شيْخي بَاطــــلا   حتَّى أُبيرَ مالكًـــا، وكاهـــــلاَ
القاتليــــــنَ الملكَ الحُلاحِــــلاَ   خيرُ معَدّ حَسَــــبًا، ونائـــــلا

يريد أن يقول :

والله لن يذهب دم أبى هَدَرًا حتى أُفْنِى القبيلتين، وهما : مالك وكاهل.
القاتلين الملك السيد العظيم، أفضل معدّ فى حَسَبه، وكَرَمه...

وعلينا أن نقدم للقارئ الكريم معنى كلمة «باطل» :

فى أساس البلاغة، مادة (بطل) :

«هو بَاطِل، بيِّن البُطْلاَن.... وذَهَب دَمُه بُطْلاً»

يريد هدراً، لا تبعة له عند أحد.

وفى معجم مقاييس اللغة، مادة «بطل» :

«الباء، والطاء، واللام: أصل واحد، وهو : ذهاب الشيء، وقلة مكثه، ولبثه...
وذهب دمه بُطْلاً، أى: هَدراً».

وقد أكد المعنى المتقدم.

كما أكَّده الفيومى فى المصباح، مادة (بطل) :

«.. وذهب دمه بطلا، أى : هدراً».

وفى القاموس المحيط، مادة (بطل) :

بَطَل بُطْلاً، وبطولاً، وبُطلانا - بضمهن: ذهب ضياعا، وَخُسْرا
ولا تخرج الاستعمالات التى ذكرها عن معنى ما تقدم.

وفى لسان العرب، مادة (بطل) :
بطل الشيء يبطُل بطْلاً، وبطْلانًا: ذَهَب ضيَاعًا، وَخُسْرا، فهو باطل، وأبطله، ويقال: ذهب دمُهُ بُطْلاً، أى : هَدَرًا..

وكلام ابن منظور :
- فيه تأكيد لما تقدم
- كما أتى باستخدامات كثيرة للمادة.
وقد جاء فى بيتى امرئ القيس. المتقدمين :
.... حتًى أبيرَ

فاستخدم مادة :

(بـــور)

ونقول فى معناها :

فى المختار مادة (ب و ر) :
«البور: الرجل، الفاسد، الهالك، الذى لا خير فيه، وامرأة بور - أيضاً -.
وقوم بور: هلكى... وأبارَهُ الله: أهْلكه... والبَوْر: كالثور: الأرض، التى لم تزرع.. وبار المتاع: كَسدَ، وبار عمله: بطل ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ من الآية ١٠ من سورة فاطر.

وعلى ذلك يكون قصد امرئ القيس بقوله : «أبير» أهلك، وأفنى، وأقتل.

ويقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة، مادة (بور) :

الباء، والواو، والراء أصلان :

أحدهما : هلاك الشيء، وما يشبهه مِنْ تعطله. وخلوه.

والآخر : ابتلاء الشيء، وامتحانه

فأما الأول : فقال الخليل : البُوَار : الهلاك، تقول : باروُا، وهم بور.

قال الله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ الآية ١٢ من سورة الفتح.

وقد أكَّد المعنى المتقدم...

وفى أسَاس البلاغة، مادة (ب و ر) :

«فلان له نوره، وعليك بوره» أى: هلاكه..

وبنو فـلان بادُوا، وبارُوا، وأبادهم الله، وأبارهم، وهو حَـائر، بَائر، وإنه يعنى حور، وبور....»

وفى القاموس المحيط، مادة (البور) :

«البور : الأرض قبل أن تصلح للزرع، أو التى تجمّ سنة لتزرع من قابل، والاختبار كالإبتار، والهلاك... وبوار الأيم: أن تبقى فى بيتها، لا تُخطب...»

وقد أكد ما تقدم الفيروزبادى، وجاء باستخدامات كثيرة للمادة.

وفى اللسان، مادة (بور) فيض نغترف منه ما يلى .

«البوار: الهلاك... والبائر: الكاسد، وسوق بائرة، أى : كاسدة، وفى حديث أسماء : فى ثقيف كذَّاب، ومُبير، أى : مهلك، يسرف فى إهلاك الناس.... وأبار غيره، فهو مُبير...

وأفاض ابن منظور فى استخدام مادة (بور) :
وهى كلها تدور حول الفساد، والهلاك، والإهلاك، والفناء، والإفناء.......
ومما له عَلاَقة بما تقدم، مادة

(بـــوأ)

١ - ومما ورد من المادة، ماجاء فى شعر : عبد يغوث الحارثى، وهو شاعر فارسى وقد أُسِر يوم الكُلاَب. فأنشأ قصيدة، ومما قال فيها :

أقولُ، وقَدْ شَدُّوا لسَـانى بنسْعَـةٍ أمعشر تيمٍ أطلقُوا عَنْ لسَانيـــا
أمَعْشر تيم: قَدْ ملَكتُمْ فاسجحــوا فإنَّ أخاكم لمن يكُنْ مِنْ بَوَائيـــا
فإنْ تقتلونى تَقتلوا بى سَــيِّداً وإنْ تُطْلِقُونى، تحرُبُونى بماليَـــا

يقول :

- يا معشر تيم، يا من أسرتمونى: أطلقوا عن لسانى، ليترجم عما فى قلبى، وليقل فيكم ما يخلد ذكركم أبد الدهر.

وكان من عادتهم شد لسان الأسير إذا كان شاعراً بنسعة، حتى لا يقول ما يضع قبيلة الآسرين. ويلحق بها عار الدهر، وذل الأبد... وقد فعلوا بمالك ذلك.

- يا معشر تيم: إن أخاكم الذى قتل لم يكن مكافئًا لى...
- يا معشر تيم : لينُوا فى معاملتكم، فقد ملكتمونى بالأسر.

والذى تطمئن إليه النفس : أن اللسان لا يشدّ بنسْعة، وإنما أَرَادَ:
افعلوا بى خيراً، لينطلق لسانى بشكركم، وإنكم مالم تفعلوا، فلسانى كالمشدود، لا أستطيع مَدْحَكمُ، ولا الثناء بمكرمتكم فى إطلاق سراحى.

ويقول فى البيت الثانى من الأبيات الثلاثة :
إنَّ صاحبكم الذى قتل ليس نظيرى، ولا مكافئا لى، فلا أُقتل به.

يقولون : يا فلان بُؤْ بفلان، أى اذهب به.

يقال ذلك للمقتول بمن قتل.

ثيم يقول : إن أطلقتمونى أدفع لكم دية عظيمة لصاحبكم بحيث يهلك منها مالى...

٢ - وقد وردت المادة - أيضا - فى قول مهلهل لبجير بن الحارث.

بؤ بشسْع كَلَيبْ، وأنشد :

فـقلتُ له : بُؤْ بامْـرئٍ لَسْتَ مـثْلَه وإنْ كنْتُ قُنْعَـانًا لمن يطلبُ الدَّمـا

وعلينا - بعدما تقدم أن نفسر المادة، كما سبق فى الكلمات، التى سبقت.

(البَـــواء)

فى المصباح المنير، مادة (بوأ) :

«باءَ يبوءُ : رجع، وباء بحقه : اعترف به، وباء بذنبه : ثقل عليه...

والباءة بالمد : النكاح...

وبوأْتُه داراً : أسكنته.... والأبواء : .... منزل بين مكة، والمدينة....»

وقد جاء الفيومى بكثير من الاستعمالات :

«فى المختار، مادة (ب و أ) :

«تبوأَ منزلا : نزله، وبوأ له منزلا، وبوأْه منزلا : هيأه، ومكن له فيه».

والْبَوَاء - بالفتح، والمد - : السواء، يقال : دم فلان بواء لدم فلان : إذا كان كفؤاً له، وفى الحديث : أمرهم أن يتباوءوا. بوزن : يتقاولوا....

وقد نصَّ على التسوية فى الدماء - الرازى -.

وفى معجم مقاييس اللغة، مادة (بَوَأ) : الباء، والواو، والهمزة : أصلان

احدهما : الرجوع إلى الشيء.

والآخر : تساوى الشيئين

....

والأصل الآخر : قول العرب : إن فلانًا لبَواءٌ بفلان، أى : إن قتل به كان كُفؤًا.

ويقال : أبأت بفُلان قاتله، أى : قتلته، واستبأتهم قاتل آخر، أى : طلبت إليهم أن يُقيدُه، واستبأت به مثل استقدت

قال :

فـإنْ تَقـتُلوا منَّا الوليـد، فـإنَّنا أبأنَا به قَـتْلى، تذلُّ المُعَـاطِسَـا

ومنه قول مهلهل لبجير بن الحارث : بُؤْ بشِسْع كُلَيْب»

وأنشد :

فقلت له : بؤ بامرئٍ، لستَ مثلَه وإن كنت قُتعَانًا لمن يطلب الدَّمَا...»

وفى القاموس المحيط، مادة (بَاءَ)

«باء إليه: رجع، وانقطع»، «وبُؤْتُ به إليه، وأبأتُه، وبؤتُه».

والباءَةُ، والباءُ: النكاح، وبوَّأ تبويئاً: نكح، وباء: وافق، وبدمه: أقرَّ، وبذنبه بوءًا، وبواءً: احتمله، واعترف به، ودمه بدمه: عَدَله، وبفلان قتل به، فقاومه، كأباءه، وباوأه، وتباوآ: تعادَلاَ، وبوَّأه منزلاً، وفيه : أنزله، كأباءه، والاسم : البيئة - بالكسر، والرمح قابله به، والمكان حله، وأقام كأباء به، وتبوأ، والمباءة المنزل كالبيئة، والباءة. وبيت النحْل فى الجبل، ومتبوأ الولد من الرحم، وكِنَاس الثور، والمعطن، وأباء بالإبل: ردها إليه، ومنه فرَّ، والأديم جعله فى الدباغ.

والبـواء : السَّواء، والكفء ، ووَاد بتهـامـة، وأجـابوا عن بواء، أى: بجـواب واحـد، والبيـئة - بالكسر - الحالة، وفلاة تبيء فى فلاة: تذهب، وحاجـة بيئـة: شديدة».

وعبارة الفيروزبادى فيها الفناء، كل الغناء، ولذلك أوردتها كاملة بنصها.

وقال جار الله فى أساس البلاغة، مادة (ب و أ) :

«بوأك الله مبوأً صدْق، وتبوأ فُلانٌ منزلاً طيبًا...

«وهم أكفاء سَوَاء، ودماؤهم بَوَاء» و«باءَ فلانٌ بفُلاَن: صار كفئًا له وأبأتُ فلانًا بفلان: قتلته به...

وباءَ بدمه : أقر به على نفسه، واحتمله...»

وجار الله موفق العرض، والهدف.

ونقتطف من أزاهير لسان العرب. مادة (بَوَأَ) ما يلى :

«باء إلى الشيء يبوء بوءاً: رجع، وبؤت إليه وأبأته».

وسمى النكاح باءة، وباءٌ من المباءَة، لأن الرجل يتبوأ من أهله، أى يتمكن من أهله ، كما يتبوأ من داره..

وفى حديث النبى ﷺ «مَن استَطَاع منكم الباءَة فليتزوج، ومن لم يستطعْ فعليه بالصَّوْم، فإنه له وِجَاء...».

«... وباء فلان بفلان بواء - ممدود ، وأباءه، وباداه: إذا قتل به، وصار دمه بدمه».

والبواء : السَّواء، وفلان بواء فلان، أى كفؤه، إن قتل به...

وباءه : قتله.... البواء : التكافؤ.....

وأبأتُ القاتل بالقتيل، واستبأته - أيضا - : إذا قتله به...

وفى الحديث : أنه كان بين حيين من العرب قتال، وكان لأحد الحيَّين طول على الآخر، فقالوا: لا نرضى، حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة الرجل، فأمرهم النبى ﷺ أن يَتَبَاوءُوا...

من «البَوَاء» وهى المساواة...

وفى الحــديث: «الجراحات بَوَاء» يعنى : أنها متساوية فى القصاص، وأنه لا يقتص للمجروح إلا من جارحه الجانى، ولا يؤخذ إلاَّ مثْل جراحته سواء...

وفى حديث على (رضى الله عنه) : «فيكون الثواب جزاء، والعقاب بَوَاء».

ومنه قول المهلهل لابن الحارث بن عبَّاد حين قتله : «بؤْ بشسْعِ نعلَىَ كُلَيب»

معناه : كن كفؤا لشسع نعليه..

وأنشد .....

فقلتُ له : بُؤْ بامْرئٍ لَسْتَ مثْلَه وإنْ كنْتُ قُنْعَانًا لمن يطلبُ الدَّما

يقول :

«أنت ، وإن كنت فى حسبك قُنْعًا لكل من طلبك بثأر فلست مثل أخى...

وجاء الفيروزبادى بعلم غزير، واستخدامات للمادة منوعة...

رأينا أن نكتفى بما قدم...... وفى المادة مزيد لمستزيد.

ومما هو وثيق الصلة بمادة الثأر مادة (فرغ) :

وفى تحقيقى، وشرح كتاب الأشمونى، شرح الألفية، لابن مالك، البيت الآتى :

فـإنْ يـكُ أذْوَادٌ أُصـبْنَ، ونِسْـوةٌ ... فلنْ يَذْهَبُـوا فَـرْغًـا بقـتل حـبَـالِ[1]

مادة (فـــــرغ)

جاء في معجم مقاييس اللغة، مادة (فرغ) :

الفاء، والراء، والغين : أصل صحيح، يدل على خلو، وسعة ذَرْع...

من ذلك : الفراغ : خلاف الشغل.

يقال : فرغ فراغًا، وفروغًا، وفرِغ - أيضًا - ....

وذهب دمه فَرِغاً، أي : باطلا، لم يطلب به...»

ويعنينا من المادة : «فَرِغ» : باطل...

وفي أساس البلاغة، مادة (ف ر غ) :

«... وذهب دمه، ودماؤهم فرغًا، أي : هدراً

وقال :

همُ الحاملُون، المحسنون بقَوْمهم ... إذَا مَا الدِّماءُ الفَرْغ هيبَ احْتِمَالُهَا...»

وفي القاموس المحيط، مادة (فرغ) :

---

(١) القائل :

طليحة بن خُوَيْلد الأسدى، الذى ادعى النُبوَّة.

والبيت من الطويل، ومن شواهد المحتسب ٢ / ١٤٨، والعينى ٣ / ١٥٤ والأشمونى ٢ / ٣٠٠، ...

اللغة :

أذواد : جمع ذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر، فرغا : هدراً لم يطلب به، حبال : ابن الشاعر، أو ابن أخيه، وقد قتله المسلمون في حرب الرِّدة.

والمعنى :

لئن أصبتم بعض الإبل، وسبيتم بعض النساء، فالأمر هين، والذى يريحنى أنكم قد قتلتم حبالا، ولن يضيع دمه هدراً.

«... وذهب دمه فرغًا - ويفتح هدرًا... والطعنة الفرغاء: الواسعة...»

وقد أكد صاحب القاموس ما تقدم :

ومما جاء في لسان العرب، مادة (فرغ) :

«... والطعنة الفرغاء» : ذات الفرغ، وهو السعة...

ويقال: ذهب دمه فِرْغًا، وفرْغًا، أي : باطلا، وهدرًا، لم يطلب به.

وأنشد :

فـإن تكُ أذوادٌ أُخِـذْنَ، ونِسْـوةٌ فَلَنْ يذهَبُـوا فِـرْغًـا بقَـتْلِ حِـبَـالِ..»

وقد جاء ابن منظور بفيض غزير من الاستعمالات للمادة، اغترفنا منه ما قدمناه، وهو تأكيد لما تقدم، كما جاء برواية «تَكُ» بدلا من «يَكُ» وبرواية «أُخِذْنْ» بدلا من «أُصِبْنَ» والمعنى واحد.

ومما له علاقة بالمواد المتقدمة، مادة :

(أســـر)

إذ المعركة تضع أوزاها، وتنكشف الأمور عن قتيل، وأسير، وقَتْلَى، وأسْرَى.

ومما جاءت فيه هذه المادة ما جاء في قصيدة عبد يغوث بن وقَّاص، الحارثي، حيث يقول :

وتَضْحَكَ منَى شَيخةٌ عبشمية كأنْ لم تَرَى قبلِى أسيرًا يمانيَا[1]

---

(١) اللغة :

شيخة : امرأة كبيرة السن، عبشمية : نسبة إلى عبد شمس، من عجزى المركب، أسيراً : مربوطا بالقد في يديه. فالإسار: لليدين، والغُلّ: للرقبة، والقيد : للرجلين..

والمعنى :

ضحكت المرأة العبشمية حينما شاهدت عبد يغوث، يقاد بالإسار.. فالتفت إليها، وقال لها كأنك لم تشاهدى أسيراً، يمانيا قبلي، فالحروب لها قتلى، وأسرى.

وجاء فى المصباح المنير، مادة (أسرته) :

«أسرته أسراً من باب «ضَربَ» فهو أسير، وامرأة أسيرٌ - أيضا - لأن «فَعيلا» بمعنى «مفعُول» ما دام جاريا على الاسم يستوى فيه المذكر، والمؤنث. فإن لم يذكر الموصوف ألحقت العلامة.

وقيل : «قتلت الأسيرة» كما يقال: «رأيت القتيلة»
وجمع الأسير : أسْرَى، وأُسَارى - بالضم - مثل «سَكْرَى، وسُكَارى»
وأَسَرَهَ الله أسْراً خلقه خلقا حسنًا، قال تعالى : «وَشدَدنَا أسرهم» أى : قوَّينا خلقهم...

والإسَار مثل «كِتَاب» : القدّ، ويطلق على الأسير، وحللت إساره، أى : فككته، وخذه بأسره، أى : جميعه».

- وقد كان الفيومى طيب العرض، وأفادنا: معنى المادة، وبعض استخداماتها...
- وأعطانا جمع «الأسير».
- وبين لنا : أن القد، الذى يربط به الأسير يسمى الإسار.

وفى المختار، مادة (أَسَرَ) :
«أَسَرَ قَتَبَهُ، من باب «ضرب» : شدَّه بالإسار، بوزن الإزار، وهو : القدّ، ومنه سمى الأسير، وكانوا يشدونه بالقدّ، فسمى كل أخيذ أسيراً، وإن لم يشد به..
وهذا لك بأسره، أى: بقدِّه، أى جميعه، كما يقال: برمته...
والأُسْر : بالضم : احتباس البول، كالحُصْر فى الغائط..
وأسرة الرجل : رهطه، لأنه تقوى بهم»

وقد أكد الرازى ما تقدم، وزاد عليه..

وفى معجم مقاييس اللغة. مادة (أسر) :

الهمزة، والسين ، والراء : أصل واحد، وقياس مطّرد. وهو الحبس، وهو الإمساك.

من ذلك : الأسير، وكانوا يشدونه بالقد، وهو : الإسار، فسمى كل أخيذ، وإن لم يؤسر أسيراً.

قال الأعشى :

وقيَّدنِى الشعرُ فى بيْتِهِ ... كَمَا قيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمَارَا[1]

أى : أنا فى بيته، يريد بذلك : بلوغه النهاية فيه.

والعرب تقول : أَسَرَ قتَبَه، أى : شده. وقال تعالى : «وشَدَدْنَا أسْرَهُم»

يقال : أراد : الخلق، ويقال : أراد مجرى ما يجرى من السبيلين...

وأسرة الرجل: رهطه ، لأنه يقوى بهم...

وقد أكد ابن فارس المعانى المتقدمة.

وقال جار الله فى أساس البلاغة، مادة (أ س ر) :

يقال : «حلّ إسَاره، فأطلقه، وهو : القد، الذى يؤسر به، وليس بعد الإسار إلا القتل، أى : بعد الأسر...

---

(١) البيت للأعشى : ميمون ، وفى ديوانه، وفى اللسان (٥ : ٢٩٢)

اللغة :

الآسرات : النساء، اللاتى يؤكدن الرحائل بالقد، ويوثقنها، الحمار: ها هنا : خشبة فى مقدم الرحل، تقبض عليها المرأة.

والمعنى :

أنه بلغ النهاية فى الشعر... كما أن الآسرات يؤكدن الرحل بالقد كما أنهن يقبضن على الخشبة فى مقدم الرحل: وأراد الاستيثاق...

ونقول : من تزوّج فهو طليق، قد استأثر، ومن طلّق فهو بُغَاث قد استنسر . . .

ومن المجاز :

«شدَّ الله تعالى أَسْرَه» أى : قوّى إحكام خلقه، من قولهم : «ما أحسن ما أسر قتبه» !

وهو : أن يربط طرفى عرقوب القتب برباط، وكذلك : ربط أحناء السرج بالسُّيُور»

وقد أحسن جار الله، وعرض بعض الأساليب للمادة، كما ذكر المعنى المجازى، بعد الحقيقى.

وجاء فى القاموس المحيط ، مادة (الأسْر) :

الأسر : الشد، والعصب، وشدة الخلق، والخلق، وبالضم: احتباس البول . . .

والأسير : الأخيذ، والمقيد، والمسجون، الجمع : أُسَرَاء، وأَسَارى، وأَسْرَى، والملتف من النبات، والأُسرة - بالضم - الدرع الحصينة، ومن الرجل الرهط، الأدنَوْن، وتأسر عليه : اعتلّ، وأبطأ . . .»

وقد أتى الفيروزبادى بعلم كثير، واستخدامات، متعددة . . . .

وفى لسان العرب، مادة (أَسَرَ) :

« . . . . وأسر قتبه : شده . . . .

أسره يأسره أسراً، وإسارة : شد بالإسار . . .

والقد : الذى يؤسر به القتب . . .

قال مجاهد: الأسير : المسجون، والجمع أسراء، وأسارى، وأسارى . .

وجاء القوم بأسرهم : . . . معناه: جاءوا بجمعهم، وخلقهم . . .

وقد أكد ابن منظور المعانى، المتقدمة، كما جاء بفيض من الاستعمالات للمادة.

وإلى هنا نقول :

إن المواد التى سجلنا معانيها من مختلف القواميس، والمعجمات. إنها كلمات كانت فى عصورها مستعملة، شائعة، مفهومة المعنى، قريبة الاستعمال.

وعندما تَقَادَمت العهود، ومرَّ على ميلاد الكلمات ما مرَّ من كرِّ الليالى، والأيام. وتعاقب العصور، والدهور. وأخذت حظها من القانون العام للحياة كلها... وأصابها الهرم، والموت، ودفنت فى بطون المعجمات...

ثم نشرت من مرقدها حين تناولنا الأساليب، التى وردت فيها...

وهدفنا من تبيان معانى هذه الكلمات أننا سنتناولها فى أساليبها فى فصل آت - إن شاء الله تعالى.

وعندئذ تكون معانيها مفهومة، لا تحتاج إلى كشف عنها فى قواميس اللغة، ومعجماتها..

ونسجلها مرة أخرى - فيما يلى :

- مادة «قتل»
- مادة «ثأر»
- مادة «ذحل»
- مادة «وتر»
- مادة «هدر»
- مادة «بطل»
- مادة «بور»
- مادة «بوأ»
- مادة «فرغ»
- مادة «أسر»

الفصل الثاني
في
حياة العرب قبل الإسلام

لعلّنا في هذا الفصل نقرب حياة العرب قبل الإســلام بما لهــا، وما عليهــا، أو نقترب من حياتهم، وكأننا نعيش مَعَهم، ونرى ضربهم في الأرض، وما يمارسونه من مختلف الأنشطة، والأعمال، حتى تكتمل لنا الصورة عنهم، وكأننا ننقلها عن كثب، **فنقول** : والله الرحمَن، المُستَعَان. ونقدم ذلك - بمشيئة الله تعالى، وعونه - في الآتي :

أولاً: موطن العرب (شبه الجزيرة العربية)

وصف الجزيرة العربية، التي يسكنها العرب :

يحيط بشبه الجزيرة من الغرب : بحر القُلْزُم : البحر الأحمر.

ومن الجنوب : بحر الهند، أو بحر العرب، المحيط الهندي.

ومن الشرق : بحر عمان، وفارس، ونهر الفرات..

وحدودها من الشمال : أرض متسعة شاسعة، تشمل الجزيرة، وبلاد الشام، وفلسطين، مما هو خارج عن شبه الجزيرة.

وقد سكن العرب قبل الإسلام، وأقاموا في جزء كبير من سوريا، والجزيرة، وأرض فلسطين.

ثانياً: أقسام شبه الجزيرة العربية:

تنقسم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام: وهي ما يلي :

١ - **تهـامـة** : وهى الجزء الواقع غرب جبل السّراة، الذى يقسم شبه الجزيرة من الجنوب : اليمن، إلى الشمال الشام قسمين :

وصف تهامة :

هى أرض منخفضة، وتسمى الغَوْر، وتمتد على شاطئ البحر الأحمر وقد أخذوا تسميتها من جوّهَا :

فالاشتقاق من «التّهم» : ركود الريح وشدة الحر، أما ليلها فطيّب، مريح، ويضرب به المثل :

وفى حديث «أم زَرْعٍ» : زَوْجى كليلِ تِهَامَة : لا حرُّ، ولا قرّ، ولا مَخَافَة ولا سآمَة»

ويطلق على جبل السّراة : الحجاز، لأنه حجز بين تهامة، الواقعة غربيه، وبين نجد الواقعة شرقيه.

وقالت العرب : «أغار، وأنجد، وأتهم» أى : دخل الغور، و.....»

فالأفعال الثلاثة : «غار، ونجد، وتهم» أفعال بسيطة تؤدى معنى مفردا.

وحينما دخلت الهمزة صارت أفعالا مركبة من معنى الفعل الأصلى، وما جاءت الزيادة من أجله...

وهنا الهمزة : تدل على الدخول فى الشىء : زمانا، أو مكانا وتنقسم تهامة إلى:

أ - تهامة اليمن.

ب - تهامة الحجاز .

٢ - نجـــد :

هي : الواقعة شرقي جبل السَّراة من أدنى حدود اليمن جنوبا إلى السماوة شمالاً، وتنتهي من الشرق إلى العَروُض.

وسبب التسمية بنجد من النجود، لارتفاع أرضها...

وتقع اليمن جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند، وتمتد شرقا إلى حضرموت، والشحر، وعمان.

وتشمل قسما من تهامة، وقسما من نجد.

٣ - الحجـــاز:

سلسلة من الجبال، أطلق عليها جبل السَّراة..

وسميت بالحجاز؛ لأن سلسلة الجبال حاجز بين تهامة، وبين نجد.

٤ - اليمــــن :

وتقع اليمن جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند، وتمتد شرقا إلى حضرموت والشحر، وعمان.

وتشمل قسما من تهامة، وقسما من نجد.

٥ - العَـرُوض :

تشمل اليمامة، والبحرين، وما ولاها، وفيها مرتفعات، ومنخفضات ومسايل أودية.

وسميت عروضا؛ لاعتراضها بين اليمن، ونجد، والعراق.

ثالثاً: وصف أرض شبه الجزيرة العربية

تتصف أرض شبه الجزيرة العربية بما يلي :

- كثرة الجبال، الجرداء، المختلفة اللون.

ومنها الحرار: جمع «حَرَّة» وهى الجبال السوداء اللون.

- يتخلل هذه الجبال بعض الأودية، التى تجرى فيها السيول أحيانًا.

- كما أنها تمتاز بالصحارى، الواسعة الكبيرة.

- أشهر الأودية: وادى الدهناء بنجد.

وهو فى مواطن قبيلة تميم بالقرب من البصرة..

- تكثر فى بلاد اليمن الأودية، والرياض، من حيث تقل فى الحجاز.

فيعتمد أهله على العيُون، أو ماء المطر، الذى ينبت العشب فى بعض الأراضى..

من أجل ذلك: تعذر على العرب المكث فى مكان واحد...

أكثر العرب من الرحلة، والانتجاع لمواطن الماء، ومنابت العشب.

رابعاً: جو شبه الجزيرة العربية

يتسم جو شبه الجزيرة العربية بما يلى:

- شدة الحرارة فى تهامة نهاراً، مع رطوبة شواطئها، الواقعة على البحر الأحمر.
- شدة الحرارة - أيضاً - فى الجبال صيفا.
- شدة البرودة شتاء.
- اعتدال الهواء فى نجد، وحول الأودية: لارتفاعها، ووجود بعض الأودية، والأعشاب، والحشائش، والمزروعات بها.
- اليمن: معتدلة شتاء، شديدة الحرارة صيفا، مطرها غزير فى فصل الربيع.
- أطيب الرياح بشبه الجزيرة: ريح الصَّبَا.
- وأشد الرياح بشبه الجزيرة: ريح السَّمُوم.

خامساً: مدن شبه الجزيرة العربية

١ - أهم مدن الحجاز:

مكة: وتقيم بها قريش، وكِنَانة، وبجنوبها هُذَيْل.

والمدينة: ويقيم بها الأوس، والخزرج، وهم الأنصار، وبنو قريظة، والنضير، وقينقاع من اليهود، وشمالها: فَدَك، وخَيْبَر، وبمحاذاة فدك وادى القرى.

والطائف: وهى موطن ثقيف، وهى فى الجنوب الشرقى لمكة، ويقع شرقها سوق عُكَاظ. وهى أرض خصبة، جيدة الهواء، والجو، وتجد بها الفاكهة.

وجدة: وتقع على البحر الأحمر فى امتداد مكة، كما تقع مدينة ينبع عليه، فى امتداد المدينة.

٢ - أهم مدن اليمن:

نجران: وتقع فى الشمال، وقد اعتنق سكانها النَّصرانية، وأراد ذو نواس إرغامهم على اليهودية، فأبوا، فأحرقهم فى الأخدود، كما جاء فى القرآن الكريم: قال الله تعالى ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ الآيات ٤ إلى ٧ من سورة البروج.

ونجران: بنى أبرهة الأشرم القُلَّيْس؛ ليصرف العرب عن الكعبة، ولكن الله تعالى خيب آماله.

ومأرب أو سبأ: وكان فى الجنوب العربى منها السَّد، الذى خربه سيل العرم، عام ١٢٠ قبل الميلاد.

وصنعاء: وهى حاضرتها حتى اليوم، وبها قصر غمدان، وفى جنوبها غرائب

مدينة ظفار، حاضرة الحميريين....

وجاء فى أمثالهم: «منْ دَخَل ظَفَار حمّر» أى : تكلم باللغة الحميرية .

أهم قبائل اليمن :

همدان : وصنماها فى الجاهلية : «يغُوث، ويَعُوق» وكذلك : مذجح، ومراد.

والحضارمة : وهم أصحاب نشاط فى التجارة والرحلة.

٣ - أهم مدن نجد :

مدينة الرياض.

ومن جبالها، «أجأ، وسلمى» جبلا طيئ، وبها كثير من القبائل العربية المشهورة كطيئ، وتميم، وبكر، وتغلب، وقَيْس عَيلان، وغطَفَان.

وصف نجد :

نجـــد : إقليم صحراوى تكثر به الواحات، والأودية، وجو نجد معتدل، طيب الهواء.

٤ - العَرُوض :

تنتظم العروض : اليمامة، والبحرين، وعُمان.

أما عمان : فقطر جبلى على شاطئ البحر فى الجنوب الشرقى للجزيرة ونشاط أهله : الملاحة.

ومن أشهر قبائلها قبيلة نَبْهَان من طيّء.

وأما اليمامة : ففى الداخل، وتنسب إليها زرقاء اليمامة، وتقع فى الجنوب الشرقى لنجد، وقد كانت مسكنا لطَسْم، وجَديس.

والجزء الممتد فى شرق الجزيرة إلى حدود العراق على بحر العرب يسمى البحرين.

ومن أشهر مدنه : هجر، وتشتهر بالتمر حتى قيل فى الأمثال : «كنَاقل التمر إلى هَجَر». وقد مر بها القرامطة، وبنوا مكانها الأحْسَاء. ومن المدن قطر. وأهلها غواصون، وقد كان يسكن البحرين قبائل من عبدالقيس، وتميم.

خامسًا : أصلُ الأمةِ العَرَبِيَّة :

فى هذا الموضوع كثرت الأقوال، واشتجر الخلاف بين الباحثين، ولا نبرئ بعضهم من اتباع الهوى فى هذا الموضوع..

والذى تطمئن إليه النفس، ويسكن إليه القلب من بين هذه الآراء ما نسجله، ولعله أقرب إلى الصواب، وأدْنَى من الحقيقة.

فنقول :

أرض الله القديمة العِرَاق، التى هبط فيها أبونا آدم (عليه الصلاة، والسلام).

فهى أرض طيبة الهواء، كثيرة الماء، خصبة التربة، كثيرة الخيرات. لا تكلف من يسكنها عَنَاء فى طلب المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن...

ومما يؤكد ما تقدمَ ما سجلناه من أول واقعة قتل، وقتيل كانت بالبصرة - العراق - فى أحد القولين.

ومن الأب الأول : آدم انتشرت ذريته فى تلك البقاع..

- **بالنسبة للأب الثانى :** نوح (عليه الصلاة، والسلام) فقد رست سفينته بالجُودِىّ قرب الموْصل، ونزل الناس من السفينة، وأقاموا بقرية الثمانين، وهى أول قرية عمرت بعد الطوفان..

وفكك الناس السفينة، واتخذوا منها سقوفًا لبيوتهم... وكانوا حوالى ثمانين.

- لم ينجب منهم أحد إلا أبناء سيّدنا نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ الآية ٧٧ من سورة الصافات.

وانتشرت الذرية من هذا الموقع إلى أرض الله (عز وجل) القديمة.

١ - أبناء سام:

عمروا شبه الجزيرة العربية وأخذ امتدادهم جنوبا، وغربا، وشرقا.. وكونوا أممًا:

من هذه الأمم: البابليّون، والآشوريون، والسبئيون، والأراميون، والأنباط، والأحْبَاش، والعبرانيون، والفينيقيون[1]

ومجموعة الأمم، التى كانت تقطن بلاد آسيا الدنيا، هى التى كانت تكون هذه الوحدة الدموية، واللغوية، المستقلة.

وهذه الأمم فى تكونها اتبعت سبيل النشوء، والارتقاء...

٢ - أبناء حام:

وقد أخذ مدّهم صوب أفريقيا وكونوا سكان قارة أفريقيا.

٣ - أبناء يافث:

واتجهوا نحو آسيا: الشرق الأقصى، وكان مدهم شمالا - أيضاً - وغربا..

وكونوا على مر الأيام أُمَمًا، ودُوَلاً..

---

(١) انظر سفر التكوين: الإصحاح العاشر.
وانظر البداية، والنهاية لابن كثير.
وانظر تاريخ ابن خلدون.

والواقع :

أن أكثر أبناء سيدنا نوح إنجابا هم أولاد يافث . . .

ولكل من هذه الأمم ، والشعوب لغات ، نشأت من طبيعة الوجود فى كل إقليم ، وما به من مرئيات ، ومحسات . . وغير ذلك . . . وسلكت طريق النشوء ، والارتقاء – أيضا – .

سنة الله تعالى ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . .

والعرض المتقدم :

ما اطمأنت إليه النفس من كثرة الأقوال ، وتشعب الآراء ، مع تنحية الهوى جانبا ، وتحرى الصواب – ما أمكن ذلك .

وقد تمت هجرات كثيرة ، اقتضتها ظروف العيش ، ومتطلبات الحياة ، وتلك طبيعة المجتمعات البشرية . . .

ومهما يكن من أمر :

فأقدم الهجرات السامية كانت هجرة سكان الجزيرة ، الذين اتجهوا نحو بابل ، وأسَّسُوا لهم ملكا كبيراً فى وادى الفرات .

سادساً : طبقات العَرَب

١ – العرب طبقتان – بإجماع المؤرخين .

(أ) الطبقة الأولى :

ويطلق عليهم العرب البائدة ، وهم الذين بادُوا ، ودَرَسَت آثارهم . وأخبارهم ، إلا القليل منها ، الذى ورد إلينا من الكتب السماوية .

ويطلق على العرب البائدة : العرب الْعَارِبة .

والمشهور من هذه القبائل :

- قبيلة عَاد، وكانت تسكن الأحقاف : بين اليمن، وعمان من البحرين، إلى حضرموت، والشحر.

- وقبيلة ثمود، وكانت منازلهم بالحِجر، ووادى القرى بين الحجاز، والشام، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال.

والقبيلتان : قد حفظ ذكرهما القرآن الكريم، وسجل أخبارهما، وذكر عصيانهما، وعدم الإيمان، كما ذكر طريقة إهلاك كل من القبيلتين... وغير القبيلتين: كالعمالقة، وطسم بالأحقاف، وجديس...

ب - الطبقة الثانية :

وهى التى بقيت آثارها، وأخبارها.

وتتكون من أولاد قحطان، وأبوهم يعرب بن قحطان.

والتوراة تطلق عليه اسم «يارح بن يقطان».

ويعرب بن قحطان أول من نطق بالعربية من هذا الجيل.

ويدعى العرب : أنه أصل لسانهم.

ويفتخر بذلك حَسَّان (رضى الله عنه) :

تعلمتُمُ من منطقِ الشيخِ يعربِ ... أبينَا، فصرتُم معربين، ذَوى نَفْرِ
وكنتُم قديمًا مالكم غَيْرُ عُجْمَةٍ ... كَلاَمٌ، وكنتم كالبهائِمِ فى القفْرِ

وقد سكنوا اليمن، بعد المعينين، مهاجرين إليها من بابل، أو الحبشة.

تقسيم الطبقة الثانية :

تنقسم الطبقة الثانية إلى قسمين :

أ - العرب المتعربة :

وقد ورثوا صفات العرب القديمة

وهم : السبئيّون، والحميريُّون.

ب - العَرب المستعْربَة

وهم : عرب الشمال، أو الإسماعيلية، أو العدنانية، الذين أخذوا اللغة من الجنوب، ونقلوا عاداتهم. وتقاليدهم، وأخلاقهم.

وذلك : بعد مصاهرة سيدنا إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) وتزوجه من قبيلة جُرْهُم اليمنية، التى نزحت من جنوب شبه الجزيرة إلى شمالها، وهم غير جرهم الأولى، الذين بادوا، ودرست آثارهم.

وأبناء عدنان :

وهم عرب الشمال، وهم أصل الحجاز، وأصحاب اللغة الفصحى، ومظهر المدنية العربية إلى يومنا هذا.

أهل الجنوب من ولد قحطان :

أما هؤلاء، فقد بادت دولهم، ودرست آثارهم، وطويت صحائفهم قبل البعثة بعدة قرون...

أما من بقى منهم فقد ذاب فى عرب الشمال، واندمج بهم.

نسب العدنانيين :

ينتهى نسب العدنانيين إلى سيدنا إسماعيل (عليه الصلاة والسلام).

وقد هاجر بأمر الله تعالى : أبو الأنبياء : سيدنا إبراهيم: خليل الله، بالسيدة هاجر، الأميرة المصرية، التى أهديت للسيدة سارة، وأهدتها لسيدنا إبراهيم (عليه

الصلاة والسلام) وقد رزق منها سيدنا إسماعيل... - أسكنهما - بتوجيه الله تعالى - بواد غير ذى زرع، ودعا لذريته بأن تهوى إليهم القلوب، حاملة طيب الأرزاق. وقد حقق الله تعالى دعاءه..

- تزوج سيدنا إسماعيل ممَّن بقى من قبيلة جرهم اليمنية الأصل.
- كثر أولاد سيدنا إسماعيل، واستقلوا بهذه البلاد..
- طرد أبناء سيدنا إسماعيل الجرهميين.

- أصبح العدنانيون عنصرا جديدا، يخالف فى الحياة، ووسائل العيش، والتقاليد، واللغة القحطانيين.

يبدأ تاريخ العدنانيين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد.
- سلسلة الأنساب ما بين عدنان، وإسماعيل موضع خلاف بين علماء الأنساب.
أما سلسلة الأنساب ما بين ذرية عدنان إلى سيدنا إسماعيل فمعروفة.

سابعاً: أشهر قبائل العرب

١ - قبائل قحطان:

قحطان:

- هو الجد الأول للقبائل القحطانية، وأبوهم: يعرب بن قحطان.
- مهد قبائل قحطان: اليمن.
- وأشهر قبائل قحطان:

أ - كهلان:

وكان ملكهم فى اليمن، وشاركوا الحميريين فى ملك هذه البلاد، ثم انفرد بها الحميريون، وأسَّسوا ملكهم، ثم تضاءل ملك الحميريين، وبقيت الرياسة على العرب بالبادية للكهلانيين.

ومن بطون كهلان :

الأزد : ومن الأزد : الأوس ، والخزرج، سكان المدينة.

وغـسـان : ملوك الشام، وطيئ، وقد سكنوا اليمن، ثم هاجروا منها بعد سيل العرم، وأقاموا بنجد بجبلى أجَا ، وسَلْمَى.

وكندة: باليمن، ونجد، وبجيلة، ولخم، وعاملة: شمال الشام. ومزحج باليمن، ومراد، وهمدان بها - أيضا - وجذام على خليج العقبة.

بطون حِمْيَر :

بلاد الحميريين فى مشارف اليمن، فظفار، وماحولها. ومن قبائلهم : قَضَاعَة.

وملك قضاعة بلاد الشحر.

وانقسمت قضاعة إلى بطون من أشهرها :

«بلى»: شمال الحجاز. وجُهَيْنَة كذلك، وعُذْرَة: جنوب الحجاز، وتَنُوخ: قرب المعرة.

وحياة اليمنيين فى اليمن كانت هانئة، كثيرة الخيرات - كما ذكر القرآن الكريم...

وقد دَعَوْا على أنفسهم: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ الآية ١٩ من سورة سبأ.

وكفروا بأنعم الله عز وجل، فسلط الله عليهم سيل الْعَرِم. فتفرقوا فى البلاد، وضرب بهم المثل «تَفَرَّقوا أيْدى سَبَأ»

وقد بنوا هذا السد العظيم، وأفادوا منه فى تجميع مياه السيول، والأمطار، وخزنها، وتصريفها على حسب الحاجة إليها.

وقد تصدع السّد، وفاضت المياه على ما أمامه من القرى، والمزارع فأتلفتها.

- تم ذلك فى عام ١٢٠ قبل الميلاد.

- بعد خراب البلاد هاجر أهل الجنوب إلى الشمال.

٢ - قبائل عدنان:

يطلق عليهم العدنانيون، أو الإسماعيليون، أو عرب أهل الشمال. وهم الذين ينتهى نسبهم إلى سيدنا إسماعيل (عليه الصلاة والسلام).

- فقد صاهر سيدنا إسماعيل قبيلة جُرْهُم، وتناسل أبناؤه، وكان منهم عدنان.

ومن عدنان تبدأ سلسلة العرب العدنانيين.

تقسيم القبائل العدْنانية:

أ - أبناء نزار بن معد بن عدنان.

ومن بطونه:

إيَاد، ورَبيعَة، ومُضَر، وأنْمَار.

وأشهرُهم، وأكثرهم رَبيعة، ومُضَر.

ب - قبائل ربيعة:

قبائل ربيعة كثيرة، لها شهرة، وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث كانوا يناوئون مضر فى الشرف، والسيادة.

ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام.

ومن ربيعة: عبد القيس، ومنها بكر، وتغلب، ابنا وائل، ومن بكر حنيفة، وعجل، ابنا لجيم.

جـ - مضر:

وقد انقسمت إلى جزئين كبيرين:

أ - قيْس عيْلان بن مضر.

ولها بطون كثيرة أشهرها :

سليم، وهوازن، وغَطفان، وعبس، وذبيان، وأشجع، وعدوان، وغنى.

ومن قيس : عامر بن صَعْصَعة، ومنه تفرعت بطون كثيرة.

ب - إلياس بن مُضَر:

وقد تشعبت منه بطون كثيرة.

منها تميم بن مرّ، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة.

ومن كنانة قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وقبائل قريش

أشهر القبائل :

جُمَح، وسَهْم، وعَدىّ، ومخزُوم، وتَيْم، وزُهْرَة بن كلاب، وعبْد الدار بن قصىّ، وأسَد بن عبد العُزّى، بن قُصَى، وعبد مناف بن قصى.

فصائل عبد مناف:

عبد شمس، ونوفل، وعبد المطلب، وهاشم.

وبيت هاشم: هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم... (ﷺ)

ومنه العباسيون: أولاد العباس بن عبد المطلب

وأما الأمويون:

فهم من بنى عبد شمس...

ومهد شعب عدنان مكة، وما جاورها من أرض الحجاز، وتهامة ثم هاجر أبناء العدنانيين إلى بلاد كثيرة. حينما نموا، وكثر عددهم.

هاجرت عبد القيس من ربيعة، وبطون من بكر بن وائل إلى البحرين وكان معهم بطون من تميم، ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجىء الإسلام.

وهو : المنذر بن ساوى التميمى.

وكان يطلق على مملكتهم مملكة : المناذرة.

كما هاجرت بنو حنيفة من بكر إلى اليمامة، ونزلوا بحجر حاضرتها. وكان أميرهم حين مجىء الإسلام هو «هوذة» الحنفى.

وأقامت سائر قبائل بكر بالجزيرة الفراتية، وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالجزيرة الفراتية.

وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سُلَيم بالقرب من المدينة

وسكنت ثقيف بالطائف.

وسكنت هوازن فى شرقى مكة.

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء، وغربى الكوفة .

وأقام بمكة وضواحيها بطون من قريش.

ثامنًا: حيَــاة العَــرب

ونتناولها - بمشيئة الله تعالى، وعونه - فى المباحث الآتية :

المبحث الأول: سكنى العرب:

ونقول : العرب : بدو، وحضر.

فالبدو: هم الذين يقيمون فى البوادى، وهم قوم رُحَّل، يرتادون منابت الكلأ، ومواقع الغيث، لا يستقر بهم مقام، يرتحلون، ومعهم أغنامهم، وأنعامهم إلى حيث تطيب لهم الإقامة حينًا، مُرتبطةً بوفرة العشب، والماء.

وغـذاؤهم: لحوم أنعامهم، وألبانها. ولباسهم من أصوافها، وأوبارها، وتعتمد حياتهم على الكفاف، والقناعة: اللبن، والتمر، واللحم، هى مأكولاتهم.

ومن أجل هذا الفقر، والشظف كثرت بينهم الغارات، والحروب، لا يبغون الحرفة، ويعيرون من له حرفة.

وأهم مكارمهم التى يفتخرون بها :

البطولة: والقوّة، والقدرة على النّزال، والنضال، والتدريب على ذلك..

وأهل المدن: معيشة أهل المدن مستقرة.

يعتمدون على الزراعة، والصناعة فى اليمن، وعلى التجارة فى الحجاز.

تأويهم بيوت، ومساكن، مبنية من الحجر.

وهم أقل شجاعة من أهل البدو، وأشد حبًّا للمال، يقبلون على الترف، والنعيم.

وكان اليمنيون أكثر حضارة..

وكانت قصورهم مليئة بالنسيج الفاخر، وأطباق الذهب، والفضة وأغنياؤهم يزينون قصورهم بأنواع من الزينة.

وقد وصلوا إلى هذا الثراء عن طريقى : الزراعة، والصناعة....

أمـا قـريش : فقد كانت أكثر تحضراً فى مكة، وقد أسعفتهم التجارة بالمال الوفير، ومدهم الحُجَّاج بالخير العميم.

وزاد غنى قريش بعد حادثة الفيل

فقد كانت تجاراتهم فى رحلتى الشتاء، والصيف آمنة من السطو، وقطاع الطريق خوفا من طير أبابيل.

كما كانوا يقرضون الناس بالتعامل الربوى، وكان الناس يؤدون إليهم خشية طير أبابيل.

كما كانوا ينعمون بعائد ثمرات الطائف من الحدائق والبساتين...

والقصد :

فإنهم كانوا فى نعمة، ووفرة مال، وزاد ذلك بعد عام الفيل.

نظام القبيلة عند العرب:

طبيعة الاجتماع البشرى :

تعدّد المشارب، والاتجاهات، والمطامع، وينتشر التظالم، والويل فيه للضعفاء من الأقوياء.

وكان نتيجة لذلك : وحتى تستقر الحياة، ولا تكون غابة بشرية كان لابد من نظام يجمع أفراد القبيلة، ويحدّ من تسلط الأقوياء على الضعفاء، ويقضى بالعدل فيما ينشأ من خلاف، ويرد الحقوق إلى أصحابها..

وكان لابد من نظام - أيضا - يجمع أفراد القبيلة على رأى ويرسم لها اتجاهاتها..

وكان ذلك كله :

يتمثل فى القبيلة، وهو نظام يكاد يكون طبيعيا للمجتمعات البشرية، قبل أن تنعم الإنسانية بتعاليم السماء على أيدى رسل كرام اصطفاهم الله (عز وجل) لهداية البشر، وإلى الهداية التى هى أقْوَم :

ولنلق الأضواء على النظام القبلى فيما يلى :

- القبيلة : هى الوحدة، التى بنيت عليها حياة القبيلة.

- وأفراد القبيلة : ينتسبون إلى أب واحد...

- ولا يدخل فى القبيلة داخل إلا عن أحد طريقين :

أولهما : الحِلْف، وكان مشهورا بينهم: كأن تحالف قبيلة قبيلة أخرى،...

وثانيهما : الولاء

ولا يخرج عن القبيلة إلا مخلوع.

والمخلوع : من يرتكب أعمالا، تجر على قبيلته أوخم العَوَاقب، ولا يجدى معه نصح فتخلعه القبيلة، وتعلن براءتها عنه، فجنايته على نفسه، ولا نصرة له من قبيلته، إن اعتدى عليه.

- والقبيلة - فى الأعم، الأغلب - تسمى باسم الأب الأكبر.

ومن ذلك : نسمع «مضَرىٌّ، وربَعىٌّ، وأَوْسى، وخَزْرَجى...»

وغير ذلك فى النسبة إلى «مضر، وربيعة، وأوس، والخزرج..»

وقد تنسب القبيلة إلى الأم، إذا كان لها شهرة.

ومن ذلك : نسمع «خِنْدفى، وبَجَلى..» فى النسبة إلى «خِندف، وبجيلة»

- والكثير المشهور : النسبة إلى الأب الأكبر.

- وقد تنسب القبيلة، وتعرف بحادث مشهور «كَغَسَّان» : نسبة للماء الذى نزلت به هذه القبيلة.

- **ومما يؤخذ على النظام القبلى**: أن أفراد القبيلة يسود بينهم التعاون، والتناصر، وكل فرد يتعصب لقبيلته سواء : أصابت ، أم أخطأت، دون نظر إلى شىء آخر.

ويمثل ذلك البيت الآتى أتم تمثيل، وهو :

ومـا أنـا إلاّ من غــزيَّةَ : إنْ غَــوَتْ غَــوَيْتُ، وإنْ ترشُــد غـزية أرْشـدِ

كما يمثل البيت الآتى نصرة الأحلاف، والموالى :

ونَنْصُـــر مـولاَنَـا، ونعــــلمُ أنَّ كـمـا النَّاسِ: مَجـرُومٌ عَلَيْـه، وجَـارِمُ

- ودور القبيلة بالنسبة لأفرادها.

- حماية من ينتسب إليها من كل أذى خارجى.

- المطالبة بدمه، إن جنى عليه أحد.

والفرد فى قبيلته يشعر : بالدفء، والأمان، والنصرة، ...

وهذا ما يبتغيه الفرد.

دور رئيس القبيلة :

رئيس القبيلة : مرجع القبيلة فى الشدائد، والخطوب، وفصل الخصومات، والصلح بين الأفراد إن شجر خلاف،...

وللقبيلة شاعر أو أكثر من شاعر، يتغنى بمفاخر القبيلة ويذود عنها من ألسنة من يتناولونها بسوء.

ولم تسعد القبيلة السعادة الكاملة إلا بشاعر ينبغ، أو بفرس يدرّب

فالأول : يشيد بمفاخر القبيلة ويرد عنها أذى أعدائها..

والفرس : للكرّ، والفر، والسطو، والقتال..

ويختص رئيس القبيلة بما يلى :

- يختار رئيس القبيلة - فى الأعم الأغلب - من القبيلة.

- ويأتى الاختيار على أساس أن من يختارونه يتمتع بصفات أهمها : الكرم، والحلم، والأناة، وكبر العقل، والشجاعة، والعدل فى الخصومات، . . .

وذلك : لخدمة القبيلة فى داخلها، وحمايتها من خارجها . .
وقد تواضَعُوا على المزايا الآتية لرئيس القبيلة .

ويتمثل ذلك فى قول شاعر، يخاطب بُسطَام بن قيس، سيِّد شيبان :

لكَ المِرْباعُ فينَا، والصَّفَايَا ... وحكمُك، والنشيطةُ، والفُضُولُ

وكانت أرزاق البدو تعتمد - فى الأغلب - على السطو، وإحراز الغنائم، ويتمثل ذلك فى قول الشاعر :

يُغَار علينَا واترِينَ، فيشتَفَى ... بنا . إنْ أصبْنا، أو نغير على وِتْرِ
قسمنَا بذاك الدهرَ شطرين بيننا ... فما ينقَضِى شطر إلا، ونحن على شَطْرِ

والغنائم قبل أن تقسم كان يختص رئيس القبيلة منها ما يلى :

أ - **المرباع** : وهو : ربع الغنيمة .
ب - **الصفايا** : ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة، ويختاره .
جـ - **حكمه** : ما يحكم به : فحكمه مسمطا، كما يقال أى له الحق المطلق فى الحكم .
د - **النشيطة** : ما تغنمه الجماعة المغيرة فى طريقها إلى الغارة، والسطو .
هـ - **الفضول** : ما يبقى من الغنيمة بعد القسمة . ولا يقبل القسمة على الأفراد .

هذه المخصصات لرئيس القبيلة .

كما أن خيمته تمتاز بأنها رفيعة العماد، يهتدى إليها من يؤم رئيس القبيلة فى أى أمر . .

وبذلك : كان يعيش رؤساء القبائل فى نعمة سابغة، وثراء واسع جزاء ما يؤدون لقبائلهم من أمور.

- اما علاقة رؤساء القبائل بأفراد كل قبيلة.
- الحدَب من رئيس القبيلة، والرعاية لأفرادها.
- والسمع والطاعة من أفراد القبيلة لرئيسها.

- اما علاقة أفراد القبيلة : بعضهم ببعض فهى علاقة تآخ، وتناصر، وتعاون...
- يتمثل ذلك فى المثل المشهور، الذى ورد إلينا منهم :
«أنصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا»
والذى عدله الرسول العظيم بهدى النبوة : نصره ظالما أن يؤخذ على يده. وأن يردّ إلى صواب الأمر.

كما يتمثل ذلك فى قول الشاعر :
لا يَسْألُون أخَاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال بُرْهَانَا

أوقات الفراغ عند العرب

تكاد تكون معظم أوقات العرب فراغا..

وذلك لما يلى :
ليس هناك تعليم منظم يمتص وقت الناشئ، والناشئة، ويكون طبقة وظيفية، تتعلق بهذا الشأن.

الزراعة كانت لا تمارس إلا فى المدن، ولدى سكان الحضر، وهى ليست بالكثرة، التى تشغل أوقات فراغ طائفة من الناس..

الحرفة : موضع عار عندهم، وكانوا ينفرون منها...

وإنما عماد حياتهم - وبخاصة سكان البادية - على :

أ - الصيد لحيوانات البرارى، والانتفاع بما يصطادون...

ب - الرعى : حيث ينزل المطر، وتنبت الأرض العشب، وتحتجز قدراً من الماء..

وهـم فـى ذلـك : يرسلون رائدهم يرتاد لهم الأماكن التى بها العشب، والماء. فيذهبون إليها، ومعهم أنعامهم، ويضربون خيامهم، حتى ينتهى العشب. ويغيض الماء، فيرتادون ناحية أخرى... وهكذا...

وهم بذلك :

أهل حِلٍّ، وترحال، لا يطيب لهم مقام فى موضع إلا بمقدار ما فيه من عشب، وماء...

غذاؤهم :

- من الصيد.
- ما تجود به الأنعام من ألبان، ولحوم...
- وما تجود به الأرض - أيضا - من تمر...

لباسهم :

يأخذونه من أصواف، وأوبار، وشعور أنعامهم، ومثل ذلك : أغطيتهم، وخيامهم...

من أجل ذلك كله :

كانوا يستثمرون أوقات فراغهم، الممتدة...

- فى الرعى للأنعام، والرعى لا يأخذ من الوقت إلا أقله...

- وفى التدريب على أعمال القوة، والفتوة من أعمال الضرب، والرمى، وجميع ما يقوى أجسامهم، لإعدادها :
- إما لغارة على غير القبيلة، أو الحى، للاستيلاء على ما تحرزه يده من أنعام، ومال، وذَرَارِى، ونِسَاء..
- وإما لصد غارة من مغير مطالب بوتره، وبدمه، وبما سلب منه..
- وأهم ما يتدربون عليه ركوب الخيل، فهى معقود فى نواصيها الخير، وهى عدة الإغارة، ورد المغيرين.
- وإنك قد تتصور البادىّ قليل النوْم، مرهف الحس، يترقب إغارة إليه ممن يصبِّحهم، أو يمسِّيهم...

وعليك : أن تتصور أن البادى سعيد بأسرته، غنى بما يملك من أنعام...

وفى لحظة يبيتهم مبيت، ويغير عليهم مغير، فيسلبهم كل شىء، ويجردهم من كل ما حولهم...

ومن ذلك :

نراهم يحبون أولادهم، ويحنون عليهم، ويعدونهم للغارة لإحراز الغنيمة، أو لصد مغير..

ويمثل ذلك قول الشاعر :

وإنَّمَا أولاَدُنَا بينَنَا أكبادُنَا تَمْشِى عَلَى الأرْضِ

وفى أوقات فراغهم الممتدة كانوا يلهون بما يلى :

- شُرْب الخمر

ومن عقلاء العرب من حرمها على نفسه، استجابة لداعى الفطرة السليمة، وقد

كان يقول بعض العقلاء منهم: إن الخمر تذهب بالعقل، فإذا عاد بعد ذلك، لا يعود كاملا...

- وغناء القيان: يستمعون، ويستمتعون بذلك.
- لعب القمار : الميسر، ولهم فى ذلك إلف، وتعلق.
- صيد الوحوش بالخيل المدربة، وبالكلاب المعلمة...
- والصيد - بالفهود - أيضا.

وقد قيل : إن أول من اصطاد بالفهد هو : كُلَيْب بن وائل

وترى أحاديث الصيد لأوابد الوحوش، ولبقر الوحش، وحماره، ... مبثوثة فى شعرهم، الوارد إلينا عنهم...

بعد عرض ما تقدم ننتقل إلى حياة العرب الدينيَّة

ونوجزها - بمشيئة الله تعالى - فيما يلى :

١ - عبدوا الأوثان، وصوروها فى شتى الأشكال، صنعوها بأيديهم من ذهب، أو حجر، أو خشب، ووقفوا أمامها خاشعين، وقدموا لها القرابين وطلبوا منها النصرة على العدو، وشفاء المرضى...

والعجب كل العجب من قبيلة حنيفة، فقد اتخذت صنمًا لها من «حِيس» عبدته مدة طويلة، ثم أصابتها مجاعة، فأكلته..

وقد ذمهم أحد الشعراء، ونال منهم حينما قال :

أكــلــت حـنـيــفــة ربَّـهَــا   زَمَن التــقــحــم، والمجَــاعَــه
لم يحـــذرُوا من ربِّهـــم   سُــوءَ العَــوَاقِب، والتــبــاعَــهْ

والوثنيون هم الكثرة الغالبة من العرب.

وقد سرت لهم النزعة من المجوس الفرس : عباد الشمس، والنار...

٢ - ومن العرب الدهريون[1]

والدهريون :

ينكرون الحياة الأخرى، والبعث، والإعادة، وقالوا : بالطبع المحيى، والدهر المغنى.

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ الآية ٢٤ من سورة الجاثية.

وفى هذا الخضم المظلم، والضلالة، البالغة ظهر :

الحُنَفَاء :

وهم المائلون عن الباطل إلى الحق من «الْحَنَف» وهو : الميل.

وأطلق عليهم المتحنثون، أى : الذين تباعدوا عن الحنث، وتركوا القبائح، واعتدلوا فى عقائدهم.

ومن هؤلاء :

أمية بن أبى الصلت، الثقفىّ، الذى وصفه الرسول الأمين من سَمَاع شعره «آمن لسانه، وكفَر قلبُه»

ومنهم : قسّ بن ساعدة الإيادى، خطيب العرب.

---

(١) من أراد المزيد فليرجع إلى كتابنا.
«المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية، وعزة الإسلام».

ومنهم: ورقة بن نوفل، الذى بشر الرسول الأمين بأنه نبى الله المنتظر... ومنهم زيد بن عمرو..

وهو القائل:

أربًّا واحـــدًا، أمْ ألــــف رَبٍّ أدينُ، إذا تقسَّمت الأمُـــورُ؟

تركتَ، اللاَّتَ، والعُزَّى جميعًـــا كذلكَ يفعلُ الرجلُ الخبيـــرُ

ولعل السّر فيما تقدم:

أن المرء عاش فى عالم، محكم الخلق، مدبّر تَدْبيراً عظيما، ويسير سيراً منتظما...

ومن ذلك: لن يأتى هذا من فراغ، وإنما جاء من عند ربٍّ عظيم، خالق، رازق، مصور، واحد، أحد...

ولما لم يرق عقله المخلوق من التراب إلى معرفة رب الأرباب، تقرب إليه بما تقرب، وهو يقول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ الآية ٣ من سورة الزمر.

وقد سجل القرآن الكريم كثيرا من معبوداتهم الباطلة.

فمن ذلك:

«ودّ، وسُواع، ويغُوث، ويعُوق، ونسر، واللاَّت، والعُزَّى، ومنَاة.

وبها سمت العرب أولادها: بأنهم عبد يغوث...

وقد ذم القرآن الكريم ذلك، قال الله تعالى: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآية ١٩٠ من سورة الأعراف.

وكان أهل مكة يعظمون اللات، والعزى، ومناة..

فودّ: لكلب، وسُواع: لهذيل، ويغوث: لمذجح، ويعوق: لهمدان، ونسر: لحمير.

و«مناة» أقدم، وكان منصوبا على ساحل البحر الأحمر بالقديد، بين مكة، والمدينة... وهدم عام الفتح.

واللات بالطائف، وهى صخرة بنت عليها ثقيف بناء... وهدمها المغيرة بن شعبة.

والعُزَّى: لقريش، بنخلة الشامية، أو بالقرب من مكة، وهى شجرة، وقطعها خالد بن الوليد... عام الفتح، وهو يقول:

يا عزّ: كُفْرانَك، لاَ سُبْحانَك إنّى رأيتُ الله قد أهانَك

ومن الأصنام:

«هُبَل» وكان على صورة إنسان من عقيق أحمر...

وهو أعظم الأصنام، التى كانت حول الكعبة، وكانت قدامه أقداح الاستقسام.

وذو الخلصة: لخثعم، وهو مروة بيضاء، منقوش عليها مثل هيئة التاج.

والقصد:

فإن حياة العربى، وبخاصة البدوى، كانت حياة خوف، وترقب، وكر، وفر، والموت خير من الحياة، وكان أحدهم إذا مر على قبر ميت تمنى أن يكون مثله، تحت الأرض، حياة: الأرحام فيها مقطوعة، والدماء سائلة، والحرب سجال، والبنات موءودة، حياة دون هدف دينى، أو دينوى...

على أن بعض العقلاء رجع عن ذلك، فقد روى أن أحدهم جاء ليذبح ويتقرب من صنمه فوجد ثعلبانًا، بال على رأسه ، فقال :

أرب يبول الثعلبان برأســـه ألا ذل من بالت عليه الثعالب

ورجع إلى قومه.

وهذه الحياة :

جعلت العقلاء يجوبون الآفاق باحثين عن إنارة من علم، أو قبس من نبوة، وكانوا يتنسمون أرواح الفرج فى رسول، قرب أوانه، يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدى للتى هى أقوم، ويسير بالحياة إلى بر الأمن، والأمان.

من أجل ذلك :

عاملهم الله، الرحمن الرحيم بالفضل، فلم يعذبهم فى الآخرة، وجعل الجنة مثواهم، وقال فى ذلك قوله المحكم : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الآية ١٥ من سورة الإسراء.

وذلك :

أنهم حرموا من الإيمان بالله (عز وجل) الذى يجعل العبد آمنا، مطمئنا، متوكلا على رب عظيم، معتزا برب عزيز قوىّ، واثقًا فى وصول الخير - كل الخير - إليه.

وأيضا - لأن حياتهم لم يكن فيها أمن، أو اطمئنان، وإنما هى : حياة إشفاق، وترقب، وخوف.

كما أنها حياة شظف، وتقشف، وخشونة..

فما أعدَل الله (عز وجل) ! وما أرحمه!

بعد أن وعينا ما تقدم آن لنا أن نتناول الحديث عن المرأة فى الجاهلية فنقول :

المرأة فى الجاهلية، قبل الإسلام

والحديث عنها نقدمه - بمشيئة الله تعالى، وعونه - فى أمرين :

الأمر الأول: الجانب المشرق فى حياة المرأة

ونتناول فيه ما يلى :

١ - المرأة ملكة :

تدير دفة ملكها فى ذكاء، وقوة، واقتدار، وبارع رأى، وحسن حيلة...[١]

وعلينا أن نتأمل قصتها فى القرآن الكريم، وبراعتها فى إدارة الملك، وتدبير الأمور، والمشورة.

مما جعل أعداء العروبة يحاولون - مكابرةً، وبهتانًا - بأنها من غير العرب.. ويشككون فى ذلك.

٢ - المـــرأة: تشعل نار الحرب، وتحمس الجيوش، وتدفعهم إلى النصر، وتطيبهم بطيبها...

وهى : حليمة بنت أبى شمر، الغسَّانىّ، وكانت من أجمل النساء، طيبت بأمر أبيها فرسان الغسَّانيين، فانتصروا على جيش المنذر، والمنذر بن ماء السماء.

وجاء فى أمثالهم : «مَا يومَ حَليمةَ بسرّ»[٢]

وذكرها النابغة الذُّبيانى، وهو يصف سيوفا، حيث قال :

تُخُيِّرْنَ من أزْمانِ يَوْمِ حَليمـــــةٍ ... إلى اليَوْمْ قد جُرِبْنَ، كلّ التجـــارِبِ

---

(١) من أراد المزيد فليرجع إلى كتابنا «المرأة...» تحت الطبع.

(٢) ٢/٢٢٦ مجمع الأمثال للميدانى، يضرب فى كل أمر متعالم، مشهور.

وعلى العكس من ذلك :

ضرب المثل بعطر «منْشِم» وكانت عطارة، قالوا :

«أشأم من منْشِم»[1]

كما قالوا :

.... دقُّوا بينَهم عِطْرَ مَنْشِمِ

٣ – المرأة شاعرة :

وننتخب من ذلك من يلى :

أ – جليلة بنت مرة : زوجة كليب حينما قتل أخوها جسَّاس زوجها كليبا، وأخرجتها أخت كليب من المأتم، قائلة فأنت أخت قاتلنا، وشقيقة واترنَا، فخرجت تجر أذيالها، وتقول :

يا ابنَةَ الأقْوَامِ إنْ شئت فلاَ   تَعْجَلى باللَّوْم، حتَّى تَسْألِى

وسنسجل القصيدة – إن شاء الله تعالى – فى فصل آت لمناسبتها.

والقصيدة : تذيب الصخر ألمًا، وحرقة، وأسى، وحسرة...

ب – الخنساء :

وهى : تماضر ابنة عمرو بن الشريد السلمىّ.

---

(١) ١ / ٣٩٤ مجمع الأمثال للميداني، يضرب فى الشؤم.

والبيت من معلقة زهير بن أبى سُلْمَى.

والبيت – بتمامه :

تداركتما عبسا، رءبيان، بعْدمَا   تفانوا، ودقوا بينهم عطر منشم

ص ١٣٦ شرح القصائد العشر.

وقصائدها فى رثاء أخيها صخر، تذيب الحديد، وتقطر أسى، وحرقة.[1]

وننتخب من شعرها ما أجابت به دريد بن الصمة، فارس جُشَم بن بكر[2] حينما ردَّت خِطْبَتَه، وقالت :

مَعَاذَ الله، يَنْكَحُنى حَبَرْكَى   قَصير الظهر من جشم بن بكر

فرد عليها دريد بن الصمة بقوله :

وقَــاكِ الله يا ابْنة آل عَــمْـــرو   من الأبطال أمـثـــالى، ونَفْـسِـى

تريدُشَــر نبْتَ الكفَين شــــثْنا   يقلعُ بالوليـــــة كل كل كـــرسِ

وكان العربى، يسجد لبلاغة قولها فى رثاء أخيها صخر فى البيت الآتى :

أغَــــرُّ، أبلَـجُ، تأتَمُّ الهـــداةُ بـه   كـــأنه عَلَمٌ فـى رأسِـــهِ نارُ[3]

وقد أدركت الخنساء الإسلام، وأسلمت، مع قومها، وكان الرسول الأمين يستنشدها، ويقول لها : «هيه ياخُنَاسُ، ويُومئ بيده الشريفة...

٤ - المرأة كاهنة :

والكهانة نوعان :

أ - نوع يأخذ عن الجنّ، وقد كانوا يسترقون السمع، ولهم مقاعد فى السماء، وكانوا يسمعون التكاليف الصادرة للملائكة للخلق، فيخبرون، ويضيفون أكاذيب من عندهم ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ الآية ٩ من سورة الجن.

---

(١) انظر ديوان شعر الخنساء.

(٢) انظر ٧ / ٨٩ أسد الغابة.

(٣) ص ٤٧ - ٥٠ ديوان الخنساء، وانظر ٩ / ٨٩ أسد الغابة.

كانوا يسترقون قبل البعثة، وبعدها حرست السماء..

ب – النوع الثانى عن طريق النجوم، وللكاهن حسابات فى ذلك... والكهانة كانت منتشرة فى الجاهلية قبل البعثة....

وتدور غـالبـا : حول التبشير بنبى يبعث، وتفسير الرؤيا، ومعرفة الخفى من الأحداث...

ويذكر الجاحظ منهن :

«هند بنت الخسّ، وهى الزرقاء، وجمعة بنت حابس، ومنهن : طريفة الخير : امرأة عمرو بن عامر، الحميرية، وكانت باليمن... ومنهن فاطمة الخثعمية، وكانت بمكة، وقـصـتـهـا مع والد الرسـول العظيم قـبل زواجـه من آمنة بنت وهب مشهورة...»[1]

٥ – المرأة مبعث إلهام الشعراء.

وقد كانت القصائد تفتتح بذكر المرأة، والإشادة بها، وأنها ممنعة.

وذلك :

لأن ذكر المرأة يثير الذكريات، ويحرك الأحاسيس، وبخاصة فى بيئة ألفَت الحلّ، والترحال، فعند الحل يأتى الاختلاط، وتتشابك القلوب، وتشتعل نار العشق، وعند الترحال يأتى الأسى، والبكاء، والتحسر،...

فإذا ما ذكرت المرأة فى أول القصيدة أثارت مشاعر الشاعر، وألهبت تجربته الشعورية، وأيقظت أحاسيسه، فيخرج كلامه من القلب، ليحل فى القلوب...

---

(١) ص ١٥١ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى «خفاجى».

كما تحرك أبيات القصيدة، أو الأرجوزة، أو المقطوعة حسّ القارئ، والسامع، فينشط خياله، ويقوى حسّه، ويستقبل ما يلقى إليه، أو ما يقرؤه.

وما ذلك

إلا لأن المرأة نصف الرجل الثاني، وهى منه، والبعض يحن إلى الكلّ، والكل ينجذب إلى البعض..

٦ – المرأة دالة على الصلح، وباعثة إليه، ومتحمسة له :

وقد سجل صاحب الأمالى ٢ / ٢٠٤ قصة الصغيرة بنت أوس بن حارثة بن لام الطائى، وهى التى أشارت على زوجها بأن يسْعَى فى الصلح بين عبس، وذبيان، ففعل، واستحق بذلك حمد الناس، ومدح الشعراء.

وقد كان الناس يستشيرونها فى أمور الزواج، ويقبلون رأيها...

٧ – الانتساب إلى المرأة، لشهرتها وشرفها، كما ينتسب للرجل.

ومن ذلك يقول شاعرهم:

أنَا ابنُ دَارةَ مَعْروفًا بها نَسَبى وهَلْ بدَارةَ يا للناسِ منْ عَارِ؟

٨ – فطنة المرأة إلى حقيقة علمية، أثبتها العلم بآخرة، واقتنع بها زوجها.

وقد روى فى ذلك[1]

أن رجلا تحول عن بيت زوجه – حينما قدم من سفر، وأخبر بولادة زوجته – فتحول إلى بيت جاره.

---

(١) ١ / ١٩٥ البيان، والتبيين.

وقد أخذت امرأته ترقص ابنتها ذات يوم، وتنشد :

ما لأبي حَمزةَ لا يأتينـــــا   يظل في البيـت، الّذي يلينَـــا
غَضبَان ألاَّ نلـــدَ البنينــا   والله : ما ذَلكَ في أيدينَـــا
وإنما نأخُذُ مــا أُعْطينَــا   ونحن كالأرض لزارعينـــا
نُنْبت ما قَدْ زَرَعُوه فينَا

فأثر ذلك في نفس زوجها، وعاوده حدب الوالد على ولده، وعاد إلى بيته.

هذه صورة للمرأة في إشراقها، وتألقها، وفي أعظم حالاتها في هذه الفترة من حياة الناس في شبه جزيرتهم..

وقد يجد الباحث، المتأمل صوراً أخرى مشرقة..

والله تعالى يهَبُ ما يشاءُ لمنْ يَشَاءُ.

الأمر الثاني : الجانب المظلم في حياة المرأة

١ - ما يحدث عند التبشير بولادة الأنثى :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الآيتان ٥٨، ٥٩ من سورة النحل.

والمعنى : في إيجاز :

- إذا بشِّر رجلٌ - وكان في مجلس قوم - بأن زوجته قد ولدت بنتا، تميز غيظا، وظهر السواد على وجهه، وإنه ليكتم غيظه، ويتوارى خجلا من القوم من سُوء ما بشر به.

– ويقدر فى نفسه : هل يواريها فى التراب ، أم يبقيها مهينة ، ذليلة . . . ؟

– ويُجَرِّمْ القرآن الكريم ذلك[1] ، ويقول تعالى فى موطن آخر :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ الآية ١٧ من سورة الزخرف.

فقد قالوا : كذبًا ، وافتراء – الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علوًا ، كبيرًا . . .

فجاء الإفحام من الله تعالى – فيما تقدم – وفى قوله تعالى :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ الآية ٤٠ من سورة الإسراء.

وانظر إلى الرسول العظيم حينما بشّر بفاطمة (رضى الله عنها) فقال : «رَيْحَانةٌ أَشَمُّها»

وأسدل ستارًا كثيفا على معتقد بال ، وعمل مخرب ، مدمّر . .

٢ - **البنت موءودة** : خشية إملاق ، أو من إملاق – كما قال القرآن الكريم :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ الآية ١٥١ من سورة الأنعام. أى : من فقر ، حال بكم . . . .

كما قال تعالى :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ الآية ٣١ من سورة الإسراء ، أى : خشية فقر ، يحل بكم.

---

(١) انظر ٢ / ٦١٢ ، ٦١٣ الكشاف ، وص ٤٣٩ صفوة البيان.

وقد وعد رب العزة جل، وعز، وعداً كريما بالرزق للجميع، حيث قال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ الآية ٣١ من سورة الإسراء.

والمراد: النهى عن وأد البنات مخافة فقر حال، أو فقر يخشى حلوله..

كما أنهم كانو يئدون البنات مخافة العار، والأسر..

٣ - إكراه المرأة على البغاء:

وهى تجارة الأجساد: وكان من عادة بعضهم اتخاذ الإماء للبغاء، ابتغاء المال الحرام، والولد، الذى لا يأتى إلا على فراش الحرام.

وكانوا يتخذون للبغى بيتا، ويضعون عليه راية حمراء؛ ليتعرف عليه باغى المتعة الحرام.

وقد جَرَّمَ القرآن الكريم هذه العادة السيئة، وحذر منها فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآية ٣٣ من سورة النور.

ويقول جار الله:

وكانت إماء الجاهلية يساعين على مواليهنّ.

وكان لعبد الله بن أبى ابن سلول، رأس النفاق، والمنافقين ست جوار: معاذة، ومسيكَة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة؛ يكرههن على البغاء، وضرب عليهن ضرائب، فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ، فنزلت،

ويكنى بالفتى، والفتاة عن العبد، والأمة[1]

---

(١) ٣/ ٢٣٩ الكشاف.

وفي هذا العمل المشين - فوق ما فيه من امتهان المرأة - القبح، والفحش،...

٤ - ضياع حق اليتيمة مع وليها:

فقد يموت إنسان، موسر، ويترك أيتاما، ضعافا: من البنين، والبنات. وهنا: يقوم هذا الولي الجشع، الطامع بالتصرف، المشين في أموال اليتامى، على حسب هواه، وشهوته للمال، ويفعل أفعالا جرمها القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ الآية ٢ من سورة النساء.

كما طلب من ولي اليتيمة، واليتيم:

١ - أن يثمر أموال اليتيم واليتيمة - كما يفعل ذلك في ماله الخاص.

٢ - وأن يكون عمله ابتغاء وجه الله تعالى: إن كان غنيا.

٣ - وأن يأخذ أجر المثل المتعارف عليه، إن كان فقيراً.

٤ - وأن يختبر اليتيم بالتصرف في بعض المال، ليتدرب على ذلك بعد بلوغه سن الرشد.

٥ - أن يرد إلى اليتيم، أو اليتيمة المال عند بلوغ الرشد، وحسن التصرف.. وأن يُشْهد عليه.

وقال رب العزة في ذلك:

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

وكما قال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ الآية ٦ من سورة النساء.

٥ - زواج اليتيمة، دون عدل :

ويقول جار الله : «كان الرجل يجد اليتيمة : لها مال، وجمال، أو يكون وليها فيتزوجها ضنا بها عن غيره، فربما اجتمعت عنده عشر منهن»[١]

وقد حرم الإسلام ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ الآية ٣ من سورة النساء.

٦ - الحرمان من الميراث

يقول جار الله :

«كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، والأطفال، ويقولون :

لايرث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحوذة، وحاز الغنيمة..»[١]

فجاء قول الله تعالى : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ الآية ٧ من سورة النساء

والمواريث :

إذا وزعت توزيع السماء كانت النتيجة :

- التوازن فى المجتمعات، والاستقرار.
- ذيوع الحب والتعاون..
- التكافل الاجتماعى، الذى أكده الإسلام، وقرره..

---

(١) ١/٤٦٧ الكشاف.

- استقرار الحياة . .
- ذيوع السلم، والأمن، والسلام . . .

فإذا رأيت بيتا عامرا، مليئا بالخير، ترفرف عليه رايات الأمن، والسلام فاعلم أنه بيت أطاع الله تعالى فى تقسيم المواريث، وعمل بسنة الرسول العظيم، وإذا رأيت بيتا، مظلما، ترفرف عليه قتامة، وسواد، ويعيش في فقر، فاعلم أن أهله قد تظالموا. وأكل بعضهم حق بعض.

والصورة المتقدمة هى الصورة، المظلمة لحياة المرأة فى الجاهلية الجهلاء.

وجاء الإسلام بسماحته، فأعلى قدرها، وأعطاها حقها، ووضعها فى الموضع اللائق بها . .

بعد عرض ما تقدم : استيفاءً للبحث علينا أن نخص وأد البنت فى حديث منفرد، يُصحِّح بعض المعلومات التى يتناقلها الناس، ويعمِّمونَها، فنقول :

(الـــوأد)

ونقدم - بمشيئة الله تعالى - بحث الموضوع فيما يلى :

اللغة :

فى المختار، مادة (و أ د) :

«وأد بنته دفنها حية، وبابه وَعَد، فهى موءُودة.

وكانت كِنْدَة تئد البنات....»

وفى المصباح المنير ، مادة (و أ د) :

«وأد بنته وأداً، من باب «وَعَد» : فهى موءُودَة.

والوأد : الثقل، يقال : وأده : إذا أثقله...»

وفى أساس البلاغة مادة (و أ د) :

«وأد ابنته : أثقلها بالتراب «وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلتْ»

وقال الفرزدق :

وَجَـــدِّى، الَّذى منَع الوائدات وأحْـيَــا الْوئيـــدَ، فلَمْ يُوأد....»

وقد أكد جار الله ما تقدم، وزاد عليه..

وفى القاموس المحيط، مادة (و أ د) :

«وأد بنته يئدها : دفنها حية، وهى وئيد، ووئيدة، ومَوْءُودَة، والوأد، والوئيد : الصوت، أو العالى الشديد...»

وفى اللسان، مادة (و أ د) وجاء بعلم غزير...

نقتطف من ثماره ما يلى :

«الوأد، والوئيد : الصوت العالى، الشديد..

وفى الصحاح : وأد ابنته يئدها وأداً : دفنها فى القبر، وهى حية.

وأنشد ابن الأعرابى :

ما لَقى المَوءُودُ منْ ظلم أمِّـــــه كَمَا لَقيتْ ذهْل جميعًا، وعَامِرُ...

وقال الفرزدق يعنى جده صَعْصَعَة بن ناجية :

وعمِّى الذى مَنَع الوائدَات وأحْيَا الوليَد، فلم يوأد...

وقد أفاد ابن منظور، وأجاد....

طريقة الوأد :

١ - عن طريق الأمّ :

والقبائل التى باشرت الوأد...

قـالوا: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة، فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة، وإن ولدت ابنا حبسته .

٢ - صنيع الأب :

كان الرجل إذا ولدت له بنت، فأراد أن يستحييها : ألبسها جُبَّة من صوف، أو شعر، ترعى له الإبل، والغنم فى البادية..

وهذا: هو الإمساك على هون.

وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سُدَاسية، فيقول لأمها : طيبيها، وزينيها، حتى أذهب بها إلى أَحْمَائهَا، وقد حفر لها بئراً فى الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها : انظرى فيها، ثم يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب، حتى تستوى البئر بالأرض...[1]

وفى كلتـا الحـالتين : وأد، وإثقال بالتراب، وبلغة العصر «اسفكسيا الخنق بالتراب»...

وهـذا: إن دل ، فإنما يدل على قساوة قلب، وانتزاع الرحمة منه، وعدم تقدير للعواقب....

ما أسباب الوأد :

والباحث فى ذلك يجد القرآن الكريم يجيب عن ذلك، كما يجد السنة النبوية تتمم ذلك :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ الآية ١٥١ من سورة الأنعام.

---

(١) انظر ٤، ٧٠٨ الكشاف .

والمعـنـى : لا تقتلوا أولادكم لفقر نازل بكم، وضر تعيشون فيه، واستروحوا نسـمـات الفـرج بعـدم القـتل، والوأد، فـالله تعـالى، المتـفـضـل بالرزق يرزقكم، ويرزقهم.. ووعد الكريم الغنى، لا يتخلف...

ويقول (عز من قائل) :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ الآية ٣١ من سورة الإسراء

والنهى فى الآية الكريمة عن قتل الأولاد، والوأد... مخافة فقر ينزل فى مستقبل الأيام، وخشية ضر يحلّ بكم...

والآية الكريمة تعد بالرزق للأولاد، وبعدهم الآباء، والأمهات..

وكما قلنا :

وعد الكريم الغنى لا يتخلف...

والمراد فى الآيتين الكريمتين :

أ - النهى عن قتل الأولاد، والوأد لفقر موجود. أو لفقر منتظر..

ب - الوعد الكريم من رب كريم بالرزق للأبناء، والآباء، وللآباء، والأبناء، كما فى الآيتين الكريمتين...

وفى هذا المعنى، والنهى :

قال الرسول العظيم : «العَزْلُ : الوأْدُ الخفيُّ»

والعزل : فى الشريعة الغرّاء :

أن يجامع الرجل امرأته، أو أمته، فإذا قرب الإنزال نزع ذَكَره من بُضْعها :

فرجها. حتى لا ينزل المنى فى المهبل، والرحم، ويتخذ طريقه نحو البويضة، إن كانت مهيئة للإخصاب فى أحد المبيضين، ثم تتخذ طريقها مخصبة إلى قرار مكين: الرحم. وتتم الدورة بتصوير الله (عز وجل) وتقديره...

وحكم العزل فى الشريعة الغرّاء:

أ - بالنسبة للزوجة، لايجوز، وهو الوأد الخفىّ... إلا إذا أذنت الزوجة: فقد أسقطت حقها وبقى حق الله تعالى. وقد شبه الرسول العظيم قتل الحيوان المنوى بالعزل، حتى لايخصب البويضة الأنثوية بمن يئد ابنته حية: فالحيوان فيه الحياة، وصالح لأداء دوره - إذا أراد الله ذلك. والموءودة صالحة لأداء دورها فى الحياة، إن بقيت حية...

ب - بالنسبة للإماء - إن وُجِدْنَ

العزل جائز بالنسبة للإماء، إذ لا حق للأمة يوازى حق الزوجة..

والقصد: النهى عن الوأد. وعن العزل بالنسبة للزوجة، إلا بإذنها.

كما يذكرون فى سبب الوأد حادثة أخرى

هى: أن أحد الرؤساء أسرت له ابنة.

وقد تم صلح، وتبادل الأسرى، فخيرت ابنته فى العودة إلى أبيها، وفى البقاء مع من أسرها، فاختارت آسرها عن أبيها، فعزَّ عليه ذلك، وحَلَف على أن يئد كل بنت، تولد له...

وقلده بعض الناس فى ذلك، وانتشرت العادة...

بعد عرض ما تقدم نقول :

ما موقف العقلاء من تلك الفَعْلَة السيئة، والجريمة النكراء...؟

وللإجابة عن ذلك نقول:

ما إن أخذت العادة تنتشر فى بعض القبائل مثل «كِنْدَة» و«أسد» إلا وقد ظهر عُقَلاَء، وقَفُوا فى طريق هذه العادة السيئة، والفعلة الشَّنْعَاء.

وقد مر بنا أن جدّ الفرزدق، أو عمّه وقف فى طريق هذه العادة السيئة، وافتدى الوئيدات بماله الخاص...

وعدَّ الفرزدق: أن ذلك من أعظم مفاخره..

كما جاء الإسلام وقد قطع هذه الجريمة، وغَطَّى عليها، وجرَّمها...

وخلاصة ما تقدم :

- أن وأد البنات كان قبيل ظهور الإسلام، ولم يكن عامًا، كما يدَّعى بعض من كتبوا فى هذا الأمر..

وكان عيبهم فى التعميم، الذى لم يكن...

- وأن الوأد كان لخشية فقر، متوقع، أو لفقر واقع، كما كان مخافة العار عند الأسر فى الحروب، والغارات...

- وأن الوأد لم يكن فى كل القبائل العربية، وإنما كان فى بعضها...

ويقول أستاذنا: عبد المنعم خفاجى :

«وإذا كان بعض العرب قد وأدوا البنات خشية الفقر، أو العار، فإنما كان ذلك فى طبقة، منحطة منهم فى بعض بطون من تميم، وأسد...[1]»

---

(١) ص ٣٥، الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى...

وهذا يؤكد ما قدمناه، كما يجافى التوازن الكونى، الذى ترعاه السماء...

بعد أن ذكرنا «الوأد» وبينا ما ينبغى أن يقال فيما قاله بعض المغرضين نقول :

- للإبل فى حياة العرب حظ كبير، فهى عماد الحياة فى الصحراء..
- وللخيل شأن كبير، فهى تعد للطعان، والنزال، والإغارة، ورد المغيرين..
- وصناعة الغزل ضرورية عندهم: للملبس، والغطاء، والخيام،...
- وقد قامت زراعات فى المدينة، والطائف، واليمن، وحول المياه والعيون..

أمــا التـجـارة : فقد كانت دأب القرشيين. الذين ألفوا رحلة الشتاء، ورحلة الصيف فى أمن، وأمان.

وقد أمنوا رحلاتهم بأخذ العهود من الملوك، لتأمين التجارة. وكانت نتيجة الاختلاط، والرحلات :

أن صار الهاشميون أصحاب ثقافة واسعة، وصقلت أفكارهم، وأذواقهم، وأسلوبهم، وصاروا أرقى عرب الشمال: فكرا، وأبعدهم نظرا، وأكرمهم عشرة..

عاشراً: حياة العرب السياسية

النظام القبلى:

هو نظام ضرورى فى المجتمعات البدائية، وأهم خصائصه ما يلى :

- الحكم المطلق لرئيس القبيلة.. فكل قبيلة تأتمر بأمر سيد القبيلة وتخضع لإرادته، وتطيعه فى السلم، والحرب.

ومن ذلك: يقول قائلهم:

دَعَــانَا، وَ الأسنةُ مُــشْــرَعَــاتٌ   فكنَّا عنْدَ دَعْــوَتِهِ الإجَــابَا

- ورئيس القبيلة الحكم، والمرجع فيما شجر من خلاف بين أفراد قبيلته..
- وللقبيلة حُكَماء، امتازوا بأصالة الرأى، والحصافة، وصدق النظر..

ويفزع إليهم فى الملمات، وفى الخصومات الأدبية، كالمفاخرة فى النسب، ونحوها...

وهذا النظام : ما عليه أغلبية العرب من البدو فى : نجد، والحجاز، وتهامة،...

ويستثنى من ذلك النظام مكة، والإمارات، التى على التخوم، واليمن.

أما قريش :

فقد كان القرشيون لثرائهم من الحجيج، ولتجاراتهم المنوعة، وبخاصة ما ألفوه من رحلة الشتاء لليمن، والصيف للشام. ولاتصالهم بالأمم ذات الحضارة كالفرس، والروم، ولنضوج عقولهم، وحسن تفكيرهم، وتقديرهم كانوا يحكمون مكة حكما أنضج، وأعظم، وأدق من الحكم البدوىّ السائد.

وقد وضَعَ قُصَىّ فى القرن الخامس الميلادى أساس هذا النظام الجديد..

وذلك :

بجمع شتات القرشيين، وتوحيد كلمتهم، وأخذ ولاية البيت الحرام، وجدَّد بناء الكعبة، وبنى دار النَّدْوة؛ ليجمع فيها الرؤساء، الذين لا تقل أعمارهم عن الأربعين عامًا، ليتشاوروا، ويعقد أنكحتهم وألويتهم، ويفصلوا فى خصوماتهم...

وبذلك :

صار لقصى السيادة الكاملة فى مكة، كما صار الرئيس الدينى للبيت الحرام، وكانت له رئاسة دار الندوة، واللواء : فلا تعقد راية الحرب إلا بيده، كما كانت له الحجابة : فلا يفتح باب الكعبة إلا بيده، وهو الذى يلى أمر خدمتها، كما كانت له السقاية :

وهى حياض كانوا يملأونها بالماء، ويحلّون الماء بشىء من التمر، أو الزبيب، ليشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

أما الرفادة : فقد كانت له - أيضا -

والرفادة : الطعام، الذى كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة، وكانت قريش تساعد قصيًّا على ذلك بما تقدمه من خرج سنوى.

وقد ورِّثَ قُصَىٌّ أولادَه هذه المفاخر العظيمة، وتنافسوا عليها، ثم استقر رأيهم على أن يتقاسموها بينهم..

وتم ذلك فى الآتى :

١ - السقاية : سقاية الحجيج، وكانت فى بنى هاشم، وكان يقوم بها العبَّاس بن عبد المطلب... (رضى الله عنه).

٢ - العقَاب :

والعُقاب : راية قريش، وقد كانت فى بنى أمية عند أبى سفيان بن حرب.

وإذا كانت عند رجل آخر، أخرجها إذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب، وإلا رأسوا صاحبها، فقدموه.

٣ - الرِّفَادة : ما كانت تخرجه من أموالها، وترفد به منقطع الحاج، وكانت فى بيت نوفل، عند الحارث بن عامر.

٤ - السِّدانة :

والسِّدانة : خدمة الكعبة، وحجابتها، وبيد صاحبها مفتاح الكعبة ولها المقام الأوَّل عندهم.

وكانت السدانة: لبنى عبد الدار، يقوم بها الحارث بن طلحة، كان إليه السدانة، مع الحجابة.

٥ - المشورَة :

وكانت لبنى أسد، وصاحبها يزيد بن زمعة بن الأسود، وكان يستشار فى الأمور الكبيرة.

٦ - النَّدْوَة :

وهى الإشراف على دار الندوة، وكانت فى بنى عبد الدار..

٧ - الأشْنَاق :

وهى : الديات، والمغارم، وهى فى بنى تيم.

وقام بأعبائها أبو بكر الصديق (رضى الله عنه).

وكان صاحبها إذا احتمل شيئا، فسأل فيه قريشا صدقوه، وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه.

٨ - القبُة، والأَعنَّة :

والقبة : هى الخيمة، التى كانوا يضربونها، ويجمعون إليها أدوات الحرب.

والأعنة : هى تولى أمْر الخيل فى الحرب.

وكان ذلك لبنى مخزوم.

ونهض بالقبة ، والأعنة: خالد بن الوليد (رضى الله عنه).

وقيل : إن الأعنة كانت فى بنى عَدِىّ.

٩ - السفَارَة :

وهى لبنى عدىّ، ونهض بها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

والسفارة : هى التوسط بين قريش، وغيرها فى الحرب، وفى السلم - أيضا -

١٠ - الأَيْسَار :

وهى تولى أمر الأزلام، التى كانوا يستقسمون بها، وكانت فى بنى جُمح، وقام بها صفوان بن أمية.

١١ - الحكومة، والأموال المحجَّرة، التى سموها لآلهتهم.

وهى لبنى سَهْم

ويقوم بها الحارث بن قيس

ومن مآثر قريش، ونضج عقولها : «حِلف الفُضُول»

وحلف الفضول :

اجتمعت عليه بطون قريش، وتحالفوا فى دار عبد الله بن جُدْعَان على رد المظالم بمكة، وألا يظلم أحد إلا منعوه، وأخذوا للمظلوم بحقه.

وحضره الرسول العظيم (ﷺ)وهو فى الخامسة، والعشرين من عمره.

وقال فيه :

«لقد شهدت - مع عمومتى - فى دار عبد الله بن جدعان حِلفا، ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى به فى الإسلام لأجبت.»

ولنا ملحوظات على ماتقدم : نوردها - بمشيئة الله تعالى فيما يلى :

١ - منح الله (عز وجل) الفطرة السليمة لعباده، وهى التى تهدى للتى هى أَفْضَل، وذلك : إذا حرمت البشرية من نور الرسالات، فإنها لا تحرم من قبَس من الفطرة السليمة؛ لتسير الحياة سيرتها المأمونة، المرجوة.

٢ - فى مجمل ما ابتكرته قريش مما تقدم أسس الاستقرار الاجتماعى، والتكافل بين بنى البشر...

٣ - تقسيم المآثر بين بيوتات قريش، وبطونها ما يشعر بالرضا بين الجميع، وينشر الحب، والتآلف، والتعاون، والتناصر...

٤ - الناظر فى تقسيم المآثر على بطون قريش يجد عقولا كبيرة نظمت ذلك، بحيث ترضى الجميع.

كما يلمح أن بعض المآثر هى عصب الحياة، وأن بعضها منح لبعض البطون لمجرد الترضية، وجبر الخاطر..

٥ - أدركت قريش دورها فى المجتمع، وعَطيَّة الله تعالى لها : الكعبة المشرفة، والبيت الحرام...

وعلمت أن القلوب تهوى إليهم فهيأت لهم الرفادة، والسقاية، والحجابة...

وأدت دورها فى ذلك خير أداء..

٦ - كما أنها علمت مكانتها الدينية، وموقعها الاجتماعى فعملت على حل مشكلات قريش الداخلية، والسفارة لمشكلات الخارج..

وقد أفادها ذلك : خبرة واسعة فى طبائع الناس، ومشكلاتهم، وطرائق حلولها...

أما دار النَّدْوَة فشىء آخر، أعظم...

المظلوم : ترد له مظلمته، والظالم يوقف عند حد العدل، والإنصاف.

٧ - والخلاصة :

فهذا التنظيم إرهاص لمبعث الرسول العظيم ﷺ، وتدريب لقريش على أعمال

السيادة، والعدل، وتدريب، وتهيئة لرجال صقلهم الإيمان بعد ذلك وصحح معتقدهم، وقوم اتجاهاتهم كأبى بكر، وعمر، وخالد بن الوليد،.. (رضى الله تعالى عنهم).

كما هيأ الساحة لسيدنا، ومولانا رسول الله (ﷺ) بعد زواجه من السيدة خديجة (رضى الله عنها) :

والتى طلبت منه : أن يجلس ليفصل بين الناس فيما شجر بينهم من خلاف، ولا تشغله تجارة، فللتجارة من يقوم بها.

وكل ذلك : إعداد الحكيم العليم، ليشرق النور من مكة، ويعم أرجاء الدنيا، وأن يصبح الصحب الكرام قادة العالم، وقضاته، وأساتذته..

حضارة اليمن

قامت فى اليمن دول متحضرة، منظمة :
ومن أشهر هذه الدول ما يلى :

١ - **دولة المعينين :** ما بين ١٢٠٠ - ٨٠٠ قبل الميلاد.
وقد نزح المعينيّون من العراق إلى اليمن، وشادوا القصور، وأسسوا دولتهم.

٢ - **دولة سبأ :**
من القرن الثامن قبل الميلاد إلى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد. وقد جاء فى الذكر الحكيم ما يدل على ثراء هذه الدولة، وترف أهلها،... وحاضرة سبأ. مأرَب،

وكانت تمر بها التجارة بين الهند، والحبشة، والعراق، ومصر، والشام.. فازدهرت المدينة، وعظمت الدولة.

وأثر على هذه الدولة أمران :

- انتقال التجارة إلى الطريق البحرى، وانقطاع مرورها بسبأ.

- سيل الْعَرِم، الذى حطَم سدَّ مأرب، وخرب البلاد، وتفرق الناس أيدى سبأ فى أرجاء الجزيرة العربية.

٢ - الدولة الحميرية :

من عام ١٢٠ قبل الميلاد إلى ٥٠٠ م، وعاصمة الدولة الحميرية ظَفَار..

- وتمتاز هذه الدولة بالفتوحات.

- كما أنها حاربت الفرس، والحبشة.

وتنقسم الدولة إلى طبقتين :

الأولى : ينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى

والثانية : امتد سلطانها على الشحر، وحضر موت.

ويسمى ملوك هذه الدولة التبابعة، وآخرهم ذو نُواس (٥١٥ - ٥٢٥)م

وهو صاحب الأخدود، الذى عذب فيه أهل نجران، لعدم تركهم النصرانية، واتباعهم دينه الرسمى : اليهودية.

وأغضب ذلك أهل الحبشة، فقامت بحملة حربية على اليمن، وكانت بقيادة أرياط، وأبرهة، وتم الاستيلاء على اليمن عام ٥٢٥ م.

وحكمها أرياط، ثم أبرهة .

وأبرهة : الذى بنى القلّيس، ليصرف الحجيج عن الكعبة المشرفة، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل، وملك بعده ابنه يكسوم.

وقد أخرج الحبشيين سيف بن ذى يَزَن، وأخرجهم من اليمن بمساعدة الفرس، وامتدت مدة حكم الحبشة لليمن إلى اثنتين، وسبعين سنة.

وقد كان العالم إذ ذاك تتحكم فيه كتلتان: إحداهما فى الشرق، وهى دولة الفرس، والثانية فى الغرب، وهى دولة الروم.

وكان العرب يغيرون على أطراف الكتلتين، فأقامت الفرس :

١ - إمارة الحيرة:

من القرن الثالث الميلادى إلى ٦٣٢ م

وهى إمارة عربية أقامها الفرس على حدود بلادهم بالقرب من الكوفة لتحميهم من غارات العرب، وليحاربوا بها أعداءهم من الروم..

وقد اختار أردشير جذيمة الوضَّاح ملكا على الحيرة، وسائر بلاد العراق، والجزيرة من ربيعة، ومضر.

وجذيمة: هو الذى قتلته الزبَّاء نحو عام ٢٦٨ م انتقاما لقتله والدها، فاحتال ابن أخت له اسمه: عمرو بن عدى حتى قتلها، وهى القائلة :

«بيدى، لا بيد عمرو»

وولى ملك الحيرة عمرو بن عدى اللخمى وملكهم مابين ٢٦٨ إلى ٦٣٢ م حتى فتحها خالد بن الوليد رضى الله عنه. كما وليها آخرون بعده.

---

(١) انظر فيما تقدم مايلى :
١ - الإكليل للهمدانى. ٢ - الأغانى للأصفهانى. ٣ - العقد الفريد لابن عبد ربه.

٢ - إمارة غسَّان :

هاجرت قبائل من قضاعة إلى مشارف الشام، وأقامت بها ؛ لخصبها .

وكانت هذه البلاد تحت حكم الرومان، فاصطنعهم الرومان ليمنعوا غارات العرب عن ملكهم.

وأيضا – ليكونوا عدة لهم ضد الفرس، واللخميين...

ثم تغلب على هذه البلاد بنو جفنة الغسَّانيون.

ورئيس الغسانيين: حفنةُ بن عمرو، فأقامته الفرس ملكا على عرب الشام وشمل ملكهم مقاطعتي حوران، والبلقاء.

وعاصمة ملكهم هى : «جوْلاَن» أو الجابية، أو جلِّق» بالقرب من دمشق.

وقد تأثرت هذه الإمارة بالحضارة الرومانية تأثرا كبيراً.

أشهر ملوك غسَّان :

- **الحارث بن جبلة**؛ وقد عينه الإمبراطور جوستنيان عام ٥٢٩م أميراً على جميع قبائل العرب فى الشام، ومنحه لقب بطريق..

وهو الذى توسط لامرئ القيس فى الذهاب إلى قيصر فى القسطنطينية، ليستعين به – كما سيأتى – إن شاء الله تعالى

– وآخر ملوكهم: جَبَلَة بن الأَيْهَم..

وقد اشتهر الغسانيون بالكرم..

وترى مدحهم على ألسنة الأعشى، والنابغة، وعلقمة الفحل ....

وكان الغساسنة شجعانا : فقد حاربوا الفرس..

كما حاربوا اللخميين، وكانت لهم أيام انتصروا فيها على اللخميين.

من العرض المتقدم نصل إلى ما يلى :

- رئاسة القبيلة هى النمط السائد فيما بين العرب ، وبخاصة سكان البوادى.

- نشأت فى اليمن دول متحضرة ، منظمة ، تدير شئون البلاد إدارة مستنيرة ، عادلة ، حكيمة . . .

- كان بعض العرب عمالا للفرس ، وقد نشأت إمارة الحيرة - كما تقدم .

- كما كان بعضهم عمالا للروم ، وقد نشأت إمارة غسان - كما أسلفنا -

- ومن ذلك نعلم :

أن العراق كان مستعمرة فارسية .

كما كان الشام مستعمرة رومانية .

ولما أشرق نور الإسلام على المعمورة عمل الرسول العظيم على تخليص العراق من قبضة الفرس ، وتخليص الشام من قبضة الروم . .

وقد كتب كتابيه العظيمين : داعيًا إلى الإسلام ، والإخاء ، والمساواة ، . . . وبذلك تتحرر العراق ، كما تتحرر الشام .

وقد ترك الرسول الأمين هذا الأمر الجليل - بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى - لصاحبيه العظيمين : أبى بكر ، وعمر (رضى الله عنهما) فقاما بالأمر خير قيام ، وتحررت العراق كما تحررت الشام . .

بعد عرض ما تقدم نتناول - بمشيئة الله تعالى - ما يلى :

الحادى عشر:

معـــــارف
العرب فى جاهليتهم وحياتهم العقلية

١ - كان للملوك التبابعة فى اليمن، والمناذرة، والغساسنة فى الحيرة، والشام حظ كبير من المعرفة، والثقافة.

ودليل ذلك:

ما وصلوا إليه من بناء السدود، وحفر المجارى المائية، وتخطيط المدن، وتنظيم الجيوش، وهندسة الحياة.

وقد تأثروا بالفرس، والروم، وسواهم من الأمم ذات الحضارة، كما أخذوا عنهم الطب، والحساب، والزراعة.

أما سواد العرب فقد كانوا أميين، بدوا، لا عهد لهم بعلم، أو ثقافة، أو تعليم، أو تدريس...

وإنما كانت لهم معارف، وصناعات احتاجوا إليها، وأفادوها من تجاربهم الذاتية، أو من الإمارات القائمة على الحدود، أو البعوث الدينية، ومعارف المتحنثين...

٢ - أشهر معارفهم:

- فى مفردات اللغة العربية.

أسماء النجوم المتعددة، والرياح على اختلاف أنواعها، والمطر... يدل على ذلك التشابه فى العربية، والكلدانية.

وبعض ما تقدم وصلهم عن أهل بابل القديمة، بعضه بفطرتهم، وتجاربهم فى

معرفة وقت الخصب، والجدب، وأوقات الرياح، والمطر،....

ومما ساعد على ذلك : صفاء الجو فى الصحراء، وفطنتهم المرهفة، وحاجتهم إلى السحاب، والمطر...

أما سكان السواحل : كأهل اليمن، والبحرين: فقد كانت معارفهم بالملاحة البحرية، وسير السفن فى البحار.

وقد وردت إلى اللغة العربية ألفاظ كثيرة من ذلك .

٣ - الطب:

وقد وفدت إليهم بعض المعلومات من الفُرس، والروم، واليونان.

وكان طبيب العرب: الحارث بن كلدة، طبيب العرب فى الجاهلية، ١٣٢ هـ قد تعلم فى بلاد الفرس، وكان ثقفيا، وعاش حتى جاء الإسلام.

وكان الرسول الأمين يشير إلى بعض المرضى، أن يذهبوا إليه.

كما يضرب المثل بالطبيب : ابن حذيم.

وعنه يقول الشاعر :

فهل لكمو فيما إلى فإنَّنِى طبيب بما أعْيَا النِّطَاسَ حِذْيَمَا

وهو صاحب الحكمة المشهورة : «البطنة بيت الداء، والحمية رأس الدواء»

وللكى عندهم مكانة كبيرة، وقد استمدوا ذلك من تجاربهم العامة.

وكانوا يعالجون إبلهم، وخيلهم بالكى، وبالقطران... إلى غير ذلك من أنواع العلاج.

وقد حفلت اللغة العربية بكثير من الكلمات فى هذا الشأن.

٣ - الأنساب، والأخبار:

ومصدر الأخبار قصص التوراة، والإنجيل، وأساطير الفرس، والروم، والأخبار المتوارثة عن آبائهم وأجدادهم، وعن الأمم المجاورة لهم.

وساعدهم على ذلك : وقت الفراغ الممتد، فهم يقطعون الكثير منه فى ذلك.

والأنساب كانت موضع عنايتهم، واعتزازهم، وكانوا على جانب كبير من النبوغ فيها...

أشهر النسابين:

كان فى كل قبيلة نسابون يعرفون الكثير من القبائل، والبطون، والمفاخر.. ومن أشهرهم :

- دغفل السدوسى، وقد ضرب به المثل وأدرك الإسلام، وعاش إلى زمن معاوية..
- وابن لسان الحمرة: من بنى تيم اللات...
- وزيد بن الكيس النمرى.
- وسيدنا أبو بكر الصديق (رضى الله تعالى عنه).

وقد سجل الجاحظ ذلك حيث قال:

«ومن رؤساء النسَّابين: دغفل بن حنظلة، وزيد بن الكيس النمرى[١]» ويذكر بعض أسماءالنسابين[٢].

وفى مختصر العقد ذكر لأخبار عن أبى بكر الصديق، ودغفل فى هذا الباب[٣].

ومن معارفهم :

---

(١) البيان، والتبيين ١ / ٢١٠ .
(٢) ١ /٢٠٨ إلى ٢١١ البيان والتبيين.
(٣) ٢٠١ إلى ٢٠٤ مختصر العقد.

٤ - الفراسة :

وهى : الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية كالاستدلال بشكل المرء، ولونه، وقوله على خُلقه.

وللعقل فى الفراسة نصيب كبير.

ومن معارفهم - أيضا -

٥ - القيَافة :

وتنقسم إلى قسمين :

أ - قيافة الأثر :

وهى : الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه.

ب - قيافة البشر :

وهى الاستدلال بهيئة الرجل، وشكله، وأعضائه على نسبه.

وقد اشتهر بنو لهب بالقيافة، كما اشتهر بنو مُدْلِج..

واشتهروا - أيضا -بالزجر.

وهو الاستدلال بصوت الحيوان ، وحركته على الحوادث.

وكانوا يزجرون الطير :

فإذا مرّ عن ميامن الإنسان سموْه سانحًا، وتفاءلوا به.

وإذا مر من مياسره سموه بارحا، وتشاءموا به.

ويقول النابغة الذبيانى :

زعم العَـواذل أن رحلتنا غــداً وبذاكَ خــبَّــرَنا الغــراب الأســوَدُ

ويقول الشاعر عن اللهبيين :

خَـبـيـرٌ بنـو لهـبٍ، فـلا تَكُ مُلغـيًـا مـقَـالَة لهـبىّ، إذا الطيْـرُ مـرَّت

ومن معارف العرب :

٦ - الكهانة :

وقد تقدم الحديث عنها فى «المرأة كاهنة»

ومن معارفهم - أيضًا - :

٧ - العِرافة :

ومن أشهر العرافين :

- سطيح الذئبى.
- وطريفة الخير.
- والأبلق الأسدى : عراف نجد.
- ورباح بن عجلة : عراف اليمامة..

وقد كان للعرب فيهم اعتقاد، وكانوا يشدون إليهم الرحال فى كل ما يطرأ لهم من أمر، أو يستعصى عليهم من مشكلات الحياة، وأزماتها..

ويقول عروة بن حزام :

جـعَلْتُ لعـرَّافِ اليـمَـامَـة حكمـه وعـرَّافِ نَجْـدٍ، إنْ هُمَـا شَـفَـيَـانى

أما الشعر :

فـقـد كـان ديوانـهم، ومظهـر مـعرفـتـهم، وأهــم ثقـافـة لهم، وكـان البـيـت من الشــعـر يرفع القـبـيـلة إلى مـراقى المجد، والعظمـة، أو يهـبط بهــا إلى دركــات الخسَّـــة، والضعة.

٨ - بعض الصناعات :

وهى صناعات اضطروا إليها كالغزل للملبس، والغطاء، والمأوى، وصناعة الرِّماح للغزو، أو لصد الغازى، وكانت تصنع بالخط فى البحرين.

أما السيوف فقد كانوا يجلبونها من العراق، والأبلة، وكانوا يطلقون على الأبلة : الهند، وتراهم يقولون : سيوف هندية، واشتهرت اليمن، والحيرة، ومشارف الشام بألوان كثيرة من الصناعات.

ولعلنا - بما تقدم - نكون قد كشفنا عن حياة العرب فى بواديهم، وحواضرهم. وكأننا نعيش معهم، ونحيا حياتهم.

وما قدمناه إنما هو من قبيل الوسائل، التى ينفذ منها إلى المقصود الأهم، وهو ما سنقدمه - بعون الله تعالى، ومشيئته فيما يأتى :

وقبل أن نختم المقال فى ذلك، والذى قد يفهم منه أن هؤلاء الأقوام يعيشون بلا مكارم، ولا أخلاق...

ولكن الحقيقة غير ذلك :

وقد جلأها ابن سنان الخفاجى فى كتابه «سر الفصاحة»

ص ٥١ - إلى ٥٦ والذى نوجز منه مفاخرهم - فى اختصار - ما أمكن ذلك، فنقول :

تفضيل هؤلاء القوم على غيرهم بما يلى :

يقول الخفاجى :

«إن الخصال المحمودة توجد فيهم أكثر، وفى غيرهم أقل.

وعلى هذا الحد يقع التمييز بين القبيلتين، وأهل البلدين.

ومتى تأمل المنصف حال العرب علم ما ذكرته حقيقة[١]

ونورد ما ذكره - في إيجاز - فنقول :

١ - الكرم :

والأمر فيه واضح ؛ لأننا لم نر أمة من الأمم ترى إكرام الضيف واجبًا . ومساواة الجار فريضة إلا أمة العرب .

يتساوى في ذلك : أغنياؤهم ، وفقراؤهم ، وأمر حاتم الذى جاد بنفسه ، وفك الأسير مشهور .

ولم نسمع مثل ذلك في الأمم الأخرى . .

فأما الفرس ، والروم فالبخل عندهم غالب ، وحب الغنى مركز في طباعهم ، ليس عندهم في ذلك كبير عار ، ولا يلحقون أنفسهم به منقصة .

٢ - الوَفاء :

الوفاء : دينهم ، الذى يرونه لازما ، ومذهبهم الذى كانوا يعتقدونه حتما . .

فقد حَمَوْا النزيل ، وتمسكوا بحق الجار ، وقد أريقت دماء في حق الجار ، فكم قتل الرجل منهم في ذلك أقرب الناس إليه نسبا ، وأمسهم به رَحِمًا . . وكم من حرب عظيمة جرها ضيم نزيل - كما سيأتي إن شاء الله تعالى - .

وقد رضى السموأل بقتل ابنه ، دون الدروع ، التى كانت وديعة عنده وأبو داود الإيادى في قوَد ولده بجاره . .

وكل ذلك ، وغيره مشهور ، معروف .

---

(١) ص ٥١ ، سر الفصاحة . .

٣ - البأس، والنجدة :

وطاعة الغضب، والحمية، وإدراك الثأر، وطلب الأوتار فحدث عن ذلك، ولا حرج.

وسـيـرهـم فى ذلك مـتـداولـة، لا يخص به الرجل، دون المرأة، ولا الغـلام، دون المسِنّ..

٤ - السُّرَى، والتأويب :

فهم يجوبون القفار، ويقطعون المهامه، والحرب عادتهم، والغارة صناعتهم..

ويدل على ذلك : عزوفهم - فى الأعم الأغلب - على الصناعة.. ويرون رزقهم تحت ظلال سيوفهم...

٥ - الأذهان الصافية، والعقول السليمة :

وذلك، أنهم ليـسـوا أهل تعليم منظم، أو درس مـرتـب، ولا أصـحـاب كـتـب، وصحف...

ومع ذلك : فهم أصحاب الحكم الصائبة، والأمثال السائرة، ونظراتهم فى الحياة تدل على حسن تفكير، وصفاء ذهن..

وإذا نظرت إلى حكمـهـم فى مكارم الأخـلاق غضَّ عندك مـا يروى من حكـمـاء اليونان.

ولما صـقل الوحى السـمـاوى مـعـارفـهم، وصحح عـقـائدهم، وقـوم اتجاهاتهم مما جـعلهم يقـبلون على الكتاب، والسنة، وينبـغون فى مـختلف المعـارف.. وبذلك : صاروا أساتذة الدنيا..

٦ - حُبُّ الذكْرْ، وجميل الثناء :

وذلك : مـعلوم من شيـمـهـم، وعـاداتهم، فقد كانوا يحبّـون الثناء، وينفـرون من الذم، وسوء القول..

وقد كانوا يسعدون - كل السعادة - بشاعر ينبغ، لأنه يشيد بالقبيلة، ويرد عنها ذم أعدائها..

٧ - الغيرة، والأنفة، والصبر، والجلد :

كل ما تقدم مشهور عنهم، حتى نسبوا إلى الفظاظة، وذكروا بالقساوة، وعللوا ذلك :

بكثرة لحم الإبل.. وإدمانهم التقوت بها، وزعموا أن في طباعها قسوة القلوب، ومن عاداتها غلظ الأكباد.

وهذا وَهَمٌ :

لأن معاطفهم تلين إذا تنسموا ريح الصبابة، ودبت في مفاصلهم نشْوَة الهَوَى..

ولا أدل على ذلك : من شعر الغزل، الوارد إلينا منهم.

ودليل ذلك ان بنى عذرة كانوا إذا نظروا عشقوا، وإذا عشقوا ماتوا..

وسئل أحدهم ذلك، فقال : فى نسائنا جمال، وفى رِجَالنَا عِفَّة.

٨ - رعاية الأنساب :

وقد تقدم ذلك....

والقصد :

فإن العرب قد اتسموا بصفات، لم يتصف بها غيرهم إلا فى القليل النادر..

وتلك الصفات كانت ضرورة حياة، وضرورة وجود، وضرورة حفاظ على المأثورات.

وقد توارثوها كابراً عن كابر...

الفصل الثالث
حروب العرب، وبعض أيامهم المشهورة

تمهيـــد:

العـــــرب :

كانوا أمة : لها أخلاقها، وطبائعها، وإلفُها، واتجاهاتها، ولها موروثاتها، ومعتقداتها، . . .

وكانوا يعيشون قبائل متفرقة، وشعوبًا متناثرة، يعيشون فى خصام، وتنافر، وكل قبيلة تعتز بشرفها، وكرامتها، وعصبيتها . .

وكانوا يتنافسون على مواقع الكلأ، والماء، ويغتصبونه بالرماح، والسيوف، وكثيرا ما كانت تنشب الحروب من أجل ذلك . . ويبقى أثرها طويلا . ويَجْنُون منها الحَصَاد المرّ . .

وكانوا يعيشون فى ظلال الفوضى، والفوضى إلفهم، وما طبعوا عليه . . كما قيل :

ولذيذُ الحيـاة مـا كَـانَ فَـوْضَى ... لَيْسَ فيـه مُسَيْطِرٌ، أو أمِـيـرُ

والحرب مألوفة لديهم، ومن أهم أسبابها :

- التنازع حول الرياسة .
- التنازع على أماكن المياه، والعشب .
- الاعتزاز بالعصبية، والانتصار لها .
- الذود عن الشرف، والكرامة، والمحافظة عليهما .

- الأخذ بالثأر.
- حماية الجار.
- مساعدة الحليف.
- الدفاع عن الملك، والتعصب لذى السلطان.
- المفاخرات، والمنافرات..

- وأهم الأسباب:

- الفقر، الذائع بينهم، الذى كان يؤدى إلى أعمال السلب، والنهب، والتسلط، والعدوان....
- نفس العربى، وما فطرت عليه من الإباء، والشمم، والشجاعة، والفروسية.

كل ذلك: كان يجعل الحرب مألوفة لدى العربى، قريبة من طباعه، محبوبة عنده فى كثير من الأحيان:

فالحرب تحقق للمحارب:

- الغنيمة التى يحوزها، وفيها الغنى، بعد حياة الشظف، والكفاف.
- الشهرة، والعظمة، فى مجتمعات تقدس القسوة، وتعتز بالأقوياء.. ولم تقتصر إغارتهم على أعدائهم، فإن لم يجدوا أعداء أغاروا على الأقرباء...

وفى ذلك يقول الشاعر العربى، معتزا بأفراسه التى هى سبب النصر، وحرز الغنيمة:

أَغَرْنَ مِنَ الضبَاب على حِـــلاَلٍ ... وضبَّةَ إِنَّهُ مَنْ حَانَ حَانَـــا
وأحْيَانا عَلَى بكـــرٍ أخينَـــا ... إذَا ما لم نجد إلاَّ أخَانَـــا

والبيتان يمثلان الحياة العربية أدقّ تمثيل...

وليس فى حياة العربى جانب ليِّن، يسعد به، ويحب البقاء من أجله، وإنما الحياة قاسية، والماء عزيز، وطلبه عسير، ومحفوف بالمخاطر، والعشب للأنعام كذلك..

وليس يعيش العربى فى مأمن من الغارة عليه، أو إغارته على غيره.. فهو : إمَّا قاتل، واتر ينتظر القصاص منه، وأخذ الثأر منه، وإما موتور يترقب الفرصة للأخذ بالثأر، والانتقام..

وأهل البوادى : يعيشون فى خيام، ومعهم أنعامهم حول منابت العشب، ونزول المطر..

والعربى قد يكون أول الليل مجتمع الشمل فى أسرة، وأولاد، وأنعام، وجيران، ثم يبيتهم أو يصبحهم مغير، فيأخذ كل شىء، ويصبح العربى دون مأوى، أو أسرة، أو أنعام...

ثم يأخذ فى الإعداد لغارة على من أغار عليه، يستنقذ ما يمكن استنقاذه من مال منهوب، ومن ذرية مأسورة...

وإنك لتتخيل العربى لا ينام مستغرقا، مخافة الإغارة عليه، وبين يقظته من سنته، وركوب فرسه إلا ثوان، معدودة، فنومه كنوم الذئب.

ينام بإحْدَى مقلتيه، ويتَّقى بأخرى الأعَادِى، فهو يقْظَان، نَائم

والحياة ليست محببة إليهم حتى يحرصوا عليها، وإنما يبذلونها لأى أمر..

وهذه الحياة، التى لا أمن فيها حفلت بحروب كثيرة، وخلفت أياما كان يطلق عليها «أيَّام العَرب»[1]

---

(١) من أراد المزيد فى أيام العرب فليرجع إلى :

٦/ ١٧ إلى ١١٨ العقد الفريد، لابن عبد ربه.

والأغانى جـ ١٩، والجزء الأول من تاريخ ابن الأثير.

وهذه الأيام كثيرة جدا.. يطول حَصْرُها، بما يخرج الكتاب عن هدفه الأصيل..

وعلينا أن نأخذ أشهر هذه الأيام، لما لها من أثر بالغ فى حياة العرب، وفى الأخذ بالثأر، فنقول :

أيَّـامُ العَــرَب

وهى أيام وقعت فيها حروب مُدَمِّرَة، وأطلقت ألسنة الشعراء..

- يتغنون بالنصر.
- أو يطلبون الأخذ بالثأر..

وأفادت اللغة والأدب بالشيء الكثير..

أشهر هذه الأيام

ونتناول - بعون الله تعالى، ومشيئته أشهرها، مما له علاقة بالثأر وثيقة - فى إيجاز - والذى سيأتى تفصيل لبعضها فى الفصل الآتى - إن شاء الله تعالى.

١ - حَرْبُ دَاحِس والغَبْرَاء :

وكانت بين عبْس، وذُبْيَان من مُضَر..

وسبب هذه الحرب :

أن قيس بن زهير، وحمل بن بدر: تراهنا على فرسيهما : داحس، والغبراء، أيهما يكون له السبق.

وكان داحس لقيس بن زهير.

وكانت الغبراء لحَمَل بن بدر.

وجعلا الرهان مائة بعير، وجعلا منتهى الغاية مائة غلوة.

والغلوة : توازى أربعمائة ذراع.

ثم قادوهما إلى رأس الميدان، بعد أن أضمروهما أربعين ليلة..

وستأتى تكملة لذلك - بعون الله تعالى، وفتحه -

٢ - يَوْم المرَيْقب:

وكان لعبْس على ذُبْيَان

وفيه قتل عنترة ضمضمًا المرىّ...

وقال عنترة فى مذهبته :

ولقَدْ خشيتُ بأن أمُوت، ولم تَــــدُر   للحرب دائرةٌ على ابنى ضَمْضَــم

الشاتمى عِرْضــى، ولم أشتُمْهُمَــا   والناذرين إذا لَقيتُهُمَا دَمِـــى

إنْ يفْعَلاَ فلقد تركب أبَاهُمَــا   جَزَرَ السِّباع، وكل نسر قشعــم

٣ - يوم ذى حُسًا للذبيان على عبس.

٤ - يوم الهباءة لعبس على ذبيان..

وفيه قتل حمل بن بدر، وأخوه حذيفة..

وقال قيس، يرثى حذيفة، وأخاه.

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بن بَــدْرِ   وسَيْفى من حُذَيفة قد شــفانى

فإن أكُ قد بردْتُ بهم غَلِيــلى   فلم أقْطَع بهم إلاَّ بنَــانِى

٥ - يوم الفروق :

وقد امتد لهب الحرب، وطال أمدها، سعى الرجلان العظيمان: الحارث بن عوف، وهَرِم بين سِنَان، المريَّان فى الصلح، وتحملا ديات القتلى..

ونرى مديح هذا الصنيع العظيم فى معلقة زهير بن أبى سلمى، يخاطب الرجلين:

لعَمْرِى: لنعمَ السيدانِ وُجِدْتُمَـــا على كلِّ حالٍ من سَحِيلٍ، ومبــــرم
تداركتما عبْسًا، وذُبْيَانَ بعدَمَـــا تفَانوا، ودقُّوا بينهم عِطرَ منشِــمِ

٦ - حرب البسوس

وكانت بين بكر، وتغلب بن ربيعة :

وسنتناول هذه الحرب ببعض التفصيل - إن شاء الله تعالى - فى الفصل الآتى :

٧ - يوم النُّهَى :

ماء : يقال له النهى، كانت بنو شيبان نازلة عليه.

ورئيس تغلب المهلهل، ورئيس شيبان : الحارث بن مرة.

وهذا اليوم أول وقفة كانت بين القبيلتين

٨ - يوم عنيزة :

وفيه ظفر التغلبيون، ثم كانت معارك كثيرة، وكانت الدائرة لبنى تغلب وكانت الشوكة فى شيبان...

ومن شعر مهلهل : أخى كليب :

أليلَتنَا بذى حُسَم أنيــــــرى إذَا أنْت انقضيت، فلا تمـــــورى
وإنْ يكَ بالذنائب طَال ليـــــلى فقد أبْكى منَ الليْلِ القَصيـــــــر
فلو نُبش المقابر عـــن كليْـــب لأخبر بالذنائب أى زيـــــــــر
كأنا غــدوةً، وبنى أبينَـــــــا بجنْبِ عنَيْزَة رَحَيا يُديـــــــرِ

٩ - يوم فِصَّة :

وكانت النصرة لبنى بكر على كليب فيه...

وعاش مهلهل باليمن، ومات أسيراً بنواحى هجر فى يد عمرو بن مالك البكرى..

١٠ - يوم بُعَاث بين الأوس، والخزرج :

وبعاث : اسم موضع فى ديار بنى قريظة اليهود.

وكان بنو النضير ، وبنو قريظة يساعدون الأوس على الخزرج...

والتقت الأوس، وحلفاؤها من اليهود فى بُعَاث.

وعلى رأس الأوس : حضير الكتائب.

وعلى رأس الخزرج عمرو بن النعمان.

فهزمت الخزرج، ومات حضير، بسبب جراح أصابته..

١١ - يوم حَلِيمة : بين المناذرة، والغسانيين..

وقد كانت الحروب بين ملوك الحيرة، وملوك غسَّان، تبعا للخصومات، التى كانت بين الفرس، والروم.

ومنها «يوم حليمة» - وقد تقدم لذلك ذكر.

١٢ - يوم الزُّوَيْرَين :

بين ربيعة، ومضر

وسببه : اعتداء بكر على أرض تميم، وعيشهم ببلادهم، وهتكهم عوراتهم فتحمس التميمون، والتقوا ببنى بكر.

ودارت الدائرة على بنى تميم.

١٣ - يوم شِعْب جَبَلَة :

لعامر، وعبس على ذبيان، وتميم.

وهو أعظم أيام العرب، وأكثرها جميعا.

وقد كان ذلك اليوم قبل الإسلام بنحو الأربعين عاما.

١٤ - يوم خَزَازَى :

بين نزار، واليمن :

- ولى أبرهة الأشرم زهير بن جناب الكلبى على العدنانيين.

- فامتنعوا عن دفع الإتاوة.

- وقع بعض العدنانيين أسرى عنده . فوفد إليه وفـد مـن وجـوه القـوم من معد ليطلق سراحهم.

- فأطلق سراحهم، واحتجز بعض أعضاء الوفد...

- ثارت معد. وقادهم كليب إلى خزازى: جبل بين البصرة، ومكة فأوقد عليه النار.

- وأقبلت مذجح إلى خزازى، فأقتتل الفريقان قتالا شديداً...

هزمت مذجح، وفى ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ونحنُ غـــداةَ أوقـــدَ فى خَـــزَازٍ رَفَـــدنا فَـــوْق رِفْـــدِ الرافـــدِينَا

١٥ - أيام الفِجَار :

وهى أربعة أيام...

وكانت قريش، ومعها بكر على هوازن فى هذه الأيام.

وأهم هذه الأيام: يوم الفجار الرابع.

وسبب اشتعال الحرب فيه : أن البراض الكنانى قتل عروة الرَّحَّال، الذى أجاز لطيمة النعمان بن المنذر[1].

وكان عروة سيدا ، شجاعا، شريفا، والبراض خليعا ماجنا، فثارت الحرب.

---

(١) اللطيمة : عير تحمل تجارة المنذر إلى أسواق العرب؛ لتباع فيها..

وسميت حرب الفجار، لأنها حدثت فى الأشهر الحرم فى ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم، ورجب.

وقد كان القتال فيها محرمًا.

وقد حضر النبى (ﷺ) هذه الحرب، واشترك فيها مع قومه، وسنه أربع عشرة سنة.

وكا يَنْبُل على أعمامـــه.... وقد انتصروا ببركتـــه..

١٦ - يوم ذى قار:

بين الفرس، والعرب.

وقد كان عدى بن زيد العِبادىّ أستاذًا للنعمان بن المنذر، ثم التحق عدى بخدمة أنو شروان...

فمات المنذر، فأشار على كسرى بتولية النعمان على الحيرة مكان أبيه.

ثم وشى خصوم عدى به إلى النعمان، فأرسل إليه يطلب أن يزوره فى الحيرة، فقدم عدى عليه فأمر بحسبه.

فاستعطفه عدى بقوله :

أبْلغ النُّعمَانَ عَنـــى مالـــــكًا ... أنه قد طَالَ حَبْسى، وانْتظَـــــارِى

لو بغَير الماءِ حلْقِـــى شَـــــرِقٌ ... كنت كالغَصَّانِ بالماء اعْتَصَـــــارِى

فأطلق سراحه النعمان

ثم خاف منه فقتله.

واحتل زيد مكان أبيه عدىّ فى خدمة كسرى.

ثم أخذ زيد يحرض كسرى على النعمان، فاستدعاه من الحيرة، فلجأ إلى هانئ

ابن قبيصة مستجيراً به، ووضع عنده أمواله، وسلاحه، وبنته حرقة، وذهب إلى كسرى، فحبسه، ومات في السجن.

ولى مكانه على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي، وأمره أن يأخذ أمانات النعمان من هانئ، فطلبها منه، فرفض.

ثار كسرى، وانتظر على بنى شيبان حتى أنزلهم الحر «بذى قار» وأرسل إليهم جيشا، كثيفا، يحاربهم.

ولكن بنى شيبان، وأحلافهم من العرب صمدوا لجيش الفرس، وهزموه هزيمة منكرة، وانتصر العرب انتصاراً، مؤزراً.

وخطب هانئ خطبته المشهورة، وأولها : يا معشر بكر: هالك معذور خير من ناج غَرُوُر[1]

وكان هذا اليوم بعد بعثة الرسول العظيم (ﷺ) وقال فيه: «إنَّ هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبى نُصِرُوا.»

وقد صدق الصادق الأمين، وقد حقق صاحباه النصر - كما ذكرنا.. وقد افتخر الشعراء بهذا النصر العظيم...

فمن ذلك:

يقول الأعشى :

لو أنَّ كلَّ معدٌ كانَ شارَكَنا في يَوْمِ ذى قَار: ما أَخْطَاهم الشَّرَفُ

(١) انظرها فى ١ / ١٦٩ الأمالى.. لأبى على القالى.

ويقول عُدَيْل العجليُّ :

ما أوقد الناسُ من نارٍ لمكرمَــــــةٍ إلا اصْطَلَيْنا، وكنا مُوقدى النَّــــارِ

وما يعدُّون منْ يومٍ سَمِعتُ بِــــهِ للنَّاسِ أفْضَل من يومٍ بذِى قــــارِ

ويقول أبو تمام :

وأنتم بذِى قار أمالَتْ سُيُوفُكُــم عرُوشَ الَّذين اسْتَرهَشُوا قَوسَ حَاجِب

ونكتفى من أيام العرب بما قدمناه منها

<u>ونأخذ منها مايلى :</u>

- حرصهم البالغ على الأخذ بالثأر..
- تحالف بعض القبائل مع البعض الآخر ؛ لنيل الثأر..
- الفوضى فيه - كما سيأتى فى الفصل التالى..
- التعطش للدماء، والإسراف فيها...
- وغير ذلك مما سنفصله - إن شاء الله تعالى - فى الفصل الآتى :

الفَصلُ الرَّابع

فوضى الجاهلية فى الأخذ بالثأر

تمهيـــد:

- حياة العرب حَيَاةُ كرّ، وفَر، وحَرْب، وطِعَان، ونِزَال..
- وأسباب الحرب كثيرة مشهورة، ألممنا - فيما تقدم - ببعضها..
- وهذه الحروب جعلتهم يتعطشون للدماء، وللأخذ بالثأر، ويبذلون فى سبيل ذلك النفس، والنفيس..
- والثأر نار، تتأجج فى قلوب الموتورين، حتى ينالوا ثأرهم، فتخمد نار الأحقاد عندهم.
- وقد تخيلوا لشدَّة تعطشهم للأخذ بالثأر ما أطلقوا عليه الهامة..

والهامة - فى خيالهم طائر يشبه البومة تخرج من رأس المقتول، وهذه الهامة تصيح بالليل متعطشة قائلة: «اسقُونى من دَمِ قاتلى»:

ولا تسكت هذه الهامة، حتى يُثْأر للقتيل..

وفى ذلك يقول ذُو الإصبع العَدْوَانىُّ، يهدّد ابن عم له،...

يَا عَمْرُو إلاَّ تَدَعْ شَتْمِى، ومنقَصَتِى ... أَضْرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقُونى

لاَه ابنُ عمِّك، لاَ أَفْضَلْتَ فى حَسَبِ ... عنِّى، ولا أَنْتَ ديَّانى، فتخذونــى

والمراد:

أضربك حتى تقتل، وتصيح الهامة قائلة: اسقونى من دم قاتلى. وقد كان هذا اعتقاداً سائداً عندهم.

ولما جاء الإسلام الحنيف قطع هذه العادة، وبين أنها خرافة، لا أساس لها من الصحة..

كما ندَّد بعادات غيرها في حديث الصادق الأمين حيث قال: (ﷺ) «لا عَدْوَى، ولا هَامَةَ، ولا طِيَرةَ، ولا صَفَر، وفِرَّ من المجذُوم، كما تفر من الأَسَدِ»[1]

ويقول شاعرهم:

كيْ تجنَحُون إلى سِلْمٍ، وما ثُئرَتْ قتلاكم، ولَظَى الهيجاءِ تَضْطَرِمُ[2]

يريد هذا القائل أن يقول:

كيْفَ تميلون إلى سَلاَمٍ، ولم تأخُذُوا بثأر قتلاكم، ونار الحرب ما زالت مشتعلة؟ «فكَيْ» في البيت بمعنى «كيف» الاستفهامية...[3]

وقد غيَّر القرآن الكريم هذا الاتجاه، حيث قال تعالى:

﴿ وإن جنحوا للسلم، فاجنح لها، وتوكل على الله.. ﴾.

وكان من عادتهم أنهم إذا أرادوا الثأر امتنعوا عن الطيبات، ومن ذلك: البعد عن اللهو بالنساء، والخمر، والميسر،...

وفي ذلك يقول شاعرهم، مفتخراً بعزم قومه على ملاحقة الواتر، والأخذ بالثأر:

قـومٌ إذَا حَـارَبُوا شَـدُّوا مـآزِرَهُم دُونَ النِّسَـاءِ، ولو بَاتَتْ بأطْهـارِ

والمعنى واضح كل الوضوح.

---

(١) ص ١٣٣، صفوة صحيح البخاري.

(٢) ٤ / ١١٠ شرح الهواري للألفية.

ويقول يزيد بن الصَّيعق :

فَسَاغَ لى الشرابُ، وكنْتُ قَبْلاً   أكَادُ أغَصّ بالماءِ الحَميم

أى: طابت لى الحياة، وساغ لى الشراب، بعد انتصارى، وشفاء نفسى ممّن ظلمنى، وكنت قبل ذلك أكاد أغص بالماء البارد، الذى من شأنه أن يزيل الغصّة : اعتراض اللقمة، ونحوها فى الحلق..

فالقصد :

يسأل العاقل : أى حياة هذه؟

حياة ليس فيها أمن على نفس، أو مال، أو زوجة، أو عيال..

حياة فيها العربى لا ينام مستغرقا، ولا يطعم هانئاً، وإنما هو منغَّص الحياة : فهو إما واترٌ، يترقب الانتقام منه، وأخذ الثأر منه، وإما موتور يتطلع إلى الفرصة السانحة، لينال ثأره، ويصل إلى شفاء نفسه، المتعطشة لذلك..

وهو إما عادٍ على غيره، بغية الغنيمة، وإحراز المال، وسبى الذَّرَارىّ، وإما معدوٌّ عليه، ويصبح مجرداً من كلّ شىء..

وعندئذ يعد العدة لملاحقة عَدو عدا عليه، لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه وهكذا :

فهى حياة مضطربة، خير منها موت كريم، يريح من متاعب هذه الحياة...

والعادِى على غيره، لا يفرق بين من يعدو عليهم...

فقد جاء فى السير، والأخبار والأحاديث أن مغيرين اعتدوا على إبل الرسول الأمين، وسلط الله على المغيرين سيدنا سَلَمة بن الأكْوَع. وقد زاد الله تعالى فى قدراته فى ناحيتين :

- جهارة الصوت.
- سرعة العدو، بحيث يسبق الريح.

وقد استخدم القدرتين فى إنقاذ إبل الرسول العظيم...
قائلا : «يا صَبَاحَاه» فأسمع ما بين لابتى المدينة، وخرج الناس يستطلعون الخبر.

كما استخدم سرعة الجرى، وكانوا إذا قاربهم ألقوا إليه ببعض الرماح، وبعض الإبل، فكان يجمعها، ثم يعدو، ويلاحق العادين...

حتى استنقذ بذلك معظم الإبل، وكان يقول لهم : اليوم يوم الرُّضَّع، وأنا ابن الأكوع»

وعندما خرج الناس: استجابة للصريخ، وكادوا يحيطون بالعادين قال الرسول الأمين قولته الرَّحيمة : «ملكتُم، فأسْجِحُوا» :
وتركوا للعادين بعض الإبل...

ولعلنا- بهذا التمهيد، الذى طال قليلا قد ألقينا بعض الأضواء على ما سنتحدث عنه...

والأمل :
أن يعى القارئ الكريم ما تموج به حياة العرب من خوف، وعدم استقرار، وأمن...

وننتقل بعد ذلك إلى شيء من التفصيل فى المواقع المهمة، والوقائع التى أثرت تأثيراً كبيراً فى حدوث القتل، والأخذ بالثأر....

ومرجعنا فى هذه الأيام والوقائع كتب الأمثال، والمأثور من الشعر، وكتب الأدب. وقد جاء فى مجمع الأمثال للميدانى :

«أَشْأَمُ مِنَ البَسُوسِ»[1]

---

(١) ١/٣٨٨ مجمع الأمثال...

وهى «بسوس بنت منقذ التميمية، خالة جسَّاس بن مُرَّة بن ذهل الشيبانى، قاتل «كُلَيْب»..

وقد تناول صاحب العقد الفريد الأحداث تناولا طيبا..
وإنَّا لنلمم بهذا الكتاب، نأخذ منه ما يجلى الحقيقة وغيره - فى إيجاز - ما أمكن ذلك - ونصل من العرض إلى المقصود، الأهم...

قال ابن عبد ربه :
حَرْبُ البَسُوس
- وهى : حرب بَكْر، وتَغْلب، ابنى وَائل
- وكان كليب أحد الثلاثة الذين اجتمعت عليهم مَعد...
- وكليب بن ربيعة، وهو الذى يقال فيه : «أعزُّ من كليب وائل»
- وقاد معدًّا كلها يوم خَزَازَى، ففض جموع اليمن، وهزمهم، فاجتمعت عليه معد كلها، وجعلوا له قَسْمَ الملك، وتاجه، ونجيبته، وطاعته، فغبر بذلك حينًا من دَهْرِه.

ثم دخله زهو شديد، وبغى على قومه، لما هو فيه من عزة، وانقياد معدٍّ له.

- وبلغ من بغيه : أنه كان يحمى مواقع السحاب، فلا يرعى حماه، ويُجير على الدهر، فلا تخفر ذمته، ويقول : وحش أرض كذا فى جوارِى، فلا يُهَاج، ولا تورد إبل أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره حتى قالت العرب :

«أعز من كُلَيب وائل»[1]
وقد تزوج كليب من جَليلَة بنت مرة بن ذُهْل بن شيبان، وأخوها جسَّاس بن مرة.

---
(١) ١ /٥٠٣ مجمع الأمثال ....

وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة، وكانت نازلة فى بنى شيبان، مجاورة لجسَّاس، وكان لها ناقة، يقال لها : ترَاب

- مرَّت إبلُ لكليب بتراب ناقة البسوس، وهى معقولة بفناء بيتها، فى جوار جساس بن مرة.

فلما رأت سراب الإبل نازعت عقالها حتى قطعته، وتبعت الإبل، واختلطت بها، حتى انتهت إلى كليب، وهو على الحوض، معه قوس، وكنانة، فلما رآها أنكرها، فاشتد عليها بسهم فخرم ضرعها.

فنفرت الناقة، وهى ترغو، فلما رأتها البسوس قذفَتْ خمارَهَا عن رأسها، وصاحت : «واذُلاَّه»! وَاجَارَاهُ!، وخرجت.

ويرى الميدانى : أن الناقة كانت لجار من جَرم، يقال له سعد بن شمس... كما يروى شعر البسوس فى ذلك :

لعمرُك : لو أَصْبَحت فى دار منْقذٍ	لما ضيمَ سَعْدٌ، وهُوَ جار لأبْيَـــاتى
ولكنَّنى أَصْبَحتُ فى دَارِ غُرْبَـــةٍ	مَتَى يَعْد فيها الذئبُ يَعْدُ عَلَى شَاتِى
فيا سعدُ : لا تغرُرْ بنفسك، وارتحل	فإنك فىَ قوم عَنِ الجارِ أمْـــــوَاتِ
ودُونك أَذْوَادى، فإنى عنهــــم	لراحلةٌ لا يفقـــــدونى بنيَّانى[1]

فلما سمع جساس قولها سكَّنها، وقال لها :
أيتها المرأةُ ليقتلنَّ غداً جملٌ هو أعظم عَقْراً من ناقة جارِك...

- مقتل كليب :
أخذ جساس يتوقع غرَّةَ كُلَيْب، حتى خرج كليب، لا يخاف شيئًا، وكان إذا خرج تباعد عن الحى، فبلغ جساسًا خروجه..

(١) مجمع الأمثال ١ / ٣٨٩، وانظر ٦ / ٧٠ إلى ٧٨ العقد الفريد.

خرج جساس على فرسه، وأخذ رُمْحَه، واتبعه عمرو بن الحارث، فلم يدركه، حتى طعَن كليبًا، وَدَقَّ صُلْبَه، ثم وقف عليه.

فـقــال : يا جسـاس: أغثنى بشربـة ماء، فقال جَسَّاس: تركت الماء وراءك، وانصرف عنه.

ولحقه عمرو، فقال: يا عَمْرو: أغثنى بشرْبة، فنزل إليه، فأجهز عليه.

وقد ضرب به المثل : فقيل :

المُسْتجيرُ بعَمْرو عند كُرْبَتِه ... كالمُسْتجير منَ الرَّمْضَاء بالنَّارِ[1]

بين جسّاس، وأبيه :

أخبر جسَّاسٌ أبَاهَ الخبر اليقين، وهو أنه قَتَل كليبًا.

قال أبوه: بئْس لعمر الله ما جنيتَ على قومك، فقال جسَّاس:

تأهبْ عنْك أهبة ذى امتنَـــاعِ ... فإن الأمْر جل عن التَّلاَحِـــى

فإنّى قَدْ جَنْيت عليْـكَ حربًـــا ... تغصّ الشيخ بالماء القُـــرَاحِ

فأجابه أبوه :

فإن تك قد جنيتَ عليَّ حَرْبًـــا ... فَلاَ وَانٍ، وَلا رَثّ السِّـــلاَحِ

سألبَسُ ثَوْبَهـا، وأذبُّ عنّـــى ... بها يَوْمَ المذلّة، والفضَـــاحِ[2]

وممّا رواه الميدانى :

أن قوم جساس قوّضوا الأبنية، وجمعوا النعم، والخيول، وأزمعوا الرحيل.

وكان همام بن مرة، أخو جسَّاس نديمًا لمهلهل بن ربيعة، أخى كليب، فبعثوا جارية لهم إلى همام، لتعلمه الخبر، وأمروها أن تسرهُ عن مهلهل، فأتتهما الجارية،

---

(١) انظر ١ / ٣٨٩ مجمع الأمثال...

(٢) ١ / ٣٨٩ مجمع الأمثال.

وهما على شرابهما، فسارَّت همَّامًا بالذى كان من الأمر.

فلما رأى مهلهل ذلك سأل همَّامًا عمَّا قالت الجارية، وكان بينهما عهدٌ ألاَّ يكتم أحدُهُما صَاحبَه شيئًا.

فقال همام : أخبرتنى: أنَّ أخى قتل أخَاكَ.

قال مهلهل :

أخوك أضْيَق استًا منْ ذَلك.

وسكت همام، وأقبلا على شرابهما، فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن، وهمام يشرب شرب الخائف.

فلم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلا، فانسلَّ همامٌ..

فرأى قومه، وقد تحملوا، فتحمل معهم..

بين مهَلْهِل، وبنى شَيْبَان :

«لما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان، حتى نزلوا بماء يقال له «النِّهْى» وتشمر المهلهل، أخو كليب، واسمه : عدىّ بن ربيعة.

وإنما قيل له المهلهل: لأنه أول من هَلْهَلَ الشعر، أى : رَقَّقَه، واستعد لحرب بكر، وترك النساء، والغزل، وحرم القمار، والشراب، وجمع إليه قومه.

فأرسل رجلاً منهم إلى بنى شيبان يُعذر إليهم فيما وقع من الأمر، فأتوا مرة بن ذُهْل، بن شيبان - وهو فى نادى قومه - .

فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبًا بناب من الإبل، فقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة، وإنا كرهنا العجلة عليكم، دون الإعذار إليكم.

ونحن نعرض عليكم خلالا أربعًا، لكم فيها مخرج، ولنا مقنع.

فقال مرة :

وماهى ؟ قال :

- تُحْيِى لنا كليْبًا .
- أو تدفع إلينا جسَّاسًا قاتله ، فنقتله به .
- أو همَّامًا : فإنه كفءٌ له .
- أو تمكننا من نفسك ، فإن فيك وفاء من دمه .

فقال:

- أما إحْيَائى كليبًا ، فهذا ما لايكونُ .
- وأما جسَّاس ، فإنه غلام طعَن طعنةً على عَجَل ، ثم ركب فرسه ، فلا أدرى أىّ البلاد احتوى عليه .
- وأما همام : فإنه أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه إلى ، فأدفعه إليكم ، يقتل بجريرة غيره .
- وأما أنا : فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غدًا ، فأكون أول قتيل فيها . فما أتعجل من الموت ؟

ولكن لكم عندى خصلتان:

- أما إحداهما : فهؤلاء بنى الباقون ، فعلِّقوا فى عنق أيهم شئتم ، فانطلقوا به إلى رحالكم ، فاذبحوه ذبح الجزور .
- وإلا فألْف ناقةٍ ، سوْدَاء المقل أتِم لكم بها كفيلاً من بنى وائل .

فغضب القوم ، وقالوا : لقد أسأت : تبذل لنا ولدك ، وتسومنا اللبَن من دَم كليبٍ[1]

---

(١) ٦/ ٧١ ، ٧٢ العقد الفريد .

بين جَليلة: زوجة كليب، وأخت كُليْب :

حينما قتل كليب، واجتمعت النساء في المأتم..

قالت أخت كليب لجليلة : قومي عن مأتمنا، فأنت أخت قاتلنا، وشقيقة واترنا، فخرجت جليلة تجر أذيالها، وشُيِّعَتْ بقوارص من القول من أخت كليب.

انشات جليلة تقول :

يا بنة الأقوام: إنْ شئْت فَــــلاَ	تعْجَلي باللَّوم حتى تَسْـــــألي
فإذا أنت تبيَّنْت الَّـــــــذي	يُوجُب اللَّوْمَ، فلُومي، واعْــذُلي
إن تكن أختُ امْـريءٍ ليمتْ علَى	جزع منها عليـه فَافْــــــعَلي
جلَّ عندي فعلُ جســـــاسٍ فيَا	حَسرتَا عما انجلَتْ، أوْ تَنْجـــلي
فعْل جسَّاسٍ علَى ضَنـــي بِـــه	قاطعٌ ظَهْري، ومُدْنٍ أجَــــــلي
....	....
إنَّني قاتلةٌ مقتولــــــــــــةٌ	فلعلُّ اللـــه أنْ يرتَــــــاحَ لي
يا قتيلاً، قوَّض الدهرُ بـــــــه	سقْـفَ بيتيْ جميعًا منْ عَـــــلِ
ورَمَاني فقدُه عَنْ كثَــــــــب	رَميَة المصمـــي به المُسْتأصِـــلِ
هَدَمَ البيت الذي اسْتحدثْتُــــهُ	وبدَا في هَــدْمِ بيتـــي الأوَّلِ
يا نسَائي دونكن اليوم قــــدْ	خصَّني الدهـــرُ بــرُزْءٍ مُعْضِـل
مَسَّني فقدُ كليب بلظـــــــي	من ورائــي، ولظـى مستقبـــل
دركُ الثائر شافيه، وفــــــي	دركي ثــأري ثكـل المثكـــــل

بين جليلة، وابيها :

لحقت جليلة : زوجة كليب بأبيها، وقومها...

ودارت بينها، وبين أبيهـا مناقشات في شأن الموقف الأليم، وما يمكن أن يسفر عنه، وأن يترتب عليه...

فقال لها أبوها : أو يكفّ ذلك كرم الصفح ، وإعلاء الدّيات ؟
فقالت جليلة لأبيها : أُمْنية مخدُوعٍ، وَرَبِّ الكَعْبَةِ.
أبا لبُدْنِ تَدَعُ لك وائلُ دَمَ ربِّها ؟[١]

شبح الحرب يخيم على الموقف

– خفت صوت العقل ، حينما اشترط مهلهل شروطا تعجيزية لمنع نزيف الدم ، ولكأنه كان يضمر فى نفسه الحرب ، ويظهر غير ما يبطن ، ويعرض ويختلق أموراً تبرر ما يريد .

كما اختفى صوت العقل – أيضا – حينما عرض أبو جسّاس أمريه .

وانفض السامر ، وكشرت الحرب عن أنيابها ، حاملة معها الدمار ، والخراب والتشريد ، وقتل الرجال ، وترميل النساء ، ويتم الأطفال ، وضياع الثروات . وتعطيل الضرب فى الأرض ، لاكتساب الرزق ، . . .

الحرب بين القبيلتين ، الأخوين :

وقعت الحرب ، التى قادها مهلهل ، يحمل نار الثأر ، المتأججة فى صدره ، ويصمم على الانتقام ، والإسراف فى القتل . . حتى تنطفئ نار غله ، ويبرد قلبه . .
وقد تمزقت الأحياء لهذه الحرب .

ويقول صاحب العقد الفريد :

« . . ودعت تغلب النمر بن قاسط فانضمت إليها ، وصاروا يدا معهم على بكر ، ولحقت بهم عقيلة بن قاسط ، واعتزلت قبائل بكر بن وائل ، وكرهوا مجامعة بنى شيبان ، ومساعدتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جساسٍ كليبًا بناب من

---

(١) انظر إلى الموضوع متكاملا فى ٥ / ٢١٤ ، ٢١٥ نهاية الأرب فى فنون الأدب .

الإبل، فظعنت لجيم عنهم، وكفَّتْ يشكر عن نصرتهم.

وانقبض الحارث بن عباد فى أهل بيته، وهو أبو بجير، وفارس النعامة[1]

المواقع التى التقوا فيها

التقوا بماء، يقال له : النّهى، كانت بنو شيبان نازلة عليه، ورئيس تغلب المهلهل، ورئيس شيبان الحارث بن مرة.

فكانت الدائرة لبنى تغلب، وكانت الشوكة فى شيبان، واستمر القتل فيهم إلا أنه لم يقتل فى ذلك اليوم أحد من بنى مرُة[2].

ثم التقوا ، يوم الذُّنائب.

وخلاصة القول نسوقها فيما يلى :

- يوم الذنائب أعظم وقعة لهم.
- ظفرت بنو تغلب. وقتلت بكراً مقتلة عظيمة.
- فى الذنائب : قتل :

شراحيل بن همَّام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وهو جد معن بن زائدة.

وقتل عتاب الحارث بن شريك.

وقتل الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان.

وقتل عمرو بن سَدوس بن شيبان.

وقتل جميل بن مالك بن تيم الله، وعبد الله بن مالك بن تيم الله.

وقتل سعد بن ضبيعة بن قيس، وتميم بن قيس بن ثعلبة..

---

(١) ٦ / ٧٢ العقد الفريد.

(٢) ٦ / ٧٤ العقد الفريد.

- وهؤلاء من أصيب من رؤساء بكر يوم الذنائب[١]
ثم التقوا : يَوْمَ وَارِدَات :

فى هذا اليوم :

« .. ظفرت بنو تغلب، واستمر القتل فى بنى بكر .

فيومئذ : قتل الشعثمان شعثم، وعبد شمس، ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة ..

- وسيار بن الحارث بن سيار .

- وفيه قتل همّام بن مرة بن ذهل بن شيبان، أخو جساس لأمه، وأبيه .

فمر به مهلهل مقتولا، فقال : والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز علىَّ فقدا منك !، وقتله ناشرة، وكان همام ربَّاه، وكفله، كما ربَّى حذيفة بن بدر قرواشا، فقتله يوم الهباءة[٢] » .

ثم التقوا فى الأيام الآتية :

يوم عنيزة .

ويوم الحنو .

ويوم عُوَيْرِضَات .

ويوم أنيق

ويوم ضرمة .

ويوم العصيات

وكلها أيام لتغلب على بكر، أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن ليس يستقبلون أمرهم ...

ووصف مهلهل هذه الأيام فى قصيدة طويلة أولها :

---

(١) ٦/٧٤ العقد الفريد .

(٢) ٦/٧٤، ٧٥ العقد الفريد .

أليلتنا بذى حُـسُم أنيـرى ... إذا أنْت انقَـضـيت فـلا تمورى
فـإن يكَ بالذنائب طالَ ليلى فـقـد أبكى مَن الليل القـصـيـر
... ...
فلو نُبش المقـابرُ عن كُليب لأخـبـر بالـذنائب أىّ زِير
... ...

وقال مهلهل يعتز بما أسرف فى الدماء!

أكـثـرتُ قـتل بنى بكر بربُهُمُ حتى بكيتُ ومـا يبكى لهم أحَـدُ
آليتُ بالله: لا أرْضى بقـتـلهم حتى أبهرجَ بكرا أينمـا وُجدُوا

وأبهرج: أدعهم بَهْرَجًا، لا يقتل فيهم قتيل، ولا يؤخذ لهم دية...

ومن شعر مهلهل

يا لبكر أنشـروا لى كليـبًـا يا لبكر، أيْن أينَ الفـرار؟
تلك شـيـبـان تقـولُ لبكر صـرَّحَ السـر، وبَان السـرار
وبنو عـجلٍ تقـولُ لقـيس ولتـيم اللاتى سـيرُوا فـسَارُوا

ومن شعره، وفيه غرور القوة، والنصر..

قـتلوا كليـبًـا، ثم قـالوا: أربعـوا كـذبوا، وربُّ الحلّ، والإحـرام
حـتى تبـيت قـبـائلٌ، وقـبـيلةٌ وتَعَضُّ كل مـشـقـفٍ بالـهـام
وتقـوم رباتُ الخـدور حـواسـرًا يمسحن عـرضَ ذوائب الأيتـام
حتى يقضَّ الشيخُ بعد حميمه مما يرى نَدَمـا على الإبهـام[1]

---

(١) انظر فيما تقدم ٦/ ٧٥، ٧٦ العقد الفريد.

ومما تقدم نقول:

إن مهلهلا أسرف فى القتل وصمم على إبادة قبيلة من قتلوا كليبا، وتلمس ذلك من شعره المتقدم..

ولكن الله (عـز وجل) الذى تفـضل بالتـوازن فى كـونه، وفى خلقـه، ووضع الميزان، وخلق كل شىء موزونًا....

لا يتـرك المتجـبر يفنى الضّـعيف، ولكنه ألهم بعض عـباده غـيـرة على المظلوم، ووقوفا فى وجه الظالم، حتى ترد الأمور إلى نصابها، ويعتدل الميـزان، وينال الظالم جزاءه، ويشرب بالكأس التى سقى غيره منها ...

وقد كان ذلك فى هذه الحرب الظالمة..

وتفصيل ذلك فيما يلى:

- حينما لم يبال كليب بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع...

- وكان أكثر قبائل بكر قعدت عن نصرة بنى شيبان لقتلهم كليب بن وائل.

وكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب، حتى قُتل ابنه: بجير بن الحارث.

- فلمـا بلغ الحـارث قتله قـال: نعم القـتـيل قـتـيل أصْلَح بين ابنى وائل: وظنَّ أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب، وجعله كُفئًا له.

فقيل له:

إنما قتله بشِسَع نعل كليب، لأن المهلهل قال ذلك:

- فغضب الحارث بن عباد، وكان له فرس، يقال له: النعامة فركبها، وتولى أمر بكر.

قاتل الحارث تغلب، حتى هرب المهلهل، وتفرقت قبائل تغلب وقال الحارث فى ذلك:

قــربا مــربطَ النعــامــة منى ... لقــحَتْ حــربُ وائل عن حــيــالى

لم أكُنْ من جنايتــهــا علمَ الله ... وإنى بحــرّها الــيــوم صــالى

قــربَا مــربطَ النعــامــة منى ... إنّ قتل الكريم با لشسع غالى[1]

وشهد الحارث بن عباد:

يوم قضّة،

ويوم تحلاق اللّمم.

ويفتخر طرفة بن العبد بذلك، فيقول:

سَــائلُوا عنّا الذى يَعْــرِفُنَا ... مــا لَقُــوا فى يَوْم تَحْــلاق اللِّمَمْ

يومَ تُبـدى البـيض عن أسـوقـهـا ... وتلفُ الخــيـلُ أفــواج، النَّعَمْ

وانظر إلى أخلاق الحارث بن عبّاد.

أسر الحارث بن عباد المهلهل - وهو لا يعرفه - واسمه عدى بن ربيعة فقال له:

دلّنى على عدى بن ربيعة، وأخلّى عنك.

فقال له عدى. عليك العهود بذلك، إن دللتك عليه؟

قال نعم:

قال: فأنَا عَدىٌ، فجزّ ناصيته، وتركه.

وقال فيه:

لهفَ نفْسى على عَدى، ولم أعْــ ... ــرف عَديًا، إذ أمكنَتْنى اليَدان[2]

---

(١) انظر ٦/ ٧٧ العقد الفريد.

(٢) انظر ٦/ ٧٧ العقد الفريد.

عاقبة الظالم:

لم نر، ولم نسمع فيما روى التاريخ أن ظالمًا سلم من عاقبة ظلمه..

وقد كانت عاقبة الظلم للمهلهل، ما يلى:

فارق المهلهل قومه، ونزل فى بنى جنب، وجنب فى مذحج.. فخطبوا إليه ابنته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها، وساقوا إليه فى صداقها جلودًا من أَدَم.

فقال فى ذلك:

أعـزِزْ على تغلب بَمـا لَقـيتْ — أختُ بَنى الأكـرمين من جُـشَم

أنكحـهـا فـقـدها الأراقم فى — جنب، وكـان الخـبـاء من أَدَم

لو بأبا تين جـاء يخطبـهـا — ضـرِّج مـا أنفُ خـاطب بدَمِ

لَيَـسُـوا بأكـفـائنا الكرام، ولا — يـغنـون من ذِلَّـةٍ، ولا عَـدَم(١)

وللفند الزمانى قصيدة قالها في حرب البَسوس

قال الفنْد الزِّمانى:

صَـفَـحنَا عن بنى ذُهْل — وقلنَا: القَـوم إخـوانُ

عَـسَى الأيام أن يرجـعْـن — قـومًـا، كـالذى كـانوا

فلمَّـا صـرِّح الشـرُّ — فـأمـسى، وهْو عُـرْيَانُ

ولم يبْقَ سِـوَى العُـدْوَا — ن: دناهم كـمَـا دانُوا

مـشـينا مِـشـيـة اللَّيْث — غـدا، والليث غـضْـبَـانُ

---

(١) انظر ٣/ ٦٧ نهاية الأرب فى فنون الأدب.

بضــرب فـيـــه توهين وتـخـضـيـعٌ، وإقـــرانُ
وطـعْـن كـفـم الـزقِّ غـــدًا، والـزقّ مـــلآنُ
وبعضُ الْعِلم عند الجـهـــل لـلـذلـةِ إذعـــانُ
وفـي الـشـرِّ نجـاة حين لا يـنـجـيـك إحْـسـانُ

وهنا يعن للباحث سؤال، هو:

أننا لم نسمع عن جسّاس فى الحروب الطاحنة، ولم نسمع له صوتًا فيها...

فكيف كانت نهايته؟

ونرى الإجابة فيما سجله أستاذنا الخفاجي:

وأما جسّاس فيُروى، أن ابن جليلة من كليب، هو الذى قتله[1].

ولنا بعض الملحوظات على سير الأحداث الأليمة، الدامية ...

نسجلها - بعون الله تعالى، ومشيئته - فيما يلى:

١- البيئة التى كانت مسرحًا للأحداث المروعة بيئة شاعرة.

مهلهل، جسّاس، والده، ابنته جليلة، البسوس.. وغير هؤلاء..

والشعر: ديوان العرب، وسجل مفاخرهم، وأيامهم، ونظام حياتهم..

ولولا الشعر لما وردت إلينا هذه الأحداث، وينتهى أمرها، بعد الفراغ منها، ويهيل عليها تراب النسيان كرّ الليالى، ومرّ الأيام، وموت الرّواة، ودفنها معهم فى قبورهم..

---

(١) ص ٧٤ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى.

ولكن الشعر: هو الذى خلّد هذه الأحداث، وجعلها، وكأنها ماثلة أمامنا فى كل الأزمنة، والعصور.

ولعلّ سائلا يسأل، فيقول.

ما السرُّ وراء **هذا الشعر**، وقرضه، وتسجيل الأحداث به؟

ونقول:

لقد اجتمع للبيئة العربية ما يجعل منها شعراء، وشاعرات.

فمن ذلك: صفاء قرائحهم، وتوقد ذاكرتهم، وصفاء أجوائهم. وحياة الصحراء، التى تغذى الخيال، وتلهم الشعر.

وللشعر مقومات قد اجتمعت فيهم، وانقادت لهم..

- الموهبة.

وهى: عطاء من الله (عز وجل) وقد خُصّ بها الكثيرون منهم...

- الثقافة:

ونعنى بها عندهم حفظ كثير من الشعر المأثور فى مختلف الأغراض، وقد كانوا رواة الشعر، وحفظته، والمتغنين به.. ليشيد على منواله.

- التجربة الشعورية:

ونعنى بها أى موقف من مواقف الحياة: يفرح، أو يترح، ينفع أو يضر، فيعيش الشاعر معه، ويتفاعل معه.

---

(١) انظر ص ٢١، ٢٢، ٢٣ من كتابنا الطريق المعبد إلى علمى الخليل بن أحمد... الطبعة الثانية.

وهنا: تبرز التجربة الشعورية فى تجربة شعرية، وتأتى القصائد، والأراجيز.. والمواقف، التى تحدثنا عنها كفيلة بما تقدم، على أن اللغة طيبة والخيال متسع.

٢- الحياة العربية، وما فيها من نزاع على مواقع الماء، والعشب...

وحياة السطو على الغير، والاعتداء عليه، والاستيلاء على كل شىء، عنده، أو توقع اعتداء الغير، لا ستنقاذ ما سُلب ...

ونزيف الدم، لأتفه الأسباب..

٣- ما ركز فى طباع العربى من العزة، والأنفة، والغيرة، وحب الرياسة، والغلبة على الغير، وفرض النفوذ... وغير ذلك

مما يجعل الحياة تموج بمختلف الأحداث الدامية، والنزاعات التى لا تنقطع.

٤- الحياة القبلية، وما تتصف به مما أسلفنا ذكره...

٥- كل هذه الأسباب أدت إلى القتل، ونزيف الدماء...

القتل: يعقبه الأخذ بالثأر

وهنا مكمن الخطر، والقلق فى حياة العرب، لما يلى:

١- الإسراف فى القتل، دون رادع من خلق، أو دين أو نظام اجتماعى...

٢- أخذ البرىء بالمسىء، دون تفرقة...

٣- الثأر نار، لا تنطفئ، ولا يهدأ أوارها، حتى يتم شفاء النفوس بالثأر،

٤- المرأة: لها تصيب كبير فى إيقاد نار الفتنة فى القتل، أو الأخذ بالثأر، وشعر البسوس خير شاهد على ذلك، ولها مداخلها فى القول التى تجعل لظى الحروب تشتعل..

٥- الغيرة على الجار، التى لا تقل غيرة عن الوالد، والشقيق..

٦- ومثل ذلك: حماية النزيل:

إذ أن ناقة البسوس - كما يقول ابن عبد ربه، أو ناقة سعد الذى جاور البسوس كما يقول الميدانى كانت سببا فى الحروب المدمرة، التى تحدثنا عنها.

٧- الانحياز للقبيل، دون فكر، أو روية.

٨- توارى العقل، وبروز العاطفة، وسيطرة الدوافع الشريرة...

٩- الثأر لا يموت، ولا ينسى.

وقد علمنا أن ابن جليلة من كليب قد تربى فى حجر أخواله، ومع ذلك حينما كبر وواتته الفرصة قتل خاله جساساً، الذى قتل أباه كليبا..

وكذلك: همام الذى ربى ناشرة قد قتله ناشرة حينما أتيحت له الفرصة وذلك: لأن أبناء الصلب مقدمون على الأرحام فى عرفهم السائد.

٣- وعلينا أن نحلل موقف **جساس من كليب:**

وذلك فى الآتى:

(أ) كليب اجتمعت عليه معد، وتكبر وتجبر، وسيطر على كل شيء وجار على قومه - كما ذكرنا..

(ب) مثل هذه المواقف تشحن بعض النفوس بالكراهية والحقد، والتربص للانتقام.

ولعلّ ما تقدم كان الدافع الحقيقى لدى شاب، قويّ، مدرب، مغرور، يجرى وراء عاطفته، ولا يستخدم عقله، ولا يقدر أمر العواقب.

لأنه كان يمكن في عرف العقلاء. أن تعوّض البسوس، أو يعوض سعد بما يماثل ما ذهب، مع اعتذار مريح...

ولكن الأمور سارت في اتجاه عكسي: ألهبت البسوس شعور جساس، وتبعه عمرو... وكان ما كان.

ونقول: إن أمر الناقة كان كالقشة التي قصمت ظهر البعير...

وجعل الفرصة مواتية للتخلص من متكبر، متجبّر، ظَلُوم...

دون تفكير في عواقب الأمور، وكما قلنا: اختفى العقل، وبرزت العاطفة ولعل جساسًا كان يبغي زعامة، وثناء عليه من الناس، وظهوراً بين القبائل وعلى كل حال:

فقد جرت الأحداث كما شاء الله لها أن تجرى.

ويؤخذ من شعر جسّاس، ووالده الاستعداد لتحمل التبعات.

- أما المهلهل:

فقد هاله الأمر: قتل زعيم، ورئيس قبيلة.. في ناقة.. ولعله: صمّم، وفكر، وقدر، وركب رأسه وصمم على إبادة البكريين -ولكنه حينما أعْذَرَ: أي سلب العذر، وضع شروطًا تعجيزية. هو يعلم أنها غير قابلة للتنفيذ، ولكنه كما قيل «قد قلتها ليقال من ذا قالها»...

اما والد جسّاس:

فقد كان واقعيا في رده، وفي عرضه..

وكان يمكن أن تنتهي الأمور، ولكن غرور القوة جعل مهلهلا يسير في حماقاته..

ونال في النهاية جزاء الظالمين: فقد مات في هجر أسيراً في يد عمرو بن مالك البكري.

٤- موقف الحارث بن عباد:

يتجلى ذلك فى موقفين:

أولهما: موقف سَلبىّ، حيث إنه لم يسع فى صلح، ولم يحارب مع قومه.

وظل على موقفه حتى تيقظ ضميره، وآلمه إسْراف مهلهل فى القتل.. فبعث ابنه بجيراً لمهلهل أملا فى إخماد نار الحرب، وانتهاء ويلاتها.. ولكن مهلهلا ركب رأسه، وفعل ما لا ينبغى أن يُفعل فقتل بجيراً، وهو سفير قومه إليه..

ولم يكتف بالقتل، وإنما قال عند قتله: «بؤ بشسع نعل كليب» أى: إنك لا كفء بشسع نعل كليب..

ولما بلغ الحارث الخبر قال: نعم القتيل.. أصلح الله به بين حيىّ وائل»

وفكر فى أن الأمور قد انتهت، وأن الحرب ستضع أوزارها..

ولكنه حينما أخبر بما قاله مهلهل.. **كان الموقف الثانى الإيجابى**

وثانيهما: موقف إيجابىّ، فقد قاد الجيوش، ودخل المعركة...

وهُزِمَ مهلهل، وفر إلى اليمن... ومات أسيراً ذليلا...

٥- من عادة العرب الرحل: أنهم إذا جنوا جناية، أن يرتحلوا من المكان، وأن يخلّفوا السَّاحةَ ويتخلوا عنها...

وتلك عادتهم إلى يومنا هذا: إذا فعلوا شيئا، وخافوا عاقبته يرتحلون بليل ولا يبقى لهم أثر... فى الصباح....

وقد ارتحل البكريون -كما تقدم-.

٥- على أنّ العرب لم يكونوا كذلك -بعامة- وإنما كان فيهم عقلاء من هؤلاء الحارث بن وعلة الجاهلىّ، من فرسان قضاعة، وأعلامها :

قَـوْمي هُمُ قَـتَلُوا -أميم- أخي فـإذا رَمَـيْتُ يُصـيـبنى سَـهْـمِى
ولئنْ عـفـوتُ لأعـفَـون جـهـلاً ولئـن سَـطَـوَت لأوهـنَنْ عـظْـمى

ومن هؤلاء قيس بن عاصم المنقرى :

وقد كان جالسا بفناء بيته، يحدث قومه وقد جئ برجل مقتول، ورجل مكتوف.

وقيل له :

هذا ابن أخيك قتل ابنك

فلم يحل حبوته، ولم يقطع حديثه :

ثم نظر إلى ابن له آخر، وقال له :

قم يا بنيَّ، فوار أخاك، وحلّ وثَاق ابن عمك، وسق إلى أمك مائة ناقة : دية ابنها، فإنها غريبة عنا....

ثم أنشأ يقول :

إنِّى امـرؤ لاَ يطَّبى حَسَبى دنـسٌ، يـدنّـسُـهُ، ولا أفَـنُ
منْ منقـرىٌ بيت مكرمـة ، والغُـصن ينبتُ حَـولَهُ الغُـصنُ
خُطَبَاء حينَ يقـولُ قـائلهُم بيضُ الوُجُـوه، أعـفـةٌ لُسُنُ
لا يفْطنونَ لعـيب جـارهُمُ وهـم لحـفظِ جـواره فُطُنُ

وجدير بمن يتصرف تصرفه أن يكون متصفا، وقومه بما ذكر فى شعره.

٦- ورد فى شعر المهلهل فى أخيه كليب :

---

(١) ص٢٦ إلى ٣٦ كتابنا الإعاقة. وانظر ١٩ / ٢٢٠، ٢٢١ فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

... ... أىّ زيـــــــر

وكلمة «زير» تعنى أن من يطلق عليه: يُلْمِم بالنساء كثيراً، والنساء تطلبه... ومع افتتان العربى بالقوة وسعيه إليها ابتكر هذا النوع من النكاح.

وخلاصة القول فيه:

أنهم كانوا يبحثون عن المتين فى الرجال خَلقًا، وخُلقًا، والقوى بدنا، ونفسًا، وكان الرجل إذا طهرت امرأته يقول لها: اذهبى إلى فلان، وتودّدى له. ومكنيه من نفسك، فيستجيب لها ذلك الزّير، ويظل يتردد عليها، تحت سمع، وبصر زوجها، الذى لا يقربها مدة تردد الزير، ولا يزال الزير يتردد عليها حتى تحمل، وترتفع بطنها..

وهذه العادة: يطلق عليها زواج الاستبضاع، ولولا أنه فى الأحاديث الصحيحة لما سكنت النفس إلى التصديق به.

على أن منهم من كان يعف فى بعض الأحايين، كحاتم الطائى الذى يقول:

ربَّ بيْـضاء فـرعُـهَا يتـثنى ... قـد دعـتْنِى لوصْلها، فـأبيتُ

لم يكن بي تحـرجٌ غـيـر أنى ... كنتُ خِدنا لبعلها، فاستحيتُ

وهذا من شذوذ القاعدة، كقيس بن عاصم المنقرى.

(٢)
حرب داحس والغبراء

في مجمع الأمثال للميداني ١ / ٣٩٢، ٣٩٣

ويقول الميداني: «وهو فَرَس لقيْس بن زُهير، العَبْسيّ، وهو داحس بن ذى العقال.

وكان ذو العقال فرسًا لوحط بن جابر بن حميرى بن رياح بن يربوع بن حنظلة وكانت أم داحس فرسًا لقرداش بن عوف..

وإنما سمى داحسًا؛ لأن بنى يربوع احتملوا سائرين فى نجعة لهم، وكان ذو العقال مع ابنى حوط بن جابر يجنبانه فمرت به جلوى، فلما رآها ذو العقّال وَدَى، فضحك شاب منهم، فاستحيت الفتاتان، فأرسلتاه، فنز على جلوى، فوافق قبولها، فأقصت، ثم أخذه لهما بعض رجال القوم، فلحق بهم حوط، وكان رجلا سيئ الخلق، فلما نظر إلى عين فرسه، فقال: والله لقد نزا فرسى فأخبرانى ما شأنه فأخبرتاه بما كان فنادى يالرياح والله لا أرضى حتى آخذ ماء فرسي.

قال بنو ثعلبة: والله ما استكرهنا فرسك، وما كان إلا منفلتًا، قال فلم يزل الشر بينهم حتى عظم.

فلما رأوا ذلك قالوا: ما تريدون يا بنى رياح؟

قالوا: نريد ماء فرسنا

قال: فدونكم الفرس، فسطا عليها حوط، وجعل يده فى ماء وملح ثم أدخلها فى رحمها، ودحس بها حتى ظن أنه فتح الرحم، وأخرج الماء، واشتملت الرحم عى ما فيها فنتجها قرداش بن عوف داحسًا، فسمى داحسا لذلك،

والدحس: إدخال اليد فى جلد الشاة، ولحمها، ثم يسلخها..

ثم رآه حوط، فقال: هذا ابن فرسى، فكرهوا الشر، فبعثوا به إليه مع لقوحين، وراوية من لبن، فاستحيا فرده إليهم.

فهذا سر التسمية بداحس

وأما الغبراء: «حجرة لحمل بن بدر [١].. كما يقول ابن عبد ربه.

والسبب الذى هاج حرب داحس والغبراء:

أن قيس بن زهير، وحمل بن بدر، تراهنا على داحس، والغبراء أيهما يكون له السبق؟

وكان داحس فحلاً لقيس بن زهير، والغبراء: حجرة لحمل بن بدر وتواضعا الرهان على مائة بعير.

وجعلا منتهى الغاية مائة غلوة، والإضمار أربعين ليلة.

ثم قادوهما إلى رأس الميدان، بعد أن أضمروهما أربعين ليلة..

وهنا كانت الخديعة:

فأكمن حمل بن بدر فى الشعاب فتيانا على طريق الفرسين.

وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية.

فسبقت الأنثى..

فلما شارف داحس الغاية، ودنا من الفتية وثبوا فى وجه داحس فردوه عن الغاية.

وقد سجل ذلك قيس بن زهير فى قوله:

---

(١) ٦/١٧ العقد الفريد

ومـا لاقـيت من حَـملِ بن بَدْرٍ ... وإخْـوتـه عَلَى ذَاتِ الإصَـادِ

هُمُ فَـخَـروا عليَّ بغَـيْـرِ فـخـرٍ ... وردوا دون غَـايتـه جَـوادى[1]

وثارت الحرب بين عبس، وذبيان أربعين سنة:

لم تنتج لهم ناقة، ولا فرس، لاشتغالهم بالحرب.

بعث حذيفة بن بدر ابنه مالكًا إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق فقال قيس: كلا، لا مطلتك به.

ثم أخذ الرمح فطعنه به فوق صلبه، ورجعت فرسه غائرة. اجتمع الناس. واحتملوا دية مالك: مائة عشراء.

وزعموا أن الربيع بن زياد حملها وحده، فقبضها حذيفة، وسكن الناس.

أما مالك بن زهير أخو قيس فإنه نزل اللقاطة من أرض الشرية، فأخبر حذيفة بمكانه فعدا عليه فقتله وفى ذلك يقول عنترة الفراس:

فلله عـينا من رأى مـثل مـالكٍ ... عَـقَـيـرة قـوم، إن جـرى فَـرسَـان

فليـتـهـمـا لم يجـريا قـيـد غلوة ... وليـتـهـمـا لم يُرسَـلا برِهَان[2]

فقالت عبس:

مالك بن زهير بمالك بن حذيفة، وردوا علينا مالنا.

فأبى حذيفة أن يرد شيئًا...

وكان الربيع بن زياد القيسى، عم قيس مجاوراً لبنى فزارة، ولم يكن فى العرب مثله، ومثل إخوته، وكان يقال لهم: الكَمَلَة.

---

(١) انظر ٦/١٧، ١٨ العقد الفريد.

(٢) وانظر ٦١، ٦٢ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى.

وكان بينه، وبين قيس بن زهير، بغضاء ،وخصام.

فلما قتل مالك بن زهير قامت بنو فزارة يسألون، ويقولون:

ما فعل حماركم؟ قالوا: صدناه.

فقال الربيع: ما هذا الوحى؟ قالوا: قتلنامالك بن زهير.

قالِ: بئسما فعلتم بقومكم:

قبلتم الدية، ثم رضيتم بها، وغدرتم....

قالوا: لولا أنك جارنا لقتلناك.

وكانت خُفْرة الجار ثلاثا، فقالوا له، بعد ثلاث ليال اخرج عنا فخرج،واتبعوه، فلم يلحقوه، حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير: فعاقده، وفى ذلك يقول الربيع:

فـإن تك حَـرْبكم أمْست عـوانًا ... فــــإنـى لـم أكُـنْ ممَّن جَـنَـاهَـا

ولـكـن وُلْـد ســـــوْدة أرَّثـوهـا ... وحَـــشُّــوا نـارَهَـا لمن اصطلاَهَا

فـإنى غـيْـر خـاذلكم ولكنْ ... سـأشـقـى - الآن - إذ بلَغَتْ مَـدَاهَا

ثم نهضت بنوعبس، وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة، وذبيان ،ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر.

واستعرت الحرب بين الفريقين، وظلت أربعين سنةوالتقى الفريقان فى الأيام الآتية:

وسنلمم بها - إن شاء الله تعالى - فى اختصار - ما أمكن ذلك-.

١- يوم المريقب

لبني عبس على فزارة

- التقوا على أرض الشربة بذى المريقب . فا قتتلوا .

وكانت الشوكة فى بنى فزارة، قتل منهم عوف بن زيد... وضمضم أبو الحصين المرى. قتله عنترة الفوارس....

وقال عنترة لما بلغه أن حصينًا وهرمًا، ابنى ضمضم يشتمانه، ويواعدانه... قال فى مذهبته..

ولقد خشيت بأن أموتَ ولم تَدُر	للحرب دائرةٌ على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى، ولم أشتمهما	والناذرين إذا لم القهما دَمى
إن يُفعلا، فلقد تركت أباهُما	جزر السباع، وكلّ نسر قشعِم
لما رآنى قد نزلت أريدُهُ	أبدَى نواجذهُ لغير تبسم

٢- يوم ذى حُسّى

لذبيان على عبس

تجمعت ذبيان لما أصابهم يوم المريقب : فزارة بن ذبيان، ومرة بن عوف... وأحلافهم فنزلوا، فتوافدوا بذى حُسّى.

فهربت بنو عبس، وخافت ألاتقوم بجماعة بنو ذبيان، واتبعوهم حتى لحقوهم، فقالوا : التفانى ،أو تُقيدونا .

فأشار قيس بن زهير على الربيع بن زياد ألا يناجزهم، وأن يعطوهم رهائن من أبنائهم حتى ينظروا فى أمرهم.

فتوافقوا على أن يكون رهنهم عند سبيع بن عمرو ، أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فدفعوا إليه ثمانيةمن الصبيان ، وانصرفوا ،وتكاف الناس ، وكان رأى الربيع مناجزتهم ، فصرفه قيس عن ذلك ، فقال الربيع :

أقول لهم: ولم أملك لقيس نصيحةً ... أرَى مـا تَرَى، واللهُ بـالغـيـب أَعْلَمُ

أتُبـقى على ذُبْيَـان فى قـتْل مـالك ... فقد حَشَّ جانى الحرب ناراً تضـرَّمُ

فمكث رهنهم عند سبيع بن عمرو حتى حضرته الوفاة .

فقال لابنه : مالك بن سبيع : إن عندك مكرمة لاتبيد ، إن أنت حفظت هؤلاء الأغيلمة .

فكأنى بك : لومت أتارك خالك : حذيفة بن بدر ، فعصر لك عينيه ، وقال : هلك سيدنا ، ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه ، فيقتلهم ، فلا تشرف بعدها أبداً ، فإن خفت ذلك فاذهب بهم إلى قومهم .

فلما هلك سبيع طاف حذيفة بابنه مالك ، وخدعه عنهم حتى دفعهم إليه ، فأتى بهم اليعمرية ، فجعل يبرز فى كل يوم غلامًا ، فينصبه غرضًا ، ويقول : ناد أباك ، فينادى أباه ، حتى يقتله .

٣- يوم اليَعْمَرية

لعبس على ذبيان

عندما بلغ ذلك من فعل حذيفة ، لما بلغ ذلك عبسًا أتوهم باليعمرية فلقوهم بالحرة ، فقتلوا منهم اثنى عشر رجلاً .

منهم مالك بن سبيع ، الذى نبذ بالغلمة إلى حذيفة ، وأخوه يزيد بن سبيع ، ....

ويقال ليوم اليعمرية : يوم نفر ،لأن بينهما أقل من نصف يوم .

٤ - يوم الهباءة

لعبس على ذبيان

اجتمعوا بعد ذلك ، والتقوا في يوم قائظ إلى جنب جفر الهباءة ، واقتتلوا من بكرة حتى انتصف النهار ، وحجز الحر بينهم . . .

ثم توافت فرسان بني عبس ، فقال حمل : ناشدتك الله ، والرحم ياقيس ، فقال : لبيكم ، لبيكم .

فعرف حذيفة أنه لن يدعهم وقال لقيس : لئن قتلتني لاتصلح . غطفان بعدها .

فقال قيس : أبعدها الله ، ولاأصلحها ، وجاءه قرواش بمعبلة ، فقصم صلبه ،وابتدره الحارث بن زهير ، وعمرو بن الأسلع فضرباه بسيفيهما حتى ذففا عليه .

وقتل الربيع بن زياد حمل بن بدر ، فقال قيس بن زهير يرثيه :

تعلَّم أنَّ خير الناسِ مَيْتٌ ... على جفر الهباءة ، ما يريمُ
ولولاَ ظلمه مازِلتُ أبْكى ... علَيهْ الدَّهْر ماطلَع النجومُ
ولكنَّ الفتى حَمَلَ بن بَدْرٍ ... بغى ، والبغى مرتعه وخيمُ
أظنُّ الحلم دل على قَوْمى ... وقد يستضعف الرجل الحليمُ
ومارستُ الرجالَ ، ومارَسُونى ... فَمعْوَجٌ علىَّ ، ومستقيم

ومثلوا بحذيفة بن بدر ، كما مثل بالغلمة ، فقطعوا مذاكيره ، وجعلوها في فيه ، وقطعوا لسانه ، وجعلوه في استه .

وفي ذلك يقول قائلهم :

فـإن قـتـيـلاً بالهـبـاءَةَ فى استـه صـحـيـفـتُـه، إن عـادَ للظُّلم ظالمُ
متى تقرءوها تَهدِكم عن ضَلالِكُم وتعـرفْ إذا مـا نُصَّ عنهـا الخـواتمُ

استعظمت غطفان قتل حذيفة، وتجمعوا.

وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان.

فخرجوا إلى اليمامة، فنزلوا بأخوالهم من بنى حنيفة، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببنى سعدبن زيد بن مناة.

٥- يوم الفروق

غَدَرَ بنو سعد بجوارهم، فأتوا معاوية بن الجون فاستجاسوا عليهم، وأرادوا أكلهم.

فبلغ ذلك الأمربنى عبس، ففروا ليلاً، وقدموا ظعنهم، ووقف فرسانهم بموضع يقال له الفروق.

وأغارت بنو سعد، ومن معهم من جنود الملك على محلتهم، فلم يجدوا إلا مواقد النيران.

فاتبعوهم حتى أتوا الفروق، فإذا بالخيل، والفرسان، وقد توارت الظعن عنهم، فانصرفوا عنهم.

ومضى بنو عبس، فنزلوا ببنى ضبة، فأقاموا فيهم....

ثم تصالحوا، وكان أول من سعى في الحمالةحرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة، فمات، فسعى فيها هاشم بن حرملة، ابنه.

وفيه يقول الشاعر:

أحـيـا أباهُ هاشمُ بن حَـرْمَلهْ	يومَ الهَـبَـاتَين، ويومَ اليـعـمَلَهْ
ترَى الملوكَ حَـولَهُ مُـرعْـبَلة	يقـتل ذا الذنب، ومن لا ذَنبَ لَهُ

٦- يوم قطن

فلما توافوا للصلح:

وقف بنو عبس بقطن.

وأقبل حصين بن ضمضم، فلقى تيجان: أحد بنى مخزوم، فقتله بأبيه ضمضم وكان عنترة بن شداد قتله بذى المُرَيْقب.

فأشارت بنو عبس، وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان، وقالوا..

لا نصالحكم ما بل البحر صوفة، وقد غدرتم بنا غير مرة.

وتناهض القوم: عبس، وذبيان، فالتقوابقطن، فقتل - يومئذ - عمرو بن الأسلع عيينة.

ثم سفرت السفراء بينهم.

وأتى خارجة بن سنان أبا تيجان بابنه، فدفعه إليه.

فقال: هذا وفاءمن ابنك، فأخذه، فكان عنده أيامًا.

ثم حمل خارجه لأبى تيجان مائة بعير، قادها إليه، واصطلحوا، وتعاقدوا.

٧- يوم غدير قلباد

اصطلح الحيان، إلا بنى ثعلبة بن ذبيان، فإنهم أبوا ذلك، وقالوا: لا نرضى، حتى يُودُوا قتلانا، أو يهدروا دم من قتلها.

فخرجوا من قطن حتى وردوا غدير قلياد، فسبقهم بنو عبس إلى الماء، فمنعوهم حتى كادوا يموتون عطشا، ودوابهم.

فأصلح بينهم عوف، ومعقل ابنا سبيع بن ثعلبة، وإياهما يعنى زهير بقوله:

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا، وذبْيَان بَعْدَمَا تفَانَوا، ودقُّوا بَينهم عِطْرَ منشِمِ[1]

الصلح بين القبيلتين

خطب الحارث بن عوف ابنة أوس بن حارثة بن لأم الطائى...

فقبلت الصغيرة قائلة: ... لكنى والله الجميلة وجها، الصناع يداً، الرفعية خلقًا الحسيبة أبا...

وقال أوس للحارث: قد زوجتك يا حارث بهية بنت أوس، قال: قد قبلت.

فأمر أمها أن تهيئها، وأن تصلح من شأنها، ثم أمر ببيت، فضرب له، وأنزله إياه، فلما هيئت بعث بها إليه، فلما أدخلت إليه لبث هنيهة، ثم خرج، فقلت: أفرغت من شأنك، قال: لا، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدى إليها قالت: مَهْ: أعند أبى، وإخوتى؟ هذا والله ما لا يكون، قال: فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا ما شاء الله.

ثم قال لى: تقدم، فتقدمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحق بى.

فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: قالت: أكما يفعل بالأمة، الجليبة، أو السبية، الأخيذة؟

لا والله، حتى تنحر الجزر، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلى.

قلت: والله: إنى لأرى همة، وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة نجيبة إن شاء الله.

---

(١) انظر ٦/١٧ إلى ٢٥ العقد الفريد.

فرحلنا حتى جئنا بلادنا، فأحضر الإبل، والغنم، ثم دخل عليها وخرج إلي.

قلت: أفرغت؟ قال: لا.

قالت: لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك، قلت: وكيف؟

قالت: أتفرغ لنكاح النساء، والعرب تقتل بعضها بعضًا؟

وذلك: في أيام حرب عبس، وذبيان.

قلت: فيكون ماذا؟

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك، فلن يفوتك.

فقلت والله: إني لأرى همة، وعقلا، ولقد قالت قولاً.

قال: فاخرج بنا.

فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا فيما بينهم بالصلح، فاصطلحوا، على أن يحتسبوا القتلى، فيؤخذ العقل ممن هو عليه.

فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين.

فانصرفنا بأجمل الذكر.

وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

يمينًا لنعمَ السيدان وُجدتُمَا ... على كلِّ حالٍ: من سَحِيلٍ، ومُبْرَمِ

تَدَارَكْتُما عَبْسًا، وذبْيَان بعْدَمَا ... تَفَانوا، ودقُّوا بَينَهم عِطْرَ منشِمِ

وقد قلتما: إن ندرك السِّلْمَ واسعًا ... بمالٍ، ومعروف من الأمر نَسْلَمِ

فأصْبَحْتُما منها عَلَى خيرِ مَوْطنٍ ... بعيدَيْن فيها من عُقُوقٍ، ومأثم[1]

(١) انظر شرح القصائد العشر. وانظر الأغاني، والأمالي....

ولنا بعض ملحوظات، نسجلها فيما يلي:

١ - **تجنيب الحصان:** هو أنه لا ينزُو على أنثَى.. حتى يحتفظ بكامل قوته..

وكرى إذا نادى المضَافُ مجنَّبًا كسِيدِ الغضَى، نبهْتَه المتَورِّدِ

فى رواية، وفى أخرى مجنبًا: فى رجليه التواء، وهو أقوى وأسرع جريًا.

٢ - **الحصان:** حينما شم الأنثى، هاج، وودى: نزل من إحليله ودى.

٣ - استحيت الفتاتان، فأرسلتاه، فنزا على جلوى، فوافق قبولها...

٤ - نظر حوط إلى عين فرسه، ففهم منه النزَوان، وطلب ماء فرسه... وهو لا يعلم وأن الحيوان قد خصب البويضة، ففعل ما فعل حوط بالفرس..

٥ - رأى حوط نجابة ولد الفرس، فقال: هذا ابن فرسى، فبعثوا به إليه مع أشياء أخرى كراهة الشر، فاستحيا فرده إليهم.

٦ - سبب الحرب الفراغ، الواسع: لا تعليم، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا أى شىء ينفق فيه الوقت..

وعلى ذلك: ينفق الوقت فى أمور أخرى، لا تفيد المجتمعات، ولا تساعد على تنمية.

٧ - **من ذلك الرهان:** على بدء غاية، ونهايتها، وإعداد العدة لذلك... أى الفرسين يسبق ينال صاحبه الرهان...

٨ - **هنا:** حدث غدر، وهو يخالف ما عليه معظم العرب قلب النتيجة.

٩ - **الرهان:** مائة بعير..

١٠ - ثارت الحرب بين عبس، وذبيان أربعين سنة..

لم تنتج لهم فرس، ولا ناقة، وتعطلت سبل الحياة، ووسائل العيش...

وذلك: لاشتغالهم بالحرب . . .

١١- طعن قيس بن زهير من أرسله والده يطلب حق السبق، ورجعت فرسه، دون فارسها . .

١٢- اجتمع الناس، واحتملوا دية مالك : مائة عشراء . .

١٣- **قتل** حذيفة مالك بن زهير، أخو قيس، بعد الصلح . . غدراً .

١٤- عرضت عبس عرضًا عاقلا : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة، وردوا علينا مالنا .

١٥- أبى حذيفة أن يرد شيئًا .

١٦- جرْم الربيع أخذ الدية، والغدر بعدها بالقتل .

١٧- استعرت الحرب بين الفريقين أربعين سنة . .

١٨- التقى الفريقان يوم المريقب، وكان لبنى عبس على فزارة .

١٩- ثم التقوا بذى حُسى، وكان لذبيان على عبس .

٢٠- اتفق الفريقان على تسليم رهائن : ثمانية من الصبيان .

واتفقوا على أن تكون الرهائن عند سبيع بن عمرو

وذكر سبيع لابنه أنه ينال شرف الدهر إن حافظ على الرهائن . . .

ولكن خالف حذيفة الذى حذره منه استطاع أن يأخذ الرهائن، وأن يقتلهم شر قتلة فيها التشفى، والانتقام .

٢١- التقوا بعد قتل الرهائن فى يوم اليعمرية، وقتل العبسيون اثنى عشر رجلاً من ذبيان .

٢٢- التقوا بعد ذلك فى يوم الهباءة وكان لعبس على ذبيان .

٢٣- كان جزاء حذيفة من جنس عمله، فقد قُتل، ومُثِّل به، كما مثَّلَ هو بالصبية.

٢٤- غادر بنو عبس أرض غطفان إلى اليمامة، ثم رحلوا عنها، ونزلوا ببني سعد ابن زيد بن مناة.

٢٥- ثم تصالحوا:

وأول من سعى في الحملة: حَرْمَلَة بن الأشقر . . .ثم ابنه من بعده.

٢٦- آخر صلح مضى بين الفريقين:

قد قام به:

الحارث بن عوف، وهرم بن سنان، المريَّان.

فقد تحملا ديات القتلى.

ونقول:

إذا كانت الحرب قد دامت بين الفريقين أربعين سنة.

فإنها لم تكن حربًا متواصلة، وإنما كان التلاقي في أيام معينة.

وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين:

تكون الغلبة لفريق، ثم يأخذ الفريق المهزوم في الاستعداد لليوم الآتي. . وهكذا.

الحرب سجال.

على أن التنمية كانت معطلة تمامًا. .

وإنما الهمة مصروفة للحرب بين قاتل، واتر، ومقتول موتور. . . . وكلا الفريقين يتوقع المعركة في ليل أو نهار. . .

مع ملاحظة: أن هذه الحرب قد ظهر فيها الغدر. .

مخالفين بذلك طبيعة العربي: في حربه، وسلمه.

٣ ـ الزباء: تقتل ملك الجزيرة: أخذا بالثأر

يروى الميدانى :

خطبٌ يسيرٌ فى خَطْب كبيرٌ

وخلاصة الموضوع: أخذا من الميدانى فى مجمع الأمثال .

- **المثل:** قاله قصير بن سعد اللخمى ، لجذيمة بن مالك بن نصر الذى يقال له : جزيمة الأبرش ، وجزيمة الوضّاح .

- ملك جذيمة ما على شاطىء الفرات .

- أما الزباء : فإنها ملكة الجزيزة ، وكانت من أهْل باجرمى ، وتتكلم العربية .

- وَتَرَ جذيمة الزباء ، وقتل أَبَاهَا . . .

-حينما اجتمع لها الأمر أرادت أن تغزُو جذيمة . . .

- فضلت استخدام الحيلة ، وكيد المرأة العظيم . .

- كتبت لجذيمة تخبره : أن ملك النساء ضعيف ، وأنه الكفء لنفسها وملكها . .

- جاء كتابها إلى جذيمة ، فاستشار خاصته ، فاجتمع رأيهم على الموافقة ، إلا قصير بن سعد اللخمى ، وكان داهية أريبًا . .

- خالف جذيمة جميع ما أشار به قصير ، وقاده الطمع إلى حتفه .

- استخلف جذيمة عمرو بن عدى على ملكه ، وقد شجعه عمرو على ذلك . .

- قال قصير لجذيمة : إن تلقّتك جيوش الزباء من أمامك ، فاعلم أنها صادقة ، وإن أحاطت بك فاعلم أنها غادرة ، واركب العصا : فَرَس قَصِير فإنها تسبق الريح ، وانج بنفسك .

- أحاطت به الجيوش، فلم يتمكن من العصا، وفرَّ بها قصير، ونجا...

- دخل جذيمة على الزبّاء فتكشفت له، فإذا بها مضفورة الاسب،

فقالت: يا جذيمة:

أَأَدَبُ عروسٍ تَرَى؟.

- دعت بالسيف، والنطع، وبطسْت وسقته الخمر حتى سكر، وأمرت براهشيه، فقطعا، ونزف دمه حتى مات.

- استشارت الزباء الكاهنة، فأعلمتها مصيرها..

بعثت بمَن صوَّر لها عمْرا فى جميع حالاته، حتى تتعرف عليه إذا داهمها.

- حفرت لها خندقا تدخل فيه من مجلسها إذا هوجمت..

- أعمل قصير الحيلة للأخذ بالثأر من الزباء..

- جدَع قصير أنْفَه، وأحدث بظهره آثار ضرب، وأفهم الزباء بأن عمرا فعل به ذلك، لأنه قد خدع جذيمة..

- وثقت الزباء فى رأى قصير وحكمته..

- قال لها: إنى تركت بالعراق ثروة من كذا، وكذا..

- ذهب إلى العراق، وأحضر منها ما أحضر: مرة، ومرة..

وفى الثالثة: حمل الرجال على الجمال فى غرائر..

- أبصرت الزباء الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها، فقالت:

مَا لِلجِمَالِ: مَشيهَا وَئِيدَا   أَجَنْدَلاً يحملن أَمْ حَدِيدا

أم صرفانًا تارزًا شَديدا

فقال قصير فى نفسه : بل الرجالُ قبضًا ، قُعودًا

- دخلت الجمال المدينة ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، ووضْعوا فيهم السلاح .

- قام عمرو على باب النفق .

- أقبلت الزباء تريد النفق ، فأبصرت عمرا فعرفته بصورته .

- مصَّت خاتمها ، وبه سم زعاف قائلة :

بيدِى لا بيد عَمْرو.

وتعليقنا على هذه الواقعة...

- أنها مدبرة تدبير عقلاء ...

- جذيمة قتل أبَا الزباء ، واحتالت الزباء وأخذت بثأر أبيها ...

- فى الواقعة الحرص على الأخذ بالثأر ، لا بطريقة غوغائية ، وإنما بطريقة ذكية ، متحضرة ..

- ولا ننسى المثل العربى : «مصارِعُ الرِّجالِ تَحْتَ بُرُوق الطَّمَع» .

- كيد المرأة العظيم .

- تحطم كيدها ، بعد أن بلغت مأربها - على يد أريب داهية ، إذ فى النساء غفلة .

مقتل والد امرىء القيس، واشتعال المعارك للأخذ بثأره

تمهيد:

– امرؤ القيس: هو ابن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر بن عمرو، بن معاوية، بن الحارث الأكبر.

وهو من قبيلة كندة:

- **وكندة:** قبيلة يمنية كانت تسكن قبل الإسلام غربى حضرموت، وكانت على اتصال بالحميريين.

– وفى عهد حسّان بن تبع، ملك حمير كان حجر بن عمرو سيد كندة.. فتح حسان.. فتوحا كثيرة فى جزيرة العرب: فولى حجرا بعض قبائلها، ودانت كلها لحجر الكندى، كما دان حجر بالولاء لحمير...

– نزل حمير نجدا، وحارب اللخميين، وأزال نفوذهم...

– فرق الحارث بن عمرو الملكَ فى أبنائه الأربعة:

فولى ابنه حُجْراً، أبا امرىء القيس بنى أسَد، وابنه شُرحبيل بكرَ بن وائل وابنه معديكرب قبيلة قيس، وابنه سلمة قبيلتى تغلب، والنمر بن قاسط.

– لم يدم هذا النفوذ طويلا.

– فقد تنكر بنو أسَد لحجر، ونبذوا طاعته، وأمسكوا عن دفع الإتاوة له.

– استعان حجر بجند من ربيعة، وأعمل فى بنى أسد السيف، واستباح أموالهم، وحَبَس أشرافهم.

- ومنهم: عبيد بن الأبرص الشاعر، ثم رقَّ لهم، وأطلق سراحهم،

- حقد بنو أسد على حجر، واغتالوه.

أمَّا أم امرئ القيس: فهي فاطمة، بنت ربيعة بن الحارث، أخت كليب، والمهلهل.

- بلغ الخبر امرأ القيس.

وكان يعاقر الخمر، ويغازل النساء، ويفعل ما يفعله أمثاله من اللهو، واللعب، وتحصيل اللذة، وأخباره في ذلك مشهورة.

- لما بلغه الخبر، وكانت الخمر تدور في رأسه قال:

ضيعني صَغيراً، وحمّلني دَمَهُ كبيراً لا صحو اليومَ، ولا سُكْرَ غداً.

ثم قال:

أرقت لبـــرق بليلٍ أهل يُضيءُ سناه بأعلى الجبَل

أتاني حـديث فكذبتـه بأمـر تزعـزع منه القُلَلْ

بقـتل بني أسـدٍ ربَّهم ألاَ كلُّ شيءٍ سـواه جلل

فأيْن ربيـعـةُ عَنْ ربِّها وأين تميمٌ، وأيْنَ الخَـولُ؟

ألا يحـضـرون لَدَى بابه كما يحضُرون إذا ما استهَل

تصميم امرىء القيس على الانتقام لمقتل أبيه:

استنصر امرؤ القيس القبائل للأخذ بثأر أبيه من بني أسد:

فاستنجد بقبيلتي بكر، وتغلب، وأوقعوا ببني أسد، وقتلوا منهم.

واكتفت بكر، وتغلب بذلك.

وقالوا له: قد أصبت ثأرك، وتركوه..

ولكن الذى فى رأسه عبَّر عنه بقوله:

والله: لا يذهبُ شَـيْـخى بَاطلاَ حَـتَّى أبيـرَ مـالكًا، وكـاهِلاَ

القـاتلين الملكَ الحـلاَ حـلا خـيـر مَـعـدٍّ: حَـسَبًـا، ونائلا

لكن امرأ القيس كان يريد التنكيل ببنى أسد، ويحاول أن يعيد لنفسه ملك أبيه.

ويمثل ذلك قوله: مخاطبًا صاحبَه...

بكَى صَاحبِي لمَّا رأى الدرب دونه وأيْقَن أناَ لاحـقـان بقَـيْـصَـرَا

فـقلت له لاَ تبك عـينك، إنما نحـاولُ ملكًا، أو نموتَ فنعـذرَا

وذهب: بعد ذلك إلى أهله باليمن يستنصرهم، فأعانوه بجنود، ذهب بهم إلى بنى أسَد.

وقد فشل فى ذلك، لأن ملك الحيرة، أخذ يؤلب عليه، ويدس له الدسائس.

امرؤ القيس الشريد:

ظل امرؤ القيس شريداً، يتنقل بين أمراء العرب.

ونزل بتيماء على السموأل فأجاره، وطلب إليه امرؤ القيس أن يكتب إلى الحارث، أمير الغساسنة بالشام، ليوصله إلى قيصر ملك الرومان، ويمهد له الطريق للسفر إلى القسطنطينية يطلب المعونة منه ليعيد إليه ملكه..

فأجابه السموأل إلى طلبه.

أحسن القيصر وفادته، وخطط قيصر للمستقبل فلعل امرأ القيس يكون معوانا للانتقام من أمراء الحيرة.

وقد وعده القيصر بإعادة ملكه، وولاه فلسطين، ولكن هذا لم يرض امرأ القيس، فقفل راجعا .

وفى رحلته إلى القسطنطينية يقول :

سمَا لَكَ شوقٌ بعدَ ما كان أقْصَرَا ... وحلَّت سُليمى بطنَ ظبى، فعرعرا

فدعها، وسلِّ الهمَ عنها بجَسْرة ... ذمُول إذا صَام النهارَ، وهجَّرا

عليها فتى، لم تحمل الأرض مثله ... أبر بميثاق، وأو فى، وأصْبَرا

بكى صَاحِبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقين أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا، أو نموت فنعذرا

... ...

- حذرت خاصة قيصر من العاقبة، فلربما انقلب عليه امرؤ القيس بعد أن يصل إلى بغيته . . .

وقال القوم لقيصر إنه كان يغازل ابنتك، ويراسلها، ويواصلها . . .

صنيع القيصر معه:

أرسل إليه حلة مسمومة، فلما لبسها أسرع فيه السم، وسقط جلده ومن أجل هذا سمى ذا القروح.

ومات بأنقرة، ومات، ودفن بجوار قبر غريبة .

فقال :

أجـــارتَنـا : إنَّ الخطوبَ تَنُوبُ وإنِّى مُقيمٌ مَا أقَامَ عَسيبُ

أجَـارتَنا : إنا غريبان هَا هنَا وكلُّ غريب للغريب نسيبُ

وقد انتهت حياة امرىء القيس : غريبًا ، شريدًا .

وتلك عاقبة البغى ، فالبغى مرتعه وخيم- كما يقال .

ولم ينل من مالك ، وكاهل ما أراد ، وخطط له . .

إذ هو القائل :

والله : لا يذهبُ شيخى باطلا حتَّى أبيرَ مالكًا ، وكاهلاَ

القاتلين الملكَ ، الحُلاَحلاَ خيْر معدٍّ حسبًا ، ونَائلاَ

ولنا بعض الملحوظات، والإيضاحات:

١- حياة امرئ القيس حياة عبث ، ومجون ، وشراب ، وغناء ، وصيد ، وطعام . . . فى أول الأمر . وقد أقصاه والده لذلك .

أما حياته بعد مقتل أبيه ، فقد كانت حياة جد ، وبغى ، وظلم ، واعتداء ، وطموح فى أن ينال الملك . .

٢- لم تذهب عنه الحيلة ، فقد استعان ببعض القبائل العربية ، ولم يقنع بما فعل ، وفعلت . . .

كما استعان ببعض أهله من اليمن . . .

٣- استيقظت الضمائر ، وحالوا بينه ، وبين ما يريد . . .

٤- عاش فترة طريداً ، شريداً ، بين أمراء العرب .

٥- احتال للوصول إلى القيصر، فرحب به ووعده، . . .

٦- لم تفارقه الدسائس . . .

٧- مات طريداً، غريبًا، شريدًا، مقرّحًا . . ودفن كما يدفن الغرباء.

٨- تلك عاقبة البغى، والظلم . . .

٩- لقى مصير خاله المهلهل، الباغى، الظالم، الذى مات باليمن مأسوراً شريداً، طريداً - كما أسلفنا.

١٠- هذه عاقبة الإسراف فى القتل، والاستهتار بالنفس، التى خلقها الله تعالى، وبالإنسان، الذى فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلا.

ولنا تعليق عام

- **هذا الكون**، الفسيح الأرجاء، الواسع النواحي: العُلوية، والسُّفلية، والذى نعيش فيه على ما يشبه الحلقة فى الفَلاَة، كما قال الرسول العظيم... ما أوتينا من العلم إلاّ قليلاً...

- أتانا الله «عزوجل» علمًا يصل بنا إلى العبودية الحقة، الخاشعة، المخبتة، للربوبية، الغنية عنا، والنعمة، والمتفضلة...

كما أتانا علما، أعاننا به على وجوب استعمار الأرض، لنيل الخير، الذى أودعه الله فيها، وأمرها فأطاعت.

كلٌ منا ميسَّرٌ لما خلق له: مما به يعمر الكون، وتستمر الحياة إلى غايتها التى وقَّتها لها ربها «عزوجل» وتتحقق المنافع لبنى البشر..

أمَّا ما زاد على ذلك: فهو من قبيل الترف العلمى..

- وقد خص الله (عز وجل) رسله الكرام بما منحهم منه.... يزيد فى الخلق ما يشاء.

ومن ذلك نقول:

- إن الله (عز وجل) قد خلق هذا الكون من عدم، وفى نظام، ما ترى فيه من تفاوت، وفى تعاقب الليل، والنهار، ودَوَران الشمس، والقمر،... ﴿ كلٌ فى فَلَك يَسْبحُون ﴾...

- هذا الخلق الموزون بميزان حكمة الحكيم، وتقدير العزيز العليم كان مجال تفكير لكل من ألقى السمع، وهو شهيد...

وفى نهاية الأمر لن يختلف ، ولم يختلف اثنان على أن هذا الإبداع إنما هو صنعة مبدع، وإبداع رب عظيم، على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء فى الأرض، ولا فى السماء..

- حاول الناس المعرفة، ولكن أنَّى لعقل مخلوق من التراب أن يدرك عظمة وصفات ربَ الأرْبَاب.

فتقربوا إليه زُلفَى بأشياء من خلقه ظنّا منهم أنها تقربهم منه...

- ولقد تفضل عليهم رب الأرض، والسماء، فأرسل لهم رسلاً، هدوهم إلى الله، لتوحيده، وعبادته، وذكره، وشكره...

* **وأناروا لهم** ظلمات الحياة بوحى الله (عز وجل) عليهم، وكانوا لأممهم الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة...

وسارت بهديهم الحياة للتى هى أقوم، وسلك الناس طريق الأمن، والسلام... وإنك لو أنعمت النظر، وأدَمْتَ الفكر - فى العالمين: العُلْوى، والسُّفلى - وفى نفسك - كما أمرت بذلك... ﴿وفى أنفُسكم أفلا تُبْصِرونَ﴾.

لرأيت كونًا بديعًا، متقن الصنع، موزون الصنعة: بحار، وأنهار، سهول، وجبال، زروع، وأنعام، خصب، وجفاف.... ويخلق ما لا تعلَمُونَ...

وفى كل ذلك:

قام الدليل العقلى: عن أن هذا الخلق صنعة خالق، مبدع. وأن هذا التدبير تدبير من لا يعجزه شيء فى الأرض، ولا فى السماء...

وإذا كانت طبائع الناس، المركوزة فيهم: أن يحبُّوا العظماء، ويتعلقوا بهم، ويحبوا المبدعين...

فإنك تجد نفسك فطرة، وجبلة تقدس هذا الرب العظيم، وتعيش معه فى حالة استحياء، وفى حالة رجاء...

وما أجمل قول من تأمَّل، وأرْخَى لعقله العنَان!، فعاد بما سجله لنا فى قوله:

فيَـا عـجَبًـا: كـيْف يُعْصَى الإلَهُ أمْ كـيف يَجـحـده الجـاحِـدُ؟

إلى أن قال:

وفـى كـلِّ شـىءٍ لـهُ آيـةُ تـدلُّ عـلى أنَّـهُ الـوَاحـدُ

فقد هُدِى للتأمل، وهُدى إلى الحقيقة الصادقة...

وهذا يقودنا إلى التأمل فيما حولنا:

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

(أ) فى عالم غير العقلاء:

علينا أن نتخيل غابة هى من صنع الله (عز وجل)...

فإننا نجد:

كمية البخر من البحر الملح، وصعُود الماء فى جوِّ السماء، وتكثيفه، وتراكمه، وسقوطه مطراً حيث شاءَ الله.

كل ذلك: بميزان الحكمة، وتقدير العزيز العليم...

إذا سقط الماء، نبتت الأعشاب، ونمت الشجيرات، والأشجار. وما ينفع الناس: رِزْقًا لهم، ولأنْعامهم...

وهذا النمو: بتقدير العزيز العليم، وبقدر مَوْزُون...

– يعيش فى الغابة: أكلة الأعشاب، والأعشاب موزونة على قدر أكلتها، أو تزيد

قليلاً: تؤكل الأعشاب أولاً، ثم الشجيرات، ثم أوراق الأشجار...

لو تركت أكلة الأعشاب تتكاثر، دون وزن، لما كفتها الأعشاب.... ولماتت جوعًا... وهذا لن يكون.

لأن ما من دَابَةٍ في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها، ومستودعها..

- خُلِق لأكلة الأعشاب أكلة اللحوم من سباع الوحوش، والطير...

وهنا يحدث التوازن، الذى أقام الله (عز وجل) نظام الكون عليه...

وهناك فائدة أخرى، قد لا تكون ملموسة...

فآكل اللحم حينما يطلب فريسته، يجرى الأقوياء، ولا يقوى على الجرى الضعيف، أو الهزيل، فيكون طعامًا، لأكلة اللحوم....

وهنا يأتى دائمًا النَّسْل القوىّ؛ لأن الضعيف كان طعامًا لأكلة اللحوم...

- وهناك نظام: ركز فى طبائع هذه الضوارى... يأكل الأقوياءُ، ثم الضعفاءُ، ثم سباع الطّيور...

- وقد خلق الله (عز وجل) لهذه البيئة المنظفات: فضلاً منه.. بعد أكل ما تقدم تأتى الضباع، وقد أمدّها الله (عز وجل) بفكوك قوية وريق يفتت العظام، فتأتى الضباع على العظام، وتلحس الدم، وتنظف البيئة تنظيفًا تامًا...

ذلك تقدير العزيز العليم...

ولو كان الأمر بغير هذا التقدير لما استمرت الحياة، ولاختل نظام الكون...

(ب) فى عالم العقلاء:

- خلق الله (عز وجل) أبانا آدم (عليه السلام) ومنه خلقت أُمنا حوَّاء وذلك:

لينجذب البعض إلى كله، وليحنَّ الكل إلى بعضه، كما خلق الألفة ، والرحمة..

- نظام الحياة فى غير العقلاء تولاه رب الأرض، والسماء.

وأما فى العقلاء: فقد وهبهم العقل، وهو مناط التكليف، ووضحت الشرائع نظام الحياة...

وقد ألهم الله (عز وجل) الإنسان إلى ما به قوام حياته من مأكل، ومشرب، وملبس، ومسكن، والأرض مائدة فيها أطايب الحياة...

كما ألهمه ما به استمرار الحياة، وأعطى كلَّ شىءٍ خلقه، ثم هداه للتودد إليه حتى تستمر الحياة إلى غايتها المنشودة...

وذلك: معلوم بالمشاهدة، والنظر.

- ومن أجل أن تستمر الحياة إلى غايتها...

منح الله (عز وجل) الحيوان من الغرائز، ما يحقق ما يلى:

- الحفاظ على الحياة : بالطعام، والشراب، والمأوى،...

- الحفاظ على استمرار الحياة بالتودد إلى أنثاه عند الاقتضاء...

- أدوات الدفاع عن النفس، وهى مختلفة اختلاف الحيوان...

- حب البقاء الذى يدفعه إلى جميع ما تقدم...

كما منح الله (عز وجل) العقـــلاء الدَّوافع، التى تحقق ما تقــدم، كما يحقـــق ما يلائم العقلاء...

- فحب الحياة دافع نفسى، غَرْيزِىّ، يكافح الإنسان فى سبيله...

- والدفاع عن النفس أمر مشروع: حفاظًا على الحياة، وعلى ردع الظالمين.. كما

منح الله (عز وجل) العقلاء: العطف على المظلوم. ونصرته - ما أمكن ذلك - وكُرْه الظالم، ورَدْعه...

وهذا ما لمسناه: فيما عرضنا من نماذج لفوْضَى الجاهلية فى الأخذ بالثأر..

وكل ذلك:

بحكمة الله (عز وجل) الحكيمة «ولوْلاَ دفعُ الله النَّاسَ: بعضَهم ببعْضٍ، لفَسَدَتِ الأرْضُ».

وتجد ذلك حقيقة واقعة مطبقة فيما ذكرنا...

كما أن الناس أُلْهِمُوا: أن القاتل لو نفذ جريمته، ولم يُضْرَب على يده عاث فى الأرض فسَاداً، واختل نظام الكون...

ومن ذلك: جاء الدفاع عن النفس، وما يترتب عليه.

ولقد هدى العقلاء فى عصور الجهالة إلى الحكمة التى صاغوها من واقع حياتهم.

(القتلُ أنفَى للقتل)

والمراد:

أن القاتل: إذا تيقَّن أنه سيؤخذ بجريرته، ويقتل ارتدع، ولم يَمْضِ إلى القتل...

وفى ذلك: حياة القاتل، الذى فكر فى العاقبة، وهو أنه سيقتل... وحياة المقتول الذى لم يقتل ... وبقى على قيد الحياة.

وستأتى تكملة لذلك - إن شاء الله تعالى -

الفصل الخامس
حرمة النفس، والحفاظ عليها ومكانتها في الكتاب والسنة

أولاً: المحرمات، المنهى عنها في سورة الأنعام:

قال الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

هذه الآيات المحكمات، والتى قيل فيها: «قيل: إنهن أم الكتاب»[١]. تنص على التحريم، والنهى لما يأتى:

١- عدم الإشراك بالله (عز وجل)؛ لأن الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

٢ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهى عن العقوق...

٣ - عدم قتل الأولاد من فقر نازل، فالله تعالى: يرزق الآباء، والأبناء...

---

(١) ٢/ ٨٠ الكشاف

٤ - عـدم الاقـتـراب من الفـواحش: مـا ظهـر منهـا، ومـا بطن، حتى لا يقع فى ممارستها..

٥ - عدم قتل النفس التى حرم الله قتلها، إلا بالحق، كالقصاص.. أو الردة..

٦ - عـدم الاقـتـراب من مـال اليـتيم إلا بتـثـمـيره، ومـن كـان من الأولـيـاء غنيّا، فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف...

٧ - العدل فى الكيل، والوزن، وعدم التطفيف، أو البخس،.. لتستقيم الحياة.

٨ - العدل فى القول فى الرضا، والغضب....

٩ - الوفاء بعهود الله تعالى، وبعهود خلقه...

١٠ - اتباع صراط الله (عز وجل) المستقيم، وترك سبل الشياطين...

وفى الآيات المحكمات:

قمة التحريم فيها عن طريق النهى، وقمة واجبات بصيغ الأمر. وهى أحكام لا تختلف باختلاف الأمم، والعصور[1].

ثانياً: فى سورة الإسراء.

قال الله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ

---

(١) ص ١٩٥ صفوة البيان.

السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٢٣- ٣٨].

المحرمات فى السورة الكريمة، وفى الآيات المتقدمة نسوقها كما يلى:

قضى الله (عز وجل) وأمر، وأوجب ما يأتى:

١ - توحيده، وإخلاص العبادة له...

٢ - الإحسان إلى الوالدين، وترك عقوقهما، ومعاملتهما معاملة رقيقة... والدعاء لهما بعد الوفاة، والتصدق عليهما، وخفض الجناح لهما...

٣ - إعطاء أصحاب القرابات حقوقهم من: صلة الرحم، والمودة، والمعاونة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والإنفاق عند الحاجة...

٤ - معاونة المسكين، وإعطاء ابن السبيل، المنقطع، ومد يد المعونة للمحتاج.

٥ - لا تبذّر مالك، حتى لا تقعد ملومًا، محسوراً، بل كن فى الإنفاق بين ذلك سبيلاً، فالمبذر أخو الشيطان والشيطان كفورٌ بأنعم الله...وإن أعرضت عن الإعطاء انتظار خير من الله تعالى فقل قولاً طيبًا...

٦ - لا تقتر فى الإنفاق ، وتوسط فيه، وكن بين ذلك قوامًا...

٧ - لا تبسط يدك كل البسط، فتقعد ملومًا، محسوراً.

٨ - عدم قتل الأولاد، والنهى عن الوأد خشية فقر محتمل، فالله تعالى يرزقهم، وإياكم...

٩ - لا تقربوا الزّنا، ولا مقدماته، فهو فاحشة، وساء عاقبة...

١٠ - لا تقتلوا النفس، التى حرم الله قتلها إلا بالحق، كالقصاص، أو الردة، أو زنا المحصن...

١١ - عدم إسراف ولى المقتول فى القتل، كما كانت الجاهلية تفعل، فقد جعل الله تعالى سلطانًا، وقوة لمن التزم حدوده... وكتب له النصر.

١٢ - الابتعاد عن مال اليتيم، إلا بالطرق التى ذكرناها.

١٣ - الوفاء بعهود الله تعالى، إن العهد كان مسئولاً...

١٤ - توفية الكيل، وعدم التطفيف، أو البخس،...

١٥ - زنوا بميزان الحق، والعدل، فذلك خير، وأنفع، وأجدى..

١٦ - لا تتبعوا عورات الناس، وكونوا من الستارين..

١٧ - المشى فى اعتدال: لا كدبيب المتوامت، ولا كفعل الشطار...

واعلم أنك ضعيف: فلن تستطيع أن تخرق الأرض، ولا أن تتطاول تطاول الجبال.

كل ما تقدم الجسارة، والجرأة فيه ممقوتة عند الله تعالى...

وما أحسن التوسط فى كل شيء!

ثالثا: صفات عباد الرحمن فى سورة الفرقان

قال الله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣: ٧٤].

صفات عباد الرحمن، الذين استفادوا من الوصايا المتقدمة فى السورتين: الأنعام، والإسراء، وأخبتوا لربهم، وانقادوا لطاعته.. وهم الذين يستبقون الكرامة فى درجات الجنات...

والصفات ما يلى:

١- المشى فى تؤدة، ووقار، وحسن سمت، ....

٢- والذين يتحملون ما ينالهم من أذى الجهلاء، ، ويقولون سلام عليكم، لا نبتغى الجاهلين.

٣- من يبيتون سجّداً لله (عز وجل) وقياماً له: أى: يقطعون ليلهم فى سهر، وعبادة، وتقرب، وذكر، وشكر..

٤- مع هذه المنزلة من القرب فهم يخافون من النار، ويطلبون من ربهم أن يصرف عنهم عذابها، فإنه عذاب مؤلم، ملازم،...

٥- الاعتدال فى الإنفاق: فلا تقتير، ولا تبذير، وإنما هو توسط، واعتدال: فهم يتمسكون بفضيلة الاعتدال، التى هى وسط بين رذيلتين: التقتير، والتبذير.

٦- وهم الذين يوحدون ربهم، ولا يشركون به شيئا: شرك عقيدة، أو شرك عمل، وأعمالهم محض وجه الله (عز وجل).

٧- وهم الذين لا يقتلون النفس، التى حرم الله قتلها إلا بالحق، كالقصاص، أو الردة، أو زنا المحصن، أو ترك الصلاة جحداً...

٨- وهم الذين لا يقربون فاحشة الزنا، حتى لا يقعوا فى دائرة الجزاء، الأليم..

٩- وهم الذين لا يشهدون الزور، ولا يحضرون الباطل، ولا يقولون إلا حقا، يرضاه الله (عز وجل).

١٠- وهم الذين إذا مروا بكل ما يجب أن يلغى، ويطرح من قول، أو فعل لا خير فيه، أعرضوا عنه، وأنكروه، وابتعدوا عنه: فهم لا يجالسون أهل الزور، ولا يمالئونهم.

١١- وهم الذين إذا ذكروا بآيات ربهم أكبوا عليها سامعين، مبصرين بآذان واعية، وعيون راعية، منتفعين بها ...

١٢- والذين يطلبون من ربهم الذكر الحسن، بعد مماتهم في ذرية طيبة، فاضلة، تقر بها الأعين، وتفرح، وتكون هذه الذرية قدوة حسنة، وأسوة طيبة للمتقين ...

وما تقدم صفات عباد الرحمن، الذين اتَّصَفُوا بهذه الصفات، واستفادوا من شرائع الله (عز وجل) والمهيمن عليها شريعة سيدنا محمد ﷺ:

ولا يتسع المقام لتفسير جميع الآيات المتقدمة، وإنما مجال ذلك كتب التفسير، وهى كثيرة، منوعة المآخذ، والمشارب ...

وإنما يعنينا أمر القتل، وبشاعته ...

وقد ذكر القتل فى السور الثلاث

ففى سورة الأنعام: النهى عن الوأد، وعن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ...

وفي سورة الإسراء: النهى عن الوأد، وعن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق..

وفى سورة الفرقان: أن عباد الرحمن لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ..

وهكذا: تكرر النهى فى السور الثلاث، لما يترتب على القتل من فساد فى الأرض كبير ..

ثانيا: السنة النبوية الشريفة

نقتفى أثر الذكر الحكيم فى الوصايا المتقدمة ...

من ذلك ما رواه الإمام مسلم عن رواته إلى سيدنا رسول الله ﷺ:

«عن عبادة بن الصامت قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى مجلس، فقال:

تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولاتسرقوا، ولا تقتلوا النفس، التى حرم الله إلا بالحق.

فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئا من ذلك، فعُوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئا من ذلك، فستره الله عليه، فأمره إلى الله: إن شاءعفا عنه، وإن شاء عذب(١).

وقد أخذ الرسول العظيم العهد على النساء - أيضا -.

وعن عبادة بن الصامت قال:

أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء:

ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا..(٢).

كما بايع رسول الله ﷺ النقباء بمثل ما تقدم(٣) وما تقدم يدل دلالة قاطعة على أن الأمر جد خطير، فهويتعلق بأمور يبنى عليها استقرار الحياة، وتجرى سفينتها فى بحر لجى، وريح رُخَاء.. كما بين عليه الصلاة والسلام:

أن من عوقب بجريرته فهو كفارة لما فعل - وسيأتى لذلك تكملة، إن شاء الله تعالى.

- كما أن من ستره الله (عز وجل عليه) فليلزم الستر، ولا يجاهر حتى لا يحرم عفو الله يوم القيامة.

---

(١) ٤/ ٢٩٦ صحيح مسلم.
(٢) ٤/ ٢٩٦ صحيح مسلم.
(٣) ٤/ ٢٩٧ صحيح مسلم.

الفصل السادس
الحدود

١ - مبحث لغوى :

فى المصباح المنير، مادة (حدد) : «.. والحدّ فى اللغة : الفصل، والمنع..

فمن الأوّل قول الشاعر :

وجَاعِلُ الشمسْ حداً ، لا خَفَاءَ به

ومن الثانى : حَدَدْتُه عن أمره، إذا : منعته ، فهو محدود

ومنه : الحدود المقدرة فى الشرع؛ لأنها تمنع من الإقدام...»

وجاء فى معجم مقاييس اللغة، مادة (حد) :

«الحاء، والدال : أصلان :

الأول : المنع.

والثانى : طرف الشىء، فالحدُّ : الحاجز بين الشيئين، وفلان محدود، إذا كان ممنوعًا..

وقال النابغة فى الحدّ، والمنْع :

إلاَّ سُلَيْـمــان، إذْ قَــالَ المليكُ لَهُ ... قُمْ فى البَـرِيَّة، فـاَحــدُدْهَا عَنِ الفند

وحدُّ العاصى : سمى حداً؛ لأنه يمنعه من المعاودة....»

وفى القاموس المحيط، مادة (الحدّ).

والحدّ : الحاجز بين شيئين، ومنتهى الشىء... وتأديب المذنب بما يمنعه، وغيره عن الذنب...»

وفى أساس البلاغة، مادة (ح د د) :

«حدَّه : منعه ، واللهم احدده : وإذا طلع عليهم من كرهوا قالوا : حدَاد حُدَّيْه .

ومن المجاز :

احتد عليه : غضب ، وفيه حدة ، وهو حديد ...»

والمعانى كلها متقاربة .

وجاء صاحب اللسان بفيض عَارِم فى مادة (حدد) :

نغترف منه ما يلى :

«الحدَّ : الفصل بين الشيئين ، لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وجمعه حُدُود ، وفصل ما بين كل شيئين : حدّ بينهما ، ومنتهى كل شيء : حدّ ..

وحد كل شيء : منتهاه ؛ لأنه يرده ، ويمنعه عن التمادى ، والجمع كالجمع . وحد السارق ، وغيره : ما يمنعه عن المعاودة ، ويمنع - أيضا - غيره عن إتيان الجنايات ، وجمعه : حدود .

وحددت الرجل : أقمت عليه الحد ..

والحد : حدّ الزنا ، وحدّ القاذف ، ونحوه مما يقام على من أتى الزنا ، أو القذف ، أو تعاطى السرقة ...

قال الأزهرى :

فحدود الله (عز وجل) ضربان :

ضرب منها حدود حدها للناس فى مطاعمهم ، ومشاربهم ، ومناكحهم ، وغيرها ، مما أحل ، وحرَّم ، وأمر بالانتهاء عما نهى عنه منه ، ونهى عن تعدِّيها .

والضرب الثانى : عقوبات جعلت لمن ركب ما نهى عنه ، كحد السارق ، وهو :

قطع يمينه فى ربع دينار، فصاعداً، وكحد الزانى البكر، وهو : جلد مائة، وتغريب عام، وكحد المحصن إذا زنى، وهو الرجم، وكحد القاذف، وهو : ثمانون جلْدَةً.

سميت حدودا :

لأنها تحد، أىْ تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها.

وسميت الأولى حدودا : لأنها نهايات نهى الله عن تعديها..

... وغير ذلك كثير...

ويمكن ان نأخذ مما تقدم...

أن الله تعالى وضع حدوداً، ونهى عن تعديها، وهذه الحدود فاصلة بين المباح، والممنوع، والحلال والحرام، والنافع، والضار... وأنه تعالى وضع حدوداً لمن تَجاسَر، وارتكب الموبقات، حتى يرتدع المحدود عن ارتكاب ما حد فيه، وغيره، كما يرتدع غيره من الوقوع فى الآثام.

٢ - الحدُود عنْد شرُاح الأحَاديثْ :

كتاب الحدود :

جمع حد. والمذكور فيه - هنا - حد الزنا، والخمر، والسرقة.

وقد حصر بعض العلماء ما قيل بوجوب الحد به في سبعة عشر شيئا...

فمن المتفق عليه :

الردة، والحرابة، ما لم يتب قبل القُدْرَة، والزِّنا، والقذف به، وشرب الخمر سواء أسكر، أم لا، والسرقة.

ومن المختلف فيه :

جحد العارية، وشرب ما يسكر كثيره من غير الخمر، والقذف بغير الزنا،

والتعريض بالقذف، واللواط، ولو بمن يحل نكاحها، وإتيان البهيمة، والسحاق، وتمكين المرأة القرد، وغيره من الدواب من وطئها، والسحر، وترك الصلاة تكاسلا، والفطر فى رمضان.

وهذا كله خارج عما تشرع فيه المقاتلة، كما لو ترك قوم الزكاة، ونصبوا لذلك الحرب.

واصل الحد: ما يحجز بين شيئين، فيمنع اختلاطهما...

وتطلق الحدود، ويراد بها نفس المعاصى، كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

وعلى فعل شيء مقدر، ومنه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الآيـة الأولى من سورة الطلاق.

وكأنها لما فصلت بين الحلال والحرام سميت حدوداً.

فمنها ما زجر عن فعله، ومنها ما حجر من الزيادة عليه، والنقصان منه، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية الأولى من سورة المجادلة. فهو من الممانعة ويحتمل أن يراد: استعمال الحديد، إشارة إلى المقاتلة [1].

وقد نقل الإمام النووى، فى كتاب الحدود

باب حد السرقة، ونصابها

وقال القاضى عياض (رضى الله عنه) :

---

(١) ٢٥/ ١٨٩ فتح البارى بشرح أحاديث البخارى - ابن حجر العسقلانى.

صان الله تعالى الأموال : بإيجاب القطع على السارق، ولم يجعل ذلك فى غير السرقة، كالاختلاس، والانتهاب، والغصب، لأن ذلك قليل بالنسبة إلى السرقة، ولأنه يمكن استرجاع هذا النوع بالاستدعاء إلى ولاة الأمور، وتسهيل إقامة البينة عليه.

بخلاف السرقة، فإنها تندر إقامة البينة عليها، فعظم أمرها، واشتدت عقوبتها؛ ليكون أبلغ فى الزجر عنها.

وقد أجمع المسلمون على قطع السَّارِق فى الجملة، وإن اختلفوا فى فروع منه..»[1]

وقد استهل الإمام مسلم كتاب الحدود بحديث السيدة عائشة (رضى الله عنها).

«.. عن عائشة قالت : كان رسول الله (ﷺ) يقطعُ السَّارق فى رُبْع دِينَار، فصاعداً..»[2].

والمراد: أن السارق : إذا سرق ما قيمته ربع دينار، فصاعداً قطعت يده... هذه اليد التى امتدت إلى السرقة رخصت ، وهانت...

أما اليد العفة : فإنها محترمة، عالية القدر، فلو جنى جان على أحد ظلما، وقطع يده كانت دية اليد - إن لم يكن قصاص - نصف دية القتيل...

ومن ذلك : قال المعرِّى :

يَدٌ بِخَمْسِين عسجد وُدِيَتْ ... ما بَالُهَا قُطعَتْ فى ربْعِ دينَارِ؟

---

(١) ٤/ ٢٥٨ شرح النووى لصحيح مسلم.
(٢) ٤/ ٢٥٨ صحيح مسلم.

فأجابه علم الدين السخاوى :

عـزُّ الأمَـانة أغْـلاهَا، وأرْخَـصَـهَـا ذُلُّ الخِـيَـانة، فـافْـهم حكمـةَ البَـارِى

وعن عائشة (رضى الله عنها) :

« .. قالت : لم تُقْطَع يد سارق فى عهد رسول الله (ﷺ) :

فى أقلّ من ثمن المجنّ : جَحَفَة، أو تُرْس، وكلاهما ذو ثَمَن .. »[1]

والجحفة : الدرقة.

وقال الإمام النووى : فى الشرح : قال العلماء :

والحرز مشروط، فلا قطع إلا فيما سرق من حِرز.

والمعتبر فيه العرف : ممّا عدّه أهل العرف حرزًا، لذلك الشىء، فهو حرز له، ومالاَ فَلاَ... ولم يشترط دَاوُد الحِرزَ.

قــالوا : ويشترط ألا يكون للسارق فى المسروق شبهة، فإن كانت لم يقطع. ويشترط : أن يطالب المسروق منه بالمال.

وأجمعوا على أنه إذا سرق أولاً قطعت يده اليمنى... فإذا سرق ثانيًا قطعت رجله اليسرى، فإذا سرق ثالثا قطعت يده اليسرى، فإن سرق رابعًا قطعت رجله اليمنى.

وإن سرق بعد ذلك عزّر، وكلما سرق عزّر.

قال الشافعى، وأبو حنيفة، ومالك، والجماهير : تقطع اليد من الرسغ : وهو : المفصل بين الكف، والذراع، وتقطع الرجل من المفصل بين الساق، والقدم.

---

(١) ٤ / ٢٦٠ صحيح مسلم.

وقال على (رضى الله عنه) :

تقطع الرجل من شطر القدم. وبه قال أحمد، وأبو ثور.

وقال بعض السلف : تقطع اليد من المرفق. وقال بعضهم: من المنكب، والله أعلم»[١].

وقد نص الرسول العظيم :

بأن الأمر لو وصل إلى ولى الأمر فى السرقة فلا شفاعة لسارق. حيث قال لأسامة (رضى الله عنه) :

«.. أَتَشفعْ فى حَدٌ منْ حُدُود الله»؟[٢]

كما وضع القاعدة والقانون: التَّسَاوِى بين الناس فى إقامة الحدود :

حيث قال :

«.. أيها الناس: إنما أهْلَك، الذيَن قبلكم: أنهمْ كانُوا إذَا سَرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقامُوا عليه الحدّ. وايْمُ الله: لو أن فاطمة بنت محمد سَرَقت لقطعتُ يَدَهَا»[٣]

٣ - الحدود فى القرآن الكريم

كلمة «حُدود» ذكرت فى القرآن الكريم فى ١٤ آية كريمة... وقد تكرر الكلمة فى الآية أكثر من مرة.. ولنأخذ الآية الأولى ، التى وردت فيها كلمة حدود.

وذلك فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

---

(١) ٤ / ٢٦٢ شرح النووى لصحيح مسلم.

(٢)، (٣) ٤ / ٢٦٣ صحيح مسلم.

ويقول جار الله :

«تلك : الأحكام التى ذكرت حدود الله، فلا تقربوها، فلا تَغْشَوها، فإن قلت : كيف قيل : فلا تقربوها، مع قوله : «فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله؟

قلت : من كان فى طاعة الله، والعمل بشرائعه، فهو متصرف فى حيز الحق، فنهى أن يتعداه؛ لأن من تعداه وقع فى حيز الباطل.

ثم بولغ فى ذلك، فنهى أن يقرب الحد، الذى هو الحاجز بين حيِّزى الحق، والباطل؛ لئلا يدانى الباطل، وأن يكون فى الواسطة، متباعداً عن الطرف، فضلا عن أن يَتَخطَّاه، كما قال رسول الله (ﷺ) : إن لكلِّ ملكٍ حِمى، وحِمى الله محارِمُه، فَمَن رَتع حَوْلَ الحِمَى، يوشك أنْ يَقع فيه...»[1]

وفى صفوة البيان...

«تلك حدود الله، فلا تعتدوها» أى : محارمه، ومناهيه فلا تقربوها، أو أحكامه المضمنة لما نهاكم عنه، فلا تقربوا ما نهيتم عنه.

حدود الله : منهياته، ومحرماته»[2]

ويقول القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن :

«تلك حدود الله، أى : هذه الأحكام حدود الله، فلا تخالفوها، فتلك : إشارة إلى هذه الأوامر، والنواهى.

والحدود : الحواجز، والحد : المنع.

ومنه سمى الحديد حديداً، لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن، وسمى

---

(١) ١/٣٢٣ الكشاف.

(٢) ١/٤٤ صفوة البيان لمعانى القرآن.

البواب، والسجان حدَّادا؛ لأنه يمنع من فى الدار من الخروج منها، ويمنع الخارج من الدخول فيها.

وسميت حدود الله: لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها.

ومنها سميت الحدود فى المعاصى؛ لأنها تمنع أصحابها من العود إلى أمثالها..»[١].

وقال أبو حيان فى البحر المحيط:

«... إشارة إلى ما تضمنته آية الصيام من أولها إلى هنا.

وكانت آية الصيام قد تضمنت عدة أوامر، والأمر بالشيء نهى عن ضِدّه، فبهذا الاعتبار كانت عدة مناهي..

فلا تقربوها: النهى عن القربان للحدود أبلغ من النهى عن الالتباس بها..

وقال أبو مسلم:

معنى «لا تقربوها: لا تتعرضوا لها بالتغيير، كقوله تعالى:

«ولا تَقْرَبُوا مال اليتيم، إلاَّ بالَّتِى هى أَحْسَنُ»[٢].

٤ - الحدود عند الفقهاء

الحدود: جمع حَدّ.

والحدُّ: فى الأصل: يطلق على الشيء، الذى يحجز بين شيئين. وهو فى اللغة: بمعنى المنع، والحجز...

---

(١) ١/ ٧١٢ الجامع لأحكام القرآن.

(٢) ٢/ ٥٤ البحر المحيط..

والحدود شرعًا : العقوبات، التى حددتها، وأوجبتها شريعة الإسلام، على من يرتكب جريمة نهى الله (عز وجل) عنها.

وحكمة مشروعية الحدود : شرع الله (عز وجل) الحدود، وأمر بتنفيذها على المرتكبين للجرائم، والمنكرات.

وذلك لما يأتى : صيانة لأنفس الناس، ولأعراضهم، ولأموالهم؛ لأن كثيراً من الناس إذا عرفوا أن وقوعهم فى هذه الجرائم سيؤدى إلى محاسبتهم، ومعاقبتهم بالعقوبات الرادعة لهم امتنعوا عن ارتكاب هذه الجرائم. وإذا لم يعاقبوا، وعرفوا ذلك عاثوا فى الأرض الفساد، وتسلط الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، والكبير على الصغير.

والعقوبات، والحدود: جوابر للذنوب، التى اقترفها الآثمون، كما أنها زواجر لغيرهم مَن تسوّل لهم أنفسهم العبث، والإجرام.

وفى إقامة الحدود : اطمئنان للمجتمع، وأمان على أنفس الناس، وأموالهم..
وفى القصاص: حياة للناس: المعتدِى، والمعتَدى عليه.

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «حدّ يُعْمَل به فى الأرض خيرٌ لأَهْل الأرض من أنْ يُمْطَروا أربعيَن صبَاحًا»

وفى حديث آخر : «من حالت شفاعته دون إقامة حد من حدود الله تعالى فهو مُضَاد لله (عز وجل) فى أمره».

والخلاصة : فإن فى إقامة الحدود الأمان كل الأمان، وخلق المجتمعات المثالية»[1].

---

(١) ٣/١٤٨، ١٤٩ الفقه الميسَّر - لنا -

وجاء في «تيسير فتح القريب ، المجيب» – لنا –

«الحدود» : جمع حَدّ، والحد لغة : المنع

وسميت العقوبات حدوداً، لأنها تحدّ، وتمنع من ارتكاب الفواحش، لأن العلم بعقوبة الفاحشة يحدّ من مقارفتها.

وشرعًا : عقوبة مقدّرة وجبت على من ارتكب موجبها.

وحكمة مشروعية الحدود : الزّجر عن ارتكاب ما يوجبها من الفواحش.

وقيل : إنها جوابر، أي : تمحو الذنب، وتجبر ما حدث بسببه .

والقولان : جوابر، وزواجر مشهوران.

والراجح : أنها زواجر في حق الكافر، وجوابر في حق المسلم (١).

ونجعل مسك الختام في هذا المبحث : السؤال التالي :

هل الحدود جوابر، أم زواجر؟

وقد جرى في ذلك خلاف قديم؟ ولكل من فريقي الاختلاف وجهه، ووجاهته.

ونورد ذلك ملخصا – بفتح الله تعالى، ومشيئته فيما يلي :

معنى أن الحدود زواجر : أنها تزجر من ارتكب شيئا منها عن المعاودة، كما تزجر غيره عن الوقوع فيها.

ومعنى أنها جوابر : أنها تكفر الذنب، وتمحوه، فلا يحاسب المحدود يوم القيامة فيما أقيم عليه الحد فيه.

وقد اتجه العلماء اتجاهين :

---

(١) ٣/ ٣٤، ٣٥ تيسير فتح القريب المجيب – لنا – .

الأول : وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : إنَّ الحدود جوابر، أى : تكفر الذنب، الذى أقدم عليه من أقيم عليه الحد .

وأصحاب هذا الاتجاه يستدلون بما يلى : لقد أقيم حدُّ الزنا بالرجم على مَاعز، الذى أقر بالزنا أمام الرسول العظيم أربع مرات . .

وقد رجم. وقال عنه الرسول الأمين: إنه تاب توبة، لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. . .

كما أقام الحد على الْغَامديَّة، التى أقرت بالزنا، وترك تنفيذ الرجم حتى تلد، وحتى ترضع، فأتت بمولودها، وفى يده كسرة، فأقيم عليها الحد . .

ونعتها الرسول الأمين بنعت كريم . .

وأصحاب هذا الاتجاه: يقولون: إن الحد جبر الذنب، والله تعالى أكرم من أن يعذب عبداً، أقيم عليه الحد، وكَرِه الحياةَ بعد أن اقترف المعصية، واستعجل الموت ليستريح من سياط الضمير، التى تعذبه، وتؤرقه.

الثانى : وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن : الحدود زَوَاجر. أى أنها :
تزجر المحدود من الوقوع فيما حد فيه مرة أخرى.
وتزجر غير المحدود: ممَّن تسوِّل له نفسه اقتراف ما يوجب الحد.

ودليل أصحاب الرأى الثانى :

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآية ٣٣ من سورة المائدة.

والذى تستريح إليه النفس، وتطمئن إليه :

أن الحــدود جــوابر : وذلك أن مـن اقـتـرف إثمـا من الآثام، التى توجب على صاحبها الحدّ، وذكر مقام ربه. وعلم أنه اجترأ على اقتراف المعصية - مع أن الله تعالى يسمعه، ويراه - وأن الحياء من الله لم يحل بينه، وبين ما اقترف، ضاقت عليه الأرض بما رحبت حينما عاد الوعى. وفضل الموت على حياة تؤرقه فيها أشباح فاحشته وتاب وقدم نفسه للحد. فإن المرجو من رب رحيم أن يجبر كسرهُ، ويغفر ذنبه.

ومـــثل ذلك: مَنْ أقيمت عليه البينة بأنه ارتكب الفاحشة، وأُقيم عليه الحدّ.. فخزيه فى الدنيا : بنظرات الناس إليه، مع ما ناله من إقامة الحد عليه.. وقد كان الفضلاء من الناس إذا ما قطعت لهم يد فى غير حدّ يحملون معهم شهادة فى أن القطع لم يكن لحدّ، وإنما كان لشىء آخر.. حتى يفروا من النظرات المحدقة لهم.

وهـكـذا : فى جميع الحدود المقررة، والموضوع لكل حد منها نوع من العقوبة.. جَزَاءً، وفاقا.....

ومع أن الحدود جَوَابر، فإنها زَوَاجر - أيضًا - فلا تنافى بين الوصفين لأن من أقيم عليه الحد، ينزجر عن الوقوع فى مثل ما أقيم عليه الحد فيه، كما ينزجر غيره، إذا تأمل حالته..

والنتـيـجـة : عدم الوقوع فى المنهيات، وعدم ارتكاب الفواحش، وحياة المجتمعات فى أمن، وأمان، وسلم، وسلام...

والحـقـيـقـة : أنه لو فكر عاقل فى الآثار المترتبة على ارتكاب الفاحشة لما ارتكبها، ولما اقترب منها..

ومن ذلك : نرى الرسول الأمين يقول : «لا يزْنى الزَّانى حينَ يزْنى، وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمر حين يشربُها، وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارِق حين يسرق، وهو مؤمنٌ»

ولعل المراد : أن من يرتكب هذه الجرائم، وما ماثلها إنما هو مسلوب موجبات الإيمان من الخوف من الله تعالى، والحياء منه، وتقدير العواقب، ونيل الجزاء فى الدنيا، وفى الآخرة.. وإن فى كل ذنب يرتكبه مذنب ناحيتان :

الأولى : حق الله عز وجل، وتعدى حدوده، والجسارة على فعل المعصية.

والثانية : حق العباد؛ لأنه سلبهم مالهم، أو أزهق أنفسهم، أو وقع فى أعراضهم...

ونختتم هذا البحث بمسألة خاض بعض الناس فيها بآخرة، منكرين حد الرجم للمحصن..

ونقول : رجم المحصن ثابت بآية كريمة، نسخت قراءتها، وبقى حكمها، وهى : «الشيخ، والشيخة إذا زَنيَا، فارجموهُمَا البتة نكالا من الله، والله عزيز حكيم»[1] وكذلك بما فعله الرسول الأمين.

والجرائم، التى وضعت لها حدود كثيرة، وقد كانت العقوبة جزاء لفعل الفاحشة : من ذلك :

١ - فاحشة الزنَا، واللّواط، منه...

٢ - فاحشة قذف المحصنات..

---

(١) ٢ / ٤١ الإتقان فى علوم القرآن.

٣ - فاحشة شرب الخمر...

٤ - فاحشة السرقة ...

٥ - الحرَابة، وقطاع الطريق...

٦ - البُغَاة.

٧ - الرِّدة

٨ - تارك الصلاة جحداً.

٩ - الجناية على النفس، أو ما دونها...

وقد تقدم ذكر لذلك - فيما تقدم - .

والكلام عما تقدم فى كتابينا :

١ - تيسير فتح القريب، المجيب.

٢ - الفقه الميسر.

والذى يهمنا فى هذا البحث إنما هو :

الجِناية على النفس، أو ما دونها: وهو الذى نكمل به كتابنا - إن شاء الله تعالى: «الثأر....»

الفصل السابع

تمهيـــد :

قد قدمنا - بعون الله تعالى، وفتحه - فى الفصول السابقة طرائق الجاهلية الجهلاء «فى الأخذ بالثأر»

وبيَّنا أنهم: ما كانوا ينامون على ثأر، وأن أخطاءهم فى الأخذ بالثأر كانت الآتى:

١ - قَتْل زَعيم بنَاب من الإبل، ... وما ماثل ذلك.

٢ - الإسراف فى القتلى : البرىء بالمسىء، وأنهم كانوا يعملون على تدمير أعدائهم، وحلفائهم..

٣ - ما كانوا يأخذون الجانى بجنايته، وإنما يمتد إلى قبيلته، وحلفائها..

٤ - لم يقنعهم قتل العشرات فى واحد، وأنهم يتحرقون تعَطُّشًا للدماء..

٥ - التمثيل بالمقتول، مبالغة فى التشفى، والانتقام..

٦ - دوام القتل، وإسالة الدماء بين فريقين عشرات السنين...

٧ - نشوب الحرب لأتفه الأسباب كالرِّهان على فرسين: أيهما أسرع جريًا ؟

٨ - قد تتحرك الضمائر عند التمادى فى القتل، والإسراف فيه، فتقف مع المظلوم، وتردع الظالم، ويعتدل الميزان، ولكن بعد أن تكون الأرض قد ملئت دمًا، وتحتها أشلاء القتلى..

٩ - كما يندر وجود المصلح - أيضا - وقد يأتى بعد حَرْب دامت أربعين سنة..

وقد صاغوا حكمتهم، من تجاربهم الطويلة فى الحروب، والقتل حينما قالوا : «القَتْلُ أنْفَى للقَتْلِ»

والمراد : أن القاتل: إذا فكر فى قتل المقتول، وعلم أنه سيقتل به ارتدع عن القتل فكان فى ذلك حياة القاتل حتى لا يقتل قصَاصًا، وحياة الذى كان سيقتل...

وهم يريدون : أن قتل القاتل، والأخذ بالثأر من القاتل ينفى القتل..

وجاء دستور الإسلام الحنيف، فقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ الآية ١٧٩ من سورة البقرة. وقال : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ الآية ٤٥ من سورة المائدة.

ويقول السيوطى :

«وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾

فإن معناه كثير، ولفظه قليل؛ لأن معناه: أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَل قُتِلَ كان ذلك داعيًا إلى أنه لا يقدم على القتل.

فارتفع بالقتل، الذى هو القِصَاص كثير من قتل الناس: بعضهم لبعض وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

وقد فضلت هذه الجملة على أَوْجَزِ ما كان عند العرب فى هذا المعنى، وهو قولهم: «القتلُ أَنْفَى للقَتْلِ» بعشرين وجها، أو أكثر...»[1]

ومن ذلك نقول :

١ - إن قتل القاتل قصاصًا منه، متفقٌ عليه فى المثل الجاهلى، وفى دستور الإسلام... بطريقة الإسلام فى القصاص.

٢ - والمختلف فيه : ما كانت الجاهلية تفعله مما ذكرنا فى الأخذ بالثأر من الإفْسادِ فى الأرض، وكثرة القتلى، وركوب الرأس فى الأخذ بالثأر، ومن المؤلم حقا: أن الجاهلية كانت تمثل بالمقتول: شفاء للنفس، المتحرقة للثأر، والمتعطشة للدماء..

---

(١) انظرها فى ٢ / ٩٣ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى.

وقد نهى الإسلام عن ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧ من سورة النحل.

ويقول جار الله :

« .. والمعنى : إن صُنع بكم صنيع سَوْء من قتل، أو نحوه، فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه ..

روى أن المشركين مثّلوا بالمسلمين يوم أُحُد : بقَروا بُطُونَهم، وقطعوا مذاكيرهم ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب.

فوقف رسول الله (ﷺ) على حمزة، وقد مُثل به، وروى : فرآه مبْقُور البَطْن، فقال : أما، والذى أحلف به، لئن أظفرنى الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك، فنزلت : فكفَّر عن يمينه، وكف عمَّا أراده ...[1]

الرسول العظيم - وقد هاله ما رأى من التمثيل بالمسلمين، وبعمه حمزة ورضى الله عنهم أجمعين، قال ما قال : تهدئة لنفسه الحزينة ..

لكن الله (عز وجل) رَدَّه إلى أمرين :

احدهما : العقوبة بالمثل، إن عاقب، وأتى «بإن» التى هى للشك ..

وثانيها : الصَّبْر، والاحتساب عند الله عز وجل.

وهى مرتبة أرقى من الأولى، لأنه بعث هادياً، ولم يبعث غازياً ..

---

(١) ٢/ ٦٤٤، ٦٤٥ الكشاف .

وفحوى ما تقدم : أن جهل الجاهلين: إن عوقب بجهل مثله، فليس يزاد في العقوبة، تكرمًا، وسماحة.

وإذا كانت فضيلة الصبر، فذلك خير للصابرين.. ونتيجته :
- حفظ الدماء، واستبقاء الحياة.
- تأليف القلوب، والإحسان إلى المسيء...
- تخفيف منابع الأخذ بالثأر - ما أمكن ذلك - .
- عودة الأمن، والأمان إلى الحياة..
- تحقيق السلام الخاص، والعام.

دستور الإسلام في القصاص

جاءت كلمة «القصاص» في القرآن الكريم في أربع آيات هي : ما يلي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية ١٧٨ من سورة البقرة.

٢ - وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الآية ١٧٩ من سورة البقرة.

٣ - وقال تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

٤ - وقـال تعـالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الآية ٤٥ من ســـورة المائدة.

وكل ما تقدم فى إطار قوله تعالى :
﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴾ الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

والمراد : لا تحاربوا مهاجمين، وإنما حاربوا مدافعين..

ولم يثبت أن الرسول الأمين، وخلفاءه الكرام، .. أنهم حاربوا مهاجمين، وإنما حاربوا مدافعين عن العقيدة، وعن بَيْضَة الإسلام...

وفى إطار ، وامتثال قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الآية ٣٩ من سورة الحج

وفى إطار الحكمة العامة :
قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الآية ٤٠ من سورة الحج.

وعلينا أن نلقى الأضواء، ونأخذ مما قاله عظماء المفسرين.. فيما تقدم ما يلى :
الآية الأولى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾

يقول جار الله :

«.. والقصَاص ثابت بين العبد، والحر، والذكر، والأنثى. ويستدلون بقوله ﷺ :

«المسلمون تتكافأ دماؤهم، وبأن التفاضل غير معتبر فى الأنفس، بدليل: أن جماعة لو قتلوا واحداً قُتلُوا به.

وروى أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء فى الجاهلية، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا: لنقتلنّ الحر منكم بالعبد منا، والذكر بالأنثى، والاثنين بالواحد، فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الإسلام، فنزلت، «وأمرهم أن يَتَبَاوءُوا..»[1]

ومما تقدم إذا تمسك أولياء المقتول بالقصاص من القاتل.. فإن آثروا العفو عن القاتل، وأخذ دية المقتول فهناك وصيتان:

أ - بالنسبة لولى الدم: عليه أن يطالب بالدية، مع اتباع العرف السائد فى ذلك، وألا يرهق عصبة القاتل..

ب - وعلى أولياء المقتول أداء الدية بإحسان..

وعلى من غدر - كما كانت الجاهلية تفعل - بعد أخذ الدية، وقَتَل، فله عذاب أليم فى الآخرة.

وقال قتادة : العذاب الأليم: أن يقتل لا محالةَ، ولا يقبل منه دية»[2]

ويقول البيضاوى :

بعد أن ذكر قصة الحيين، المتقدمة.

«.. ولا تدل على ألا يقتل الحر بالعبد، والذكر بالأنثى، كما لا تدل على حكمه، فإن المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص غرض، سوى اختصاص الحكم، وقد بينا ما كان الغرض.

---

(١) ١/ ٢٢٠، ٢٢١ الكشاف .

(٢) ١/ ٢٢٢ الكشاف.

وإنما منع مالك، والشافعي (رضي الله عنهما) قتل الحر بالعبد، سواء كان عبده، أو عبد غيره. لما روى علي (رضي الله تعالى عنه) : أن رجلاً قتل عبدَه، فجلده الرسول ﷺ، ونفاه سنة، ولم يقده به..(١)

ويقول الشيخ حسنين محمد مخلوف : «كتب عليكم القصاص» أى : فرض عليكم من الكتْب.

وهو فى الأصل : ضم أديم إلى أديم بالخياطة.

وتعورف فى ضم الحروف : بعضها إلى بعض بالخط، وأطلق على المضموم فى اللفظ، وإن لم يكتب بالخط، ومنه : الكتابة.

ويطلق الكتب، والكتاب، والكتابة : على الإيجاب والفرض

لأن الشأن فيما يوجب، ويفرض أن يراد، ثم يقال، ثم يكتب. ومنه «كُتب عليكم الصيام»

والقصاص : تتبع الدم بالقود. وأصله من «القصّ» وهو : تتبع الأثر، يقال : قصَّ أَثَرَه، أى : تتبعه، ومنه : القصَّة، والقَصَص.. لما فيهما من التتبع. «فمنْ عُفِيَ لَـهُ» اى : فالقاتل عمدًا، إذا عفى له عن جنايته، من جهة أخيه : ولى الدم بأن صفح عنه من القصاص، الواجب عليه، ورضى منه بالدية، بدل الدم.

فالواجب : اتباع ولى الدم له بالمعروف : بألا يأخذ منه أكثر من حقه، ولا يرهقه. وأداء القاتل إليه الدية أداءً حسنا، لا مطل فيه، ولابخس.

وفى العفو تسهيل على القاتل، وفى شرع الدِّية نفع لأولياء المقتول(٢)

---

(١) ص ٣٩ تفسير البيضاوى.

(٢) ص ٤١، ٤٢ صفوة البيان.

وقد تبحر القرطبى فى شرح الآية الكريمة، نغترف منه ما يلى :

- كان فى بنى إسرائيل القِصاص، ولم تكن فيهم الدِّية..
- خفف الله (عز وجل) على هذه الأمة بجواز قبول الدية..
- العفو : قبول الدية فى العمد.
- يتبع بمعروف، ويؤدى بإحسان.
- فى ذلك تخفيف على هذه الأمة عما كان قبلها..
- القصاص : مكتوب، ومفروض، وحتم، ولازم؛ للحياة، والأحياء،..
- **صور القصاص**: هو : أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولى القتل الاستسلام لأمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع.

وأن الولى فرض عليه الوقوف عند قاتل وليه، وترك التعدى إلى غيره، كما كانت العرب تتعدى، فتقتل غير القاتل.

قال ﷺ «إنَّ من أعْتَى النَّاسِ على الله يوم القيامة ثلاثة: رَجُل قَتَل غير قاتله، ورجل قتل فى الحرم، ورجل أخذ بذحول الجاهلية»

لا خلاف أن القصاص فى القتل، لا يقيمه إلا أولو الأمر : فرض عليهم : النهوض بالقصاص، وغيره من الحدود[1]

ونستطيع أن نأخذ، وأن نستنبط مما تقدم ما يلى :

١ - القصاص، فريضة محكمة، وحتم، وواجب، ولازم: حفاظا على الحياة، والأحياء.

٢- القصاص فقط كان لمن قبلنا، وخفف عنا بالقصاص، أو الدية فى القتل العمد. لما فى ذلك : من مصلحة القاتل، وأولياء المقتول.

(١) انظر بقية الأحكام الفقهية فى ١ / ٦٢٣، ٦٣٣ الجامع لأحكام القرآن.

٣ - كما كان القاتل مستجيبا لأمر الله تعالى بالقصاص، فعليه أن يؤدى بالمعروف، وعدم المماطلة، وكما كان ولى المقتول سمحًا بقبوله الدية فعليه أن يؤدى بإحسان.. وفى ذلك : تأليف للقلوب، ورأب للصدع..

٤ - النهى عن الغَدْر، كما كانت الجاهلية تفعل : تأخذ الدية، ثم تقتل..

٥ - عدم قتل غير القاتل، كما كانت الجاهلية تفعل.

٦ - عدم التمثيل بجسم الآدمى : احتراما للموت، ولأنه صنعة الله (عز وجل)

٧ - عدم الإسراف فى القتل - كما كانت الجاهلية تفعل مما أوضحناه..

٨ - عدم جواز القتال إلا دفاعا عن النفس، والحرم، والحرمات.

٩ - العقاب بالمثل، إن ارتضى القصاص..

١٠ - العفو، وأخذ الدية فى القتل العمد : فيه منفعة للقاتل، ولولى المقتول، وللمجتمع كله..

١١ - عدم اللجوء إلى الإبادة الجماعية - كما كانت الجاهلية تفعل..

وغيـر ذلك : لمن ألقى السمع، وهو شهيد، وتأمّل فى دستور الله (عز وجل) الذى وضعه لإصلاح أمر عباده فى الدين، والدنيا، والآخرة.

الآية الثانية :

قول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الآية ١٧٩ من سورة البقرة

يقول جار الله : «ولكم فى القصاص حياة»

كلام فصيح، لما فيه من الغرابة. وهو : أن القصاص قتل، وتفويت للحياة، وقد جعل مكانا وظرفا للحياة.

ومن إصابة عين البلاغة بتعريف القصاص، وتنكير الحياة، لأن المعنى : ولكم فى هذا الجنس من الحكم، الذى هو القصاص حياة عظيمة.

وذلك : أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة، ويقع بينهم التنافر.

فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة، أى حياة، أو نوع من الحياة، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل.

لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص فارتدع منه سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القَوَد.

فكان القصاص سبب حياة نفسين[1].

وفى كلام جار الله إجادة، وإفادة..

ويقول القرطبى: ما خلاصته: هذا من الكلام البليغ الوجيز.. ومعناه: لا يقتل بعضكم بعضا. **والمعنى**: أن القصاص إذا أقيم، وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر، مخافة أن يقتص منه، فحييا بذلك معا.

- **اتفق أئمة الفتوى**: على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه، دون السلطان. وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض..

- وفَسَّرَ القرطبى «لعلكم تتقون» بقوله : والمراد هنا: تتقون القتل، فتسلمون من القصاص[2]

وفى صفوة البيان: «ولكم فى القصاص حياة» : أى لكم فى تشريع القصاص

(١) ١/ ٣٢٢، ٣٢٣ الكشاف.
(٢) ١/ ٦٣٣ إلى ٦٣٥ الجامع لأحكام القرآن.

فى القـتل العـمـد بقـاء . فإن من هم بالقـتل إذا علم أنه إذا قـتل اقـتص منه ارتدع ، وانكف فسلم هو ، وسلم صاحبه من القتل .

ومن قتل إنسانا ، واقتص منه ارتدع غيره ممن كان يهم بالقتل ، فسلم الناس من يده .

ولولا هذا التشريع الحكيم العادل لفَشَا القتل بين الناس فشوّ صغائر الذنوب ، وهان أمر الدماء على الناس(١) .

وكلام الشيخ مخلوف له وجاهته ، وقد أقلّ الحزَّ ، وطبّق المِفْصَل .

ويقول أبو حيان فى البحر المحيط : ما خلاصته :

«الحياة التى فى القصاص ، هى : أن الإنسان إذا علم أنه إذا قَتَل قُتِل أمسك عن القتل ، فكان فى ذلك حياة له ، والذى امتنع عن قتله .

فمشروعية القصاص مصلحة عامة ، وإبقاء القاتل ، والعفو عنه مصلحة خاصة به ، فتقدم المصلحة العامة ، لتعذر الجمع بينهما . .

وكانت العرب إذا قتل الرجل حمى قبيله أن تقتص منه فيقتتلون ، ويفضى ذلك إلى قتل عدد كبير .

فلما شرع القصاص رَضُوا به ، وسلموا القاتل للقود ، وصالحوا على الدية ، وتركوا القتال فكان لهم فى ذلك حياة . .

وقالت العرب : ما يقرب من هذا المعنى «القتل أوْقَى للقَتْل» وقالوا : « . . أنْفَى للقَتْل» ، « . . . وأكفّ للقَتْل»

---

(١) ص ٤٢ صفوة البيان .

وذكر العلماء تفاوت ما بين الكلامين من البلاغة من وجوه... [1] ولنا تعليق على ما تقدم :

١ - حقا : إن الله يعلمُ من خَلَق، وهو اللطيف ، الخبير.

٢ - شرع لمن خلق ما يحفظ الحياة، والمال، والعرض.. وما به تكون الحياة حياة طيبة..

٣ - في القصاص: حياة القاتل، والمقتول.

٤ - في القصاص زجر القاتل، والمقتول، وزجر غيرهما..

٥ - في القصاص : الأمن، والأمان، والسلم، والسلام..

٦ - الحياة الحقة : ما كانت ترفرف عليها رايات التقوى، والخوف من الله تعالى، والاستحياء منه، والعمل لمرضاته..

الآية الثالثة :

قال الله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

يقول أبو حيان في النهر : ... الآية نزلت في عمرة القضاء عام الحديبية، وكان المشركون قاتلوهم ذلك العام في الشهر الحرام، هو : ذو القعدة.

فقيل لهم: عند خروجهم لعمرة القضاء، وكراهيتهم القتال، وذلك في ذي القعدة، والشهر الحرام بالشهر الحرام، أي : انتهاك حرمة الشهر الحرام كائن بانتهاك حرمة الشهر الحرام. و«الْ» فيهما للعهد.

---

(١) انظرها في ٢/ ١٥، ١٦ البحر المحيط.

والحـرمــات: أى : حرمة الشهر ، وحرمة البلد ، والقطّان حين دخلتم.. فمن اعتدى عليكم : هو من التدريج فى أمر القتال[١].

ويقول فى البحر المحيط : «واتقوا الله» أمر بتقوى الله ، فيدخل فيه اتقاؤه : بألا يتعدى الإنسان فى القصاص إلى ما لا يحل له[٢].

ويقول جار الله : «.. أى هذا الشهر بذلك الشهر ، وهتكه بهتكه.

يعنى : تهتكون حرمته عليهم، كما هتكوا حرمته عليكم.

والحرمات قصاصٌ: أى : وكل حرمة يجرى فيها القصاص من هتك حرمة، أى حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة.

فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك، ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله : «فمن اعتدى عليكم...»

واتقوا الله : فى حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم[٣].

وجاء فى صفوة البيان : «الشهر الحرام بالشهر الحرام» : بيان للحكمة فى إباحة القتال فى الأشهر الحرم.

وقد وقع من المشركين يومَ الحديبية قتال خفيف بالرمى بالسهام، والحجارة :

أى: هذا الشهر الحرام، الذى تؤدُّون فيه عمرة القضاء بذلك الشهر، الذى قوتلتم فيه قتالا خفيفا.

---

(١) ٢/ ٦٩، ٧٠ النهر.
(٢) ٢/ ٧٠ البحر المحيط.
(٣) ١/ ٢٣٧ الكشاف.

فإذا بَدَءُوا بانتهاك حرمته بالقتال، فلا تبالوا أن تقاتلوهم فيــه، لابتدائهم بهتك حرمته.

أو فلمـا لم تمنع حرمتـه المشركين من الشـرك، والأفعـال القـبيحة، فكيف تمنع المؤمنين من قتالهم، دَفْعًا، لشرورِهم، وإصلاحا لفسادهم.

«والحرمات قصاص» :

جمع: حرمة، وهى مامنع من انتهاكه، والقصاص المساواة. أى : وكل حرمة يجرى فيها القصاص، فمن هتك أية حرمة اقتص منه بأن تهتك له حرمة.

والمــــراد : أنهم أقدموا على مقاتلتكم فى الحرم، والشهر الحرام، والإحرام فقاتلوهم أنتم - أيضا - على سبيل القصاص.

ثم أكــد ذلك بقــوله : «فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ»(١)

ونستنبط مما تقدم ما يلى :

- لله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين...

- من كتب لهم العزة، وأيَّدهم بها لا ينبغى لهم أن يقفوا موقف الضعف، والذلة أمام أعداء ، باغين ، ظالمين.

- لا تعتدوا، وردوا الاعتداء، فإذا انتهك أعداؤكم حرمة، فعاملوهم بالمثل.

- لا تزيدوا على ردّ الاعتداء، وأخذ حقوقكم..

- الله (عز وجل) مع من يعمل لتقواه فى كل ما أمر، ونهى...

---

(١) ص ٤٦ صفوة البيان.

الآية الرابعة :

قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الآية ٤٥ من سورة المائدة

ونأخذ من كلام جار الله ما يلي :

- في مصحف أُبي، وأنزل الله على بني إسرائيل فيها .
- وفيه : وأن الجروح قصاص .
- قرئت المعطوفات : منصُوبة، ومرفوعة .

- والرفع : للعطف على محل «أن النفس» ؛ لأن المعنى : وكتبنا عليهم النفس بالنفس، إما لإجراء «كتبنا» مجرى قلنا، وإما لأن معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب، كما تقع عليه القراءة، تقول : كَتَبْتُ الحمد لله .

- الزجاج يقول : لو قرئ : إن النفس بالنفس - بالكسر - لكان صحيحا، أو للاستئناف . والمعنى : فرضنا عليهم فيها .

- أن النفس، مأخوذة بالنفس، مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق وكذلك العين : مفقوءة بالعين، والأنف مجدوع، بالأنف، والاذن مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن .

- والجروح قصاص، ذات قصاص، وهو : المقاصة . ومعناه : ما يمكن فيه القصاص، وتعرف المساواة .

- وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) : كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، فنزلت : أما قوله «من تصدق به» من تصدق من أصحاب الحق به، أي : بالقصاص، وعفا عنه،

فهو كفارة له، فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة، كسائر طاعاته..»[1] وكلام جار الله غنى عن التعليق عليه.

ومن الجامع لأحكام القرآن - نأخذ ما يلى :

- سوى رب العزة فى التوراة بين النفس، والنفس، فخالفوا فى ذلك فضلُّوا.

- كانت دية النَّضيرىّ أكثر، وكان النَّضيرىّ لا يقتل بالقُرَظىّ، ويقتل به القرظىّ.

- لما أشرق نور الإسلام على الدنيا راجع بنو قريظة رسول الله ﷺ، فيه، فحكم بالاستواء.

- قالت بنو النضير: «قط حططت منا» فنزلت هذه الآية: كتبنا: بمعنى فرضنا.

- كان شرعهم القصاص، أو العفو، وما كان فيهم الدية..

- جاء فى الحديث الشريف: «المؤْمنُونَ تتكافأ دماؤُهُم، وهم يدٌ على من سوَاهُم..»

- جاءت الآية الكريمة للرد على اليهود فى المفاضلة بين القبائل، وأخذهم من قبيلة رجلا برجل، ومن قبيلة أخرى رجلا برجلين.

- شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد ناسخ.

- قال أصحاب الشافعى، وأبو حنيفة: إذا جرح، أو قطع الأذن، أو اليد، ثم قتل فعل ذلك به، لأن الله تعالى قال: «وكتبنا عليهم فيها..»

- الآية الكريمة: تدل على سريان القصاص فيما ذكر.

- أجمع العلماء: على أن العينين إذا أصيبتا خطأ ففيهما الدية، وفى العين الواحدة نصف الدية، وفى عين الأعور، إذا فقئت الدية كاملة...

---

(١) ١/ ٦٣٨ الكشاف.

رُوِىَ ذلك عن جمع من الصحابة، والأئمة، وأمراء المسلمين...
وقيل: نصف الدية.

- إذا فقأ الأعور عين صحيح، عليه الدية كاملة، ولا يقتص منه..[1]
وانظر بقية الأحكام الفقهية الهامة..[2]

وفى صفوة البيان مايلى: «فمن تصدق به فهو كفارة له»
فمن عفا من أصحاب الحق عن القصاص، وتصدق به على الجانى فذلك كفارة لذنوبه. والضمير فى «له» يعود على المتصدق[3].

ونأخذ من الآية الكريمة، ومن تفسير المتقدمين لها ما يلى:
١ - الإنسان، الذى صوره ربه، فأحسن تصويره، وجعله فى أحسن تقويم، وفضله على كثير ممَّن خلق تفضيلا.

ينبغى لهذا الإنسان أن يحافظ على نفسه، وعلى جوارحه الهامة، حتى يستطيع أن يؤدى دوره فى مجتمعه، الذى يعيش فيه أداء طيبا، ويتفاعل مع غيره تفاعلا سويًا، ويؤدى ما عليه من استخلافه فى الأرض، ومن مطالبته بإعمارها، على حسب ما يقوى عليه من أعمال.. ونفسه ملك لربه، وكذلك جوارحه، فوجبت المحافظة التامة..

وينبغى لغيره: ألا تحمله الحدة، وألا يذهب به الغضب مذهبا، مشينا يترتب عليه اعتداء على نفس كرمها الله تعالى، وصانها.. فيقتل، أو يعطل جارحة من الجوارح، حفاظا على أمن المجتمع، وعلى عدم وجود المعوقين به، والذين يكونون عيالا على غيرهم، وقوى معطلة فى المجتمع...

---

(١) ٢/٢١٨٨ الجامع لأحكام القرآن.
(٢) ٢/٢١٨٩ الجامع لأحكام القرآن.
(٣) ص ١٥١ صفوة البيان.

٢ – إن حدث اعتداء، وقتل لنفس، حرم الله قتلها، وكان ذلك بغير حق وجب القصاص جزاءً وفاقًا..

٣ – خفف الله (عز وجل) عن هذه الأمة، فجعل بديل القصاص أخذ الدية إن رضى أولياء الدم، وذلك : تخفيف من الله تعالى ، ورحمة، ونفع للجميع..

٤ – المذكورات فى الآية الكريمة: العين، الأنف، الأذن، السن.. يجرى على من اعتدى عليها القصاص.

٥ – مثل ذلك : سائر الجراحات الأخرى.

٦ – إذا وجب القصاص فيما تقدم، وسمحت نفس المجنى عليه، وعفا فذلك تفضل منه، يجازيه الله (عز وجل) عليه جزاء وفاقا..

بعد ما تقدم نقول : ما أرْحَم الله (عز وجل) حتى مع أعدائه !

ما أعْدَلَ الله (عز وجل) حتى مع أعدائه !

يقول (عز من قائل) :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

فى صفوة البيان : «ولا تعتدوا بقتال من لم يعد نفسه له، كالصبيان، والنساء، والعجزة، ونحوهم. أو لا يكن منكم اعتداء بالقتال بوجه من الوجوه»[1]

ويقول القرطبى : «ولا تعتدوا فى قتل النساء، والصبيان، والرهبان، وشبههم..

قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح القولين فى السنة، والنظر. **فأما السنة** : فحديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك،

---

(١) ص ٤٥ صفوة البيان.

ونهى عن قتل النساء، والصبيان» رواه الأئمة.

وأمـــا النظر : فإن «فَاعَل» لا يكون - في الغالب - إلا من اثنين كالمقاتلة، والمشاتَمة، والمخاصَمة.

والقتال لا يكون في النساء، ولا في الصبيان، ومن أشبههم، كالرهبان، والزَّمنى، والشيوخ، والأجَرَاء، فلا يقتلون.

وبهذا : أوصى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام: ألا أن يكون لهؤلاء إذَايَة[1] وللعلماء فيهم صور ست[2]

وما أصدق ما قاله الرسول الأمين - في هذا الشأن - ! :

«منْ لاَ يَرْحم لا يُرْحَم» : فمن لم يرحم نفسه، وظلمها بالكفر، لا يُرْحَم، إذا قَاتَل.. ومن لم يرحم نفسه، وظلمها بالتعدّى على الحُرَم، والحُرُمَات، لا يرحم بترك قتاله، وردّ عدوانه.. أما من لم يرفع سيفًا، ولم يقاتل فإنه لا يقتل؛ لأنه رحم نفسه بترك القتال، فيرحم من القتل..

ما أعظم الشرع الحنيف!

فقد أمَر بعدم قتال النساء؛ لأنهن لم يقاتلن، فإن قاتلن فشأن آخر. وأمر بعدم قتل الصِّبيان؛ لأنهم لم يقاتلوا، ولم يَجرِ عليهم تكليف.. وأمر بعدم قتل الزَّمنى: وهم الذين بهم إعاقة دائمة، لأى سبب من الأسباب وأمر بعدم قتل الشيوخ؛ لأنهم لم يقاتلوا، ولا قدرة لهم على القتال، ورحمة الله أوسع فلا يجمع عليهم أدْواء الشيخوخة، والقتل في المعارك. وأمر بعدم قتل الرهبان، ومن محّضوا أنفسهم للعبادة..

---

(١) ١ / ٧٢٢، ٧٢٣ الجامع لأحكام القرآن.

(٢) انظر الصور الست، وأحكامها في ١ / ٧٢٣، ٧٢٤ الجامع لأحكام القرآن.

ويقاس على من تقدم أشباههم ممن لم يقاتلوا، ورحمتهم مشروعة.. أما من ظلم نفسه بالكفر، وظلمها بالاعتداء على المعتقدات، والمقدسات، وعلى المسلمين، فإنه لا يرحم؛ لأنه لايستحق الرحمة: فمن لم يرحم لا يرحم.

وينبغي أن يعامل معاملة مَنْ لا يستحقُّ الرأفة فى دين الله...

- الزانية، والزانى :

نص القرآن على جلد كل منهما مائة جلدة، وأوجب على الحكام أن يُقيموا حد الله.... هذا عند عدم الإحصان: أى : سبق التزوّج.... وتغريب عام.

فإن كان إحصان يرجم كل منهما - بنص الآية التى نسخت تلاوتها، وبقى حكمها - وقد تقدم ذلك. وبما فعله الرسول الأمين ﷺ من الرجم مِرارًا.

ويقول (عز من قائل) :

« وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ » : رحمة، ورقة قلب. فى دين الله فى إقامة حده، الذى شرعه تعالى، إذا رفع إليهم (يريد الحكام) تحملكم على تعطيله بشفاعة، أو بغيرها.

يقال: رأف به : مثلثة : رأفة، ورآفة، ورأفا : إذا رحمه[1].

ويقول القرطبى، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ الآية ٢ من سورة النور.

يقول: «أى : لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقة على المحدود. ولا تخفّفوا الضرب من غير إيجاع».

هذا قول جماعة التفسير.

---

(١) ص ٤٤٦ صفوة البيان.

وقال الشَّعبيّ، والنخَعيّ، وسعيد بن جُبَيْر: «لا تأخذكم بهما رأفة» قالوا: فى الضرب، والجلد.

وقال أبو هريرة (رضى الله عنه): «إقامة حدٌّ بأرْضٍ خيرٌ لأَهْلها من مطر أربعين ليلة، ثم قرأ هذه الآية».

والرأفة: أرق الرحمة... «فى دين الله» أى: حكم الله.

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ الآية ٧٦ من سورة يوسف.

«وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين». قيل: لا يشهد التعذيب إلا من لا يستحق التأديب.

قال مجاهد: رجل فما فوقه إلى ألف...[1]

ونأخذ مما تقدم مايلى:

١ - الزناة: تجاسروا وتخطوا حدود الله تعالى بارتكاب الفاحشة، فلا رحمة لهم، ولا رأفة..

٢ - على الحكام أن ينفذوا أوامر الله، وأحكامه، دون نظر إلى شىء آخر..

٣ - التجرد من كل عاطفة، والعمل لما يرضاه الله (عز وجل).

٤ - عند إقامة الحد يشهد عذابها طائفة من المؤمنين...

٥ - وذلك: لزجر من تسول له نفسه ارتكاب الفاحشة..

---

(١) انظر ٥ / ٤٥٥٧، ٤٥٥٨ الجامع لأحكام القرآن.

أنواع القتل، وحد كل نوع

تمهيـــد :

نقدم بين يدى هذا البحث ما يلى :

– جاء عن الصادق الأمين : «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعونٌ من هدم بنيانه» وفى ذلك : ما يدل على الجُرم، والفحش فى قتل النفس، التى حرم الله إلا بالحق.

وفى الحديث الشريف : «لزوال الدُّنيا، أهون على الله من قَتْل امرئٍ مسلم». وفى الحديث الشريف : «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه : آيس من رحمة الله».

وفى الحديث الشريف : «لو أن رجلاً، قتل بالمشرق، وآخر رضى بالمغرب، لأشرك فى دمه»[1].

وفى جميع ما تقدم حرمة النفس، المؤمنة، وجريمة قتلها بغير حق... وذلك يعطى : الحفاظ على النفس، واحترام دم المؤمن..

ومن ذلك : جاءت الآية الكريمة : قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ الآية ٩٢ من سورة النساء.

---

(١) انظر الحديث فى ١ / ٥٤٩ الكشاف.
وانظر التخريج فى هامش ١ / ٥٤٩ الكشاف.

ويقول جار الله، فى قوله تعالى : «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ» : وما صح له، ولا استقام، ولا لاَقَ بحاله. كقوله : «وما كان لنبى أنْ يَغلّ»، «وما يكون لنا أن نعود فيها» أى : لا ينبغى لمؤمن أن يقتل مؤمنا ابتداء، غير قصاص. «إلا خطأ» أى : على وجه الخطأ.

والمراد : لا يجوز بحال من الأحوال، ولا يستساغ، ولا يصح لمؤمن أن يعمد إلى قتل مؤمن، ويهدم بنيان الله (عز وجل).

واستثنى «بإلاَّ» الاستثنائية : القتل الخطأ.

ومن صور القتل الخطأ :

- يرمى المؤمن كافرا، فيصيب مؤمنا.
- يرمى المؤمن شخصا على أنه كافر، فإذا هو مسلم.
- يرمى المؤمن صيدا من طير، وغيره، فيصيب مسلماً.

وما شابه ذلك :

وهنا نقول : لم يتوفر عنصر القصد - بقتل المسلم، وإنما وقع على سبيل الخطأ..

والحكم الشرعى إذا وقع القتل الخطأ : يجب على من قتل خطأ :

أ - عتق رقبة، وتحريرها - إن وجدت - . والمراد برقبة مؤمنة : كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء.

ب - دفع دية إلى أهل المقتول خطأ، يقتسمونها، كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها، وبين سائر التركة فى كل شىء : يقضى منها الدين، وتنفذ الوصية. وترد إلى بيت مال المسلمين عند عدم الوارث..

---

(١) انظر فيما تقدم ١ / ٥٤٩، ٥٥٠ الكشاف.

والـديــة : تتحملها عن القاتل قتلا خطأ عاقلته، فإن لم تكن له عاقلة فهى فى بيت المال، فإن لم يكن ففى ماله.

والدية : تدفع لأولياء الدم. ويستثنى من دفع الدية : العَفْو عن القاتل قتلا خطأ، والتصدق عليه بها... وهذا مقبول من أولياء الدم، ومحمود،..

ومثله قوله تعالى : «إلا أن يعْفُونَ» ومثل «وأنْ تصدَّقُوا خيرٌ لَكُمْ». وجاء عن الصادق الأمين ﷺ : «كلُّ معرُوفٍ صَدَقَةٌ».

أما إذا كان المقتول خطأ من قوم أعداء للمسلمين، وهم كفار أهل حرب.

وصــورة ذلك : أن يسلم رجل من بين قوم كفار، ويظل بينهم لم يفارقهم فقتل على أنه كافر منهم. والحكم الشرعى فى مثل هذه الحالة :

أ - عتق رقبة مؤمنة.. ولا دية : لأن الدية ستكون لمن يقوّى نفسه بها على حرب المسلمين.

أما إذا كان المقتول قتلا خطأ من قوم كفرة، لهم ذمة كالمشركين، الذين عاهدوا المسلمين. ومثلهم أهل الذمة من الكتابيين.

والحكم الشرعى فى هذه الحالة : حكم مسلم من مسلمين. ومن لا يملك رقبة، ولا ما يتوصل به إليها فعليه أن يصوم شهرين متتابعين قُبُولاً من الله تعالى، ورحمة منه[1].

والتوبة تمحو الإثم، والصوم طاعة، وإخبات إلى الله تعالى، وعود إلى تلمس رحمته، التى وسعت كل شىء.

---

(١) انظر ١ / ٥٥٠ الكشاف.

ونقتطف من ثمار صفوة البيان ما يلى :
- تحرير رقبة مؤمنة، أى : إعتاق نسمة مؤمنة.
- الدية لورثة المقتول خطأ، تقسم بين الورثة.
- والمقتول خطأ، إن كان من قوم محاربين، وهو مؤمن، وقد قتله مسلم فتحرير رقبة مؤمنة، ولا دية له.

وإن كان المقتول خطأ من المعاهدين.. فعلى القاتل دية مؤداة إلى أهله المسلمين - إن وجدوا - ولا تدفع للكفار[1].

القتل العمد :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ الآية ٩٣ من سورة النساء.

فى صفوة البيان : «.. المراد من الخلود هنا : المكث الطويل، لا الدوام. لتظاهر النصوص : على أن عصاة المؤمنين لا يخلدون فى النار.

والجمهور: على أن القاتل إذا تاب، وأناب، وعمل عملا صالحا بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته، وأرضاه عن طلابته، وما قيل : من أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً محمول على التغليظ فى الزجر[2]

ونلمم بكتاب الفقه الميسر - لنا - فنأخذ منه الأحكام الآتية :

١ - القتل : إزهاق الروح الإنسانية ، سواء أكان ذلك على سبيل التعمد، أم شبه التعمد، أم الخطأ.

---

(١) ص ١٢٦ صفوة البيان.
(٢) ص ١٢٦ صفوة البيان.

٢ - أقسام القتل :

أ - القــتل العــمــد، وهو : أن يتعمد الإنسان المكلف قتل إنسان آخر ظلما، وعدوانا بآلة يغلب على الظن القتل بها.

ويتحقق القتل العمد بما يلى : إذا كان القاتل بالغا، عاقلا، متعمداً قتل غيره، الذى لا يستحق القتل شرعا.. وعند تحقق الشروط المتقدمة يجب القصاص... فى ترك القصاص فتنة فى الأرض، وفساد كبير.

ب - القتل شبه العمد : وهو أن يقصد المكلف قتل إنسان آخر، معصوم الدم، أى: لا يستحق القتل شرعا بآلة، أو أداة لا تؤدى إلى القتل فى الغالب.. وهذا هو شبه العمد.

وتجب فى القتل شبه العمد دية مغلظة، يدفعها القاتل، وعاقلته إلى أولياء المقتول.

ويرى المالكيــــة : أن القتل إذا كان بآلة ، لا تقتل غالبا، كالعصا، والسوط، والصفعة، وما يشبه ذلك.. فإن القتل فى هذه الحالة، يعد من باب القتل العمد، وفيه القود، أى : القصاص.

لأن الأصل عندهم: عدم اعتبار الآلة فى إزهاق النفس، لأن كل ما أدى إلى إزهاق الروح عن قصد ففيه القصاص.

جـ - القــتل الخطأ : هو : أن يرمى إنسان صيداً بسلاحه، فيصيب إنسانا خطأ بهذا السلاح، فيقتله، دون أن يقصد قتله بحال من الأحوال.

وحكم القتل الخطأ :

- الدية على العاقلة لأولياء المقتول.
- وعلى القاتل الكفارة: عتق، أو صيام.

والشافعية : يجيزون الإطعام للعجز، أو المرض.. وعدم القدرة على الصوم.

د - **القتل العمد** : من أكبر الكبائر، ومن أعظم الذنوب لحرمة الإنسان عند الله (عز وجل) وتكريمه..

وقد تقدمت الآية الكريمة فى عقوبة القتل العمد..

ويعززها قول الله تعالى : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ الآية ٣٢ من سورة المائدة. وقد تقدمت الأحاديث الشريفة فى ذلك..[1]

جزاء القتل العمد :

- القصاص : مع شناعة الجريمة.

وجاء فى الحديث الشريف : قال (ﷺ) : «العمْد قَوَدٌ، إلا أن يَعْفُوَ وَلِىُّ المقتول». أى : القتل العمد يوجب قتل القاتل، إلا إذا عفا عنه أولياء المقتول.

وحكم القتل شبه العمد:

الإثم ، والذنب على القاتل، وإن كانت العقوبة أخف من القتل العمد. وعلى القاتل، وعاقلته دية مغلظة، تدفع إلى أولياء المقتول.

وحكم القتل الخطأ :

على القاتل: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. وعلى القاتل دية مخففة لأولياء المقتول.

ثبوت القِصَاص على القاتل :

يثبت بما يلى :

---

(١) انظر ص ١٧٧ إلى ١٨٠ الفقه الميسر - لنا - .

١ - شهـادة رجلين عـادلين. وذلك: لأن القـصـاص عقـوبة خطيـرة تؤدى إلى الموت، فيجب أن يُحْتَاطَ لها.
٢ - بالإقرار، وهو سيد الأدلة.
٣ - القَسَامَة(١)

من الذى يقوم بالقصاص؟

دُسْتُورُنَا فى ذلك قوله الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ الآية ٣٣ من سورة الإسراء.

تضمنت الآية الكريمة ما يلى:

١ - النهى عن قتل النفس، التى حرم الله قتلها، وهو القتل اعتداء، وظلما،..

٢ - استثنى مِنَ القتل مَنْ يقتل بالحق، والقتل بالحق:
أ - الرِّدَّة عن الإسلام، والعياذ بالله تعالى.
ب - من يقتل مؤمنا، متعمدا: ظالما..
جـ - الزانى (المحصن) الذى سبق له زواج، أو المتزوج.

٣ - السلطان العظيم: فى القتل قصاصًا، أو الدِّيَة لولى المقتول..

٤ - النهى عن الإسراف فى القتل لولى الدم، وذلك: بعدم عمل ما يلى:
أ - قتل غير القاتل، لاعتبارات تعود إلى الجاهلية.
ب - قتل أكثر من واحد فى واحد..

---

(١) انظر القسامة، والشروط، وما يتعلق بها فى ٢ / ٢٥٢ إلى ٢٥٤ شــرح أبى الحسن، لرســالة ابن أبى زيد القيروانى.

وفي ذلك يقول مُهَلهل :

كلُّ قَـــتِـــيلٍ في كُلَيْب غُـــرّهْ ... حـــتّى ينَالَ الْقَـــتلُ آلَ مُـــرّهْ

الغـرة : الرقيق. ويريد : كل قتيل قتلناه في هذه القبيلة ليس كفؤًا لمن قتلوه منا حتى يصل قتلنا آل مرة، فهم كفؤه[1]

جـ- التمثيل بالمقتول .

د - قتل غير القاتل، إذا لم يكن القاتل بواء أي: سواء، أي: يتساوى في عرفهم مع القتيل...

حـ- وعد كريم من ربّ عظيم بنصرة ولي الدم للمقتول ظلمًا، وعدوانًا..

ويقول جار الله في ذلك : في قوله تعالى : «إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً»

«الضمير : إما للولي، يعني حسبه أن الله قد نصره : بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك، وبأن الله قد نصره بمعونة السلطان، وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق، فلا يبغي ما وراء حقه.

وإما للمظلوم، لأن الله ناصره، وحيث أوجب القصاص بقتله، وبنصره في الآخرة بالثواب.

وإما للذي يقتله الولي بغير حق، ويسرف في قتله، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف[2]

وقد نقل أبو حيان في البحر المحيط عبارة جار الله، المتقدمة[3] ونقتطف من ثمار القرطبي في الجامع لأحكام القرآن مايلي :

---

(١) ٢/ ٦٦٤ الكشاف .

(٢) ٢/ ٦٦٥ الكشاف.

(٣) ٦/ ٣٤ البحر المحيط.

- ولى الدم: هو : مستحق الدم.
- كما نقل عن ابن حويز منداد: الولى يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير.

وقيل : الولى : الوارث.

رَدَّ القرطبى على من قال: إن الولى يكون ذكرا بقوله : «وأما ما ذكروه من أن الولى فى ظاهره على التذكير، وهو واحد كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى فيه المذكر، والمؤنث...

- وفسر «سُلْطانا» أى : تسليطًا: إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية[1]

ويمكننا أن نأخذ مما تقدم الأحكام الفقهية الآتية :

١ - حرمة قتل النفس، وهدم بنيان الله (عز وجل).

٢ - النهى عن قتل النفس، التى حرم الله قتلها إلا بحق القتل.

٣ - حق القتل فى واحدة من ثلاث.

أ - الردة، والكفر، (أعاذنا الله من ذلك).

ب - قتل نفس بغير نفس، أى : ظلما، وعدوانا، وبغْيًا.

جـ - الزانى المحصن، والزانية المحصنة.

د - المقتول ظلما : من لم يكن واحدا ممن تقدم ذكرهم...

٤ - ولى الدم : المستحق للدم، أو الورثة.

٥ - السلطان: ولى من لا ولىَّ له وسلطان من له ولى، ومعين، وناصر..

---

(١) ٦ / ٣٨٧٠ إلى ٣٨٧٢ الجامع لأحكام القرآن.

٦ - النهى عن الإسراف فى القتل. وقد تقدمت صور ذلك.

٧ - لمن السُّلْطَان؟

أ - للسلطان الشرعى.. فله تنفيذ الحدود،...

ب - لولى الدم... فله: القصاص، والدية، والعفو.

جـ - للمقتول ظلما: بالثواب الأخروى...

د - للمجتمع الذى حدث فيه القتل، فهم أعوان لولى الدم...

هـ - لكل من أعان على إحقاق حق، وإبطال باطل...

الدِّيَــــة

تشريع من الله (عز وجل) لهـذه الأمة، إذا لم يكن فيمن تقدم إلا القِصَاص.

وفيها المنافع الآتية :

أ - استحياء نفس كانت تستحق القتل.

ب - نفع لورثة المقتول، يعيشون عليه، ويستفيدون منه.

جـ - إذا كانت الدية على عاقلة القاتل ففيها: والعاقلة : العصبة

- التعاون الاجتماعى.
- التماسك الأُسْرِىّ.

د- التواصى بالحق، وبالخير، حتى لا تتعرض العاقلة لكثير من الديات، والأخذ على يد من تسوّل له نفسه الاجتراء على جريمة القتل..

وفى القتل الخطأ على عاقلة الجانى، وحتى يحسب لكل خطوة حسابها، ولا يسير على غير هدى.. أما مقدار الدية، وأنواعها، فقد مرت بالمراحل الآتية.

- عند الجاهليين كانوا يقدرونها على حسب الحالة، التى رضى أولياء الدم فيها بالدية وقدم تقدم: أن أبا جسَّاس عرض على مهلهل ألف ناقة سود المقل، ولم يرض مهلهل بذلك.

- استقر الأمر على مائة من الإبل تنحر، ولا يذبح عبد الله بن عبد المطلب...
- وأقر الإسلام الحنيف هذا العدد من الإبل، وصارت المائة دية النفس..

ولفقهاء الإسلام اجتهادات فى الدية، ومِمّ تؤخذ؟ نسوقها ملخصة من الجامع لأحكام القرآن، **فنقول**:

١ - ثبتت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن الدية مائة من الإبل وقد فعل ذلك الرسول ﷺ الأمين، فأكد الفعل القول.

٢ - أجمع أهل العلم: على أن الدية على أهل الإبل مائة من الإبل.

٣ - اختلفوا على غير أهل الإبل فيما يجب عليهم.

وذلك: على النحو التالى:

أ - على أهل الذهب ألف دينار. وهم أهل الشام، ومصر، والمغرب.

ب - أهل الورق: اثنا عشر ألف درهم. وهم أهل العراق، وفارس، وخراسان.

وأبو حنيفة (رضى الله عنه) يرى أن الدية على أهل الوَرِق عشرة آلاف درهم.

جـ - أهل البقر: مائتا بقرة.

د - على أهل الشاة: ألف شاة.

هـ - على أهل الحُلَل: مائتا حلة.[1]

وقد ذكر القرطبى أسنان دية الإبل.[2]

كما ذكر ما تحمله العاقلة من الدِّية[3]

---

(١) ٣ / ١٨٨٦ الجامع لأحكام القرآن.
(٢) ٣ / ١٨٨٧ الجامع لأحكام القرآن.
(٣) ٣ / ١٨٨٩ الجامع لأحكام القرآن.

خاتمـــة

نسأل الله حسنها بمنه، وكرمه

١ - كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ خاتمة الرسالات ، وهى الرسالة العامة الشاملة.

أ - للملائكة : للتشريف.

٢ - للإنس، والجنّ للتكليف.

فلا تنسخها رسالة أخرى، إذ الرسول العظيم خاتم الأنبياء، والمرسلين. نزل عليه القرآن الكريم، وفيه خبر من قبلنا، ونبأ من بعدنا، وهو المهيْمنُ ، والحفيظ على الكتب السماوية كلها...

وكانت أمته وسطًا : خياراً، وعُدُولاً، وهم شهداء على الأمم المتقدمة..

لذلك كله : كانت شريعة الرسول العظيم متكاملة فى كلّ شىء...

أ - فيما يتعلق بالإنسان وربه.

ب - فيما يتعلق بالإنسان وأسرته الصغيرة.

جـ - فيما يتعلق بالإنسان وأسرته الكبيرة ، التى يعيش بين ظهرانيها.

د - فيما يتعلق بالإنسان، ومجتمعه الكبير، والأكبر : الإنسانية جمعاء..

وقد جاء القرآن الكريم بكل ذلك .

وكانت الشريعة الغراء مفصلة، وموضحة، وتطبيقا عمليًا لكل شىء.. ولأنّ القرآن العظيم، وهو كتاب الحياة، والأحياء تنزيل من حكيم حميد، وكان تنزيلا ممَّن خَلَق، ويعلم من خَلَق، ويختار لمن خلق التى هى أقوم فى أمور الدين، والدنيا، والآخرة.

وجاءت السنة النبوية المطهرة، فكانت التطبيق العملى، المستنير.. من أجل ذلك: جاء قول من لم ينطق عن الهوى :

«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لنْ تضلُّوا بعدى أبدًا: كتابَ الله، وسنَّتى» وقد صدق الصادق الأمين كل الصدق.

والشاهد على ذلك ما يلى : أن الرسول العظيم جمع - بحكمته - فلول العرب، وأشتاتهم، ووحد بين قلوبهم المتفرقة، وأهواءهم المتباعدة، فكانوا أمة فتحت لها أغلاق القلوب قبل أن تفتح الأبواب، وسادت، وقادَتْ..

ولقد أعد الرسول الأمين المجتمع المدنى، ليكون المجتمع الأمثل، والنموذج للمجتمعات الإسلامية كلها.. مجتمع المدينة المنورة (على ساكنها أفضل الصلاة، وأتم التسليم)

هذا المجتمع ، الذى صمد للعواصف ، بعد انتقال الرسول الأمين ﷺ للرفيق الأعلى.. أرسل جيش أسامة - ردَّ المرتدين عن ردتهم - ردَّ مانعى الزكاة إلى الصواب، حارب المتنبئين، حرَّر العراق العربى من النفوذ الفارسى، والشام العربى من النفوذ الرومى.. وعم نوره، وسماحته، وعدله معظم أرجاء المعمورة...

ولعل سائلا يسأل ، فيقول : كيف تمَّ ذلك فى سنين معدودة..؟ ونجيب عن ذلك بما يلى :

أ - الإيمان الصادق ، والثقة فى الله، والتوكل عليه، والاعتزاز به، وطلب النصرة منه.

ب - تنفيذ أوامر الله (عز وجل) واجتناب نواهيه، ورد كل خلاف إلى الله، ورسوله...

جـ - عدم التعلّق بالحياة . فالمؤمن يرجو إحدى الحسنيين : النصر على العدو ، أو الشهادة فى قتاله ، ودخول الجنة .

د - وجود الأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة فى الرسول العظيم . .

هـ - وجود القدوة الصالحة فى المجتمع من الصحابة العظماء ، والتابعين الأمناء . .

و - عدم الانغماس فى مباهج الحياة الدنيا ، وترك الخشونة . .

ز - إيمان كل واحد : بأن عليه واجبًا نحو ربه ، ودينه ، ومجتمعه ، والمجتمع الإنسانى . .

ح - التربية الإسلامية ، الحقّة ، التى آتت ثمارها فى مسلمين أُصَلاَء ، فُضَلاَء . .

٢ - طبيعة الاجتماع البشرى :

علينا أن ندرك قبل كل شىء : أن حكمة الله (عز وجل) اقتضت أن يخلق الناس ، ولهم دوافع متباينة ، ونزعات مختلفة . .

وان ذلك : مرادٌ للحكيم العليم : فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، وليكون ذلك مناط التكليف ، وعليه تكون السعادة ، أو الشقوة . .

ومن اجل ان يكون المجتمع المثالىّ :

- فرضت الفرائض ، وكلها تهذيب ، وتطييب للنفس البشرية .
- جاءت أوامر الله (عز وجل) افعل ، وجاءت نواهيه : لا تفعل . .

والناس كما شاء الله (عز وجل) يختلفون فى الاتجاهات . والميول شاء الله (عز وجل) أن يختلفوا فى الامتثال للأوامر ، والنواهى . .

فمن الناس..

أ - السَّابق بالخيرات بإذن الله .

ب - والمقتَصد فى ذلك.

جـ- ومن خلطَ عملا صالحًا، وآخر سيئًا..

د - ومن ظلم نفسه بالكفر، أو المعصية..

وعلينا ان نعلم - ايضاً -

أن كل جنوح عن طاعة الله (عز وجل) ورسوله فيه.

- حق لله (عز وجل) وهو يغَار، وغيرته أن تؤتى محارمه.
- حق للرسول الأمين، وترك للقدوة الحسنة، ومخالفة للتعاليم..
- حق لمن اعتدى عليه، أو عليهم من الناس؛ لأنهم يحبّون أن يعيشوا فى أمن، وأمان.
- حق للمجتمع، الذى يعيش فيه الجانح عن الطريق السوىّ.

من أجل ذلك كله، ومن أجل أن يعيش المجتمع فى أمن، وأمان، وأن يسعد الناس.. وضع أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين عقوبات. متنوعة تتناسب، والجرم الذى فعله المجرم، الجسور...

وهى حدود مقننة موزُونَة بميزان مَنْ وضع لنا الميزان وخلق كل شىء بميزان حكمته..

أ - القــتل : لمن ارتد عن دينه؛ لأنه حرم نفسه لذة الإيمان بربه، فهو لا يستحق الحياة؛ لأنه فقد أساسها الأول «وما خلقت الجن، والإنس إلا ليعبدون» أى : يعرفون.

ب - القــتل: للزانية، والزانى المحصنين، لاجترائهما على ارتكاب الفاحشة، دون حياء، أو خوف ممَّن يسمع، ويرى..

جـ- القتل: لمن قتل نفسا بغير نفس جزاء، وفاقا، فكما حرم غيره من الحياة يحرم منها هو - أيضا - .

د - الدية : لمن قُتل خطأ..

هـ - الجلد مائة ، وتغريب عام للزانية ، والزانى ، غير المحصنين.

و - الجلد ثمانين جلدة لمن شرب المسكر ، أو قذف المحصنات ، الغافلات.

ز - قطع يد السارق اليمنى ، فإن عاد قطعت رجله اليسرى ، فإن عاد قطعت يده اليسرى ، وإن عاد قطعت رجله اليمنى ، فإن عاد عزّر ، والتعزير عقُوبة يقدرها القاضى ، فإن عاد عزّر - أيضا - وهكذا..

ح - القتل ، أو الصلب ، قطع الأيدى ، والأرجل من خلاف ؛ النفى من الأرض لقطاع الطريق ، وأهل الحرَابة ، والسطو المسلَّح..

ولعل سائلا يسأل ، فيقول : لم كان القصاص؟ ولم كان منوَّعًا؟

والجواب عن ذلك فى الآتى :

أ - كان القصاص : لعدم تعظيم الله (عز وجل) حق التعظيم ، وارتكاب الجريمة ، وإتيان الفاحشة ، وهو يعلم أن الله تعالى يسمعه ويراه..

ب - اجتراء على أصحاب الحقوق ممن وقعت عليهم الجريمة.

جـ - وفى الزنا زيادة عما تقدم تخليط الأنساب واضطراب المواريث..

د - اجتراء على حق المجتمع ، الذى يعيش فيه : فقد حرم المجتمع الأمن ، والأمان ، والعيش فى وئام ، وسلام ، وإقبال على التنمية ، الشاملة..

أما تنوع الحدود : فلتنوع الجرائم ، وثقل وطئها ، وما تحدثه من دمار..

وعلى سبيل المثال:

- من يأخذ شيئا خلْسةً من مال غيره لا تقطع يده..
- من يسرق مقْدار رُبْع دينار من حرزْه تقطع يده - **كما سبق.**
- من يسطو سطوا مسلحًا ، أو يقطع الطريق على المارة لأخذ ما معهم.. وقد تقدمت عقوبته :

القـتـل - أو الصـلب - قـطع الأيدى، والأرجل من خـلاف، النفى من الأرض..
وهذه الحدود موزونة بميزان أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين: جزاء، وفاقا..

ولعل السؤال الذى يسأل فى هذا الشأن :

لم كـانـت الحـدود نـادرة، أو شبـه نادرة فى عـهـد الرسـول العظيم، والخلفـاء الراشدين (رضى الله تعالى عنهم)؟

والجـواب عن ذلك: أن الناس سلكت طريق الرشـاد، وأن من كـانت تسـول له نفسه أن يفعل شيئًا من الفواحش كان يعلم أن سيف القصاص على رقبته، فكان ذلك زاجرا له عن إتيان الفواحش.. وأنه كان يعلم ألا شفاعة له عند حاكم..

وخلاصة القول :

فإن المجتمع الذى يقيم حدود الله تعالى تختفى منه الجريمة، وإن المجتمع الذى يفـرط فى إقـامـة الحـدود تنتـشـر فـيـه كل الجـرائم.. لأن الله تعـالى يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن.

وصايـــــــــا

إذا كنا قد قدمنا للقارئ الكريم، ما فتح الله (عز وجل) به. فإنما ذلك: من قبيل الغِراس، الذى يؤتى ثماره شهية - بإذن ربه - إذا فهم، ووعى، وطبِّق تطبيقا عمليًا.

وهنا نقول :

- هل يمكن تجفيف منابع القتل، والثأر من المجتمعات الإنسانية؟
- هل يمكن أن يعيش الناس فى أمان، واطمئنان؟
- هل يمكن أن يقبل كل إنسان على أداء دوره فى مـجتـمعـه، وأن يتفـاعل تفـاعلا سويًا، مع غيره من الناس؟

- هل يمكن أن يقبل الناس على التنمية فى كل نواحيها، حتى تزدهر الحياة؟
- هل يمكن أن يتعاون أهل كل مجتمع تعاونًا مثمرًا، خلاَّقا؟
- هل يمكن أن يسير كل إنسان فى مجتمعه آمنا - فى ليل، أو نهار لا يخشى إلا الله، أو الذئب على غنمه؟ كما جاء فى الحديث الشريف.

والجواب عن كل ما تقدم :

نعم: يمكن أن ينعم الناس بذلك.

والسؤال هنا : متى يمكن ، وبم يمكن أن يتحقق ذلك؟

وللإجابة عن ذلك نقول:

نقل التجربة الحية ، التى سجلتها فى مقدمة الكتاب، **وكانت نتيجتها** :

- تصالح الناس فيما شجر بينهم من خلاف.
- تصالح المتقاضين، ورفع محضر الصلح إلى المحكمة المختصة، لتحكم به..
- القضاء على الجريمة قبل حدوثها بالصلح المثمر، والحكم العدل.
- جفت منابع القتل لفترة طويلة..
- اختفى الأخذ بالثأر تبعا لذلك..
- أقبل الناس على شئون حياتهم، وتفرغوا للتنمية: كل إنسان فيما يخصه من زراعة، أو صناعة، أو تجارة.
- تآخى التلاميذ ، والطلاب فى دور العلم، لعدم وجود خصومات، وتغذية الصغار بها.

وهنا نقول :

أرجو أن يطبق النظام المقترح على ربوع محافظتنا، وأن تنقل التجربة إلى محافظات أخرى، ومجتمعات أخرى..

وتطبيق ذلك فى محافظتنا سهل :

فقد من الله عليها بمحافظ همام، مستنير، مؤمن بالعمل الخلاَّق.. وقد نقل المحافظة إلى مصاف المدن الراقية في كل شيء... وقد آملت أن يتوج عمله المثمر فى صلح ذات البين، وتجفيف منابع الأخذ بالثأر فوجدت منه قلباً كبيراً، وحدبا على مواطنى محافظته، وإيمانا بالعمل..

ومن أجل نجاح التجربة نأمل تنفيذ مايلى :

أولاً : العمل - بشتى الوسائل، والتعاون مع الأمن - لما يلى : نزع سلاح الأشقياء، وهو السلاح غير المرخص، ولا تقبل فى ذلك شفاعة، أو وساطة. فالأشقياء يعيشون على ابتزاز غيرهم، ويوهمونهم بأنهم المدافعون عن المال، والعرض، والكرامة.

ثانياً : لا يرخص لحامل السلاح، إلا إذا كان الذى يحمله من ذوى السمعة الطيبة، وظروف حياته تتطلب منه السلاح، الذى يرهب غيره.. وبذلك : نكون قد قضينا على أهم أسباب الجريمة، ودوافعها..

ثالثاً : كل مركز من مراكز المحافظة يعين له لجنة لفض المنازعات، والصلح. ويختار للجنة من تتوافر له السمعة الطيبة، والسلوك القويم، والبعد عن الشبهات. وتكون هذه اللجنة من عضوين، أو أكثر - على حسب الحاجة - ويرأس هذه اللجنة السيد رئيس المركز.

وهذه اللجنة تختار من ذوى السمعة الطيبة، والكفاءات على مستوى جميع قرى المركز ممن يبلغون اللجنة عن أى خلاف، يجر إلى مشاكل، كما يمهدون للصلح فى جميع الخصومات المدنية، والجنائية.. بحيث ما يحدث فى أية قرية تحاط اللجنة به فى ساعات، للقضاء على الخصومات وإجهاضها قبل أن يظهر شرها.

والخلاصة : من تختارهم لجنة المركز يختارون لجانًا لكل قرية..

وعملهم ما يلى :

أ - الإبــلاغ عــن أى خلاف شــجر بين النــاس فى قريتهم، وإجــراء الصلح، حتى لا يتفاقم الضــرر.

ب - هم القلب النابض الذى يضخ أى شىء لدَرْءِ خَطَرِه..

جـ - يرفعون الأمور إلى لجنة المركز لعمل ما يلزم، للوفاق، والتوفيق.. ويحسن أن يكون للجان القرى اجتماع دورى بلجنة المركز، لتقويم العمل، وعرض المشكلات، ولطرح طرائق حلها.

تكون لجنة كبرى برئاسة السيد اللواء، الوزير المحافظ، لتقويم عمل لجان المراكز، ومتابعتها، وتذليل الصعوبات التى قد تنشأ. والسيد الوزير المحافظ يختار أعوانه للجنة التى يرأسها سيادته..

وأوصى فى هذا الشأن : بألا تخلو هذه اللجنة من :

أ - أبناء بيوتات الوِلاَية: فلهم تقديرهم،وتوقيرهم فى قلوب الناس.

ب - بعض أهل العلم : ممن اشتهر بالفقه، والحكمة، والسماحة فى معاملة الناس.

جـ - بعض أعضاء مجلس الشعب، والشورى، المشهود لهم بالكفاءة، والحيدة..

وهنا نقول :

لو نفذ ما تقدم كانت ثماره ما يلى :

- استراحة القاضى، لإنصاف الناس، وقديما قالوا: «لو أنصف الناس استراح القاضى».

- توفير المال، الذى يُدْلى به إلى الحكام، وينفق على التقاضى لأمور الأسرة والعيال، والتنمية.

- ازدهار الحياة، والإقبال على التنمية.
- نعمة الأمن، والتى ترفرف على ربوع البلاد.
- تصفية الأحقاد، ونشر المحبة.
- التعاون بين الناس.
- صفاء النفوس، وتمتعها بحياة السلم، والسلام.

وإلى هنا أقول :

إذا رأى القارئ الكريم شيئا نال إعجابه فذلك من الله (عز وجل) إذ الفضل منه، وإليه..

وإن رأى قصوراً، أو تقصيراً ستره، فتلك طبيعة البشر..

وأقول : ما آلوت جهداً، والخير أردت،

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب»

د. عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد
دكتوراه بمرتبة الشرف الأولى
من كلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر الشريف
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب، جامعة جنوب الوادى
عميد معهد عال (أسبق) أربع سنوات

فهرس الموضوعات

أهم المراجع التي رَجع إليها في هذا الكتاب

رقم	الكتـــــاب	رقم	الكتـــــاب
١	سرُّ الفصاحة	٢٥	شرح الهوارى للألفية
٢	كتاب سيبويه	٢٦	نهاية الأرب، فى فنون الأدب
٣	المقتضب للمبرد	٢٧	الطريق المعبد إلى علمى الخليل بن أحمد.. - لنا .
٤	الواو - لنا	٢٨	الإعاقة - لنا .
٥	الباء - لنا	٢٩	فتح البارى بشرح البخارى
٦	الكشاف للزمخشرى	٣٠	صحيح مسلم
٧	سفر التكوين - التوراة	٣١	الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى
٨	البداية، والنهاية لابن كثير	٣٢	البحرالمحيط
٩	تاريخ ابن خلدون	٣٣	النهر
١٠	مقدمة ابن خلدون	٣٤	الفقه الميسر - لنا -
١١	المرأة عبر العصور بين هوان الجاهلية، وعزة الإسلام - لنا .	٣٥	تيسير فتح القريب المجيب - لنا -
١٢	مجمع الأمثال للميدانى	٣٦	الإتقان فى علوم القرآن
١٣	شرح القصائد العشر	٣٧	تفسير البيضاوى
١٤	ديوان الخنساء	٣٨	المصباح المنير
١٥	أسد الغابة	٣٩	مختار الصحاح
١٦	البيان، والتبيين	٤٠	البحر المحيط
١٧	صفوة البيان	٤١	أساس البلاغة
١٨	الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى	٤٢	لسان العرب
١٩	الإكليل للهمدانى	٤٣	شرح النووى لصحيح مسلم
٢٠	الأغانى للأصبهانى	٤٤	معجم مقاييس اللغة
٢١	العقد الفريد	٤٥	رسالة ابن أبى زيد القيروانى
٢٢	مختصر العقد	٤٦	شرح الرسالة لأبى الحسن
٢٣	الأمالى، للقالى		
٢٤	صفوة صحيح البخارى		

كتب للمؤلف

تطلب من المكتبة الأزهرية للتراث - ٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف

رقم	الكتاب
	أ- النحو: تحقيق، وشرح..
١	شرح الألفية لابن الناظم ١ مجلد
٢	شرح الألفية لابن عقيل ١٦ جزءاً
٣	شرح الألفية للهوارى ٤ أجزاء
٤	شرح الألفية للأشمونى ٤ مجلدات
٥	البهجة المرضية فى تيسير الأزهرية جزء
٦	تيسير التيسير جزء
٧	طريق الهدى إلى تيسير قطر الندى مجلد
٨	مفتاح الإعراب جزء
٩	الكواكب الدرية فى الشواهد النحوية ٤ أجزاء
١٠	كتاب الواو مجلد
١١	كتاب الباء مجلد
١٢	شرح ألفية ابن بونة ممزوجة بألفية ابن مالك مجلد
	ب- الصرف
١	التنوير فى التصغير جزء
٢	النسب مجلد
٣	تصريف الأفعال مجلد
٤	تصريف الأسماء مجلد
٥	فصل المقال فى الوقف والإعلال، والإبدال مجلد
٦	تيسير الصرف ٤ أجزاء
٧	س، جـ فى الصرف ٤ أجزاء
	جـ- الفقه
١	تيسير فتح القريب المجيب جزءان
٢	الفقه الميسر ٣ أجزاء
	د- فى علوم القرآن الكريم
١	التبيان فى تفسير قول الرحمن، ووضع الميزان مجلد
٢	إعراب القراءات الشواذ مجلدان
	هـ- فى علوم اللغة
١	مقدمة فى علوم اللغة، والنحو مجلد
٢	المهذب فى محاسن اللغة جزء
	و- سلسلة كتب اجتماعية
١	المرأة: عبر العصور بين هوان الجاهلية، وعزة الإسلام مجلد
٢	الإعاقة مجلد
٣	الثأر بين فوضى الجاهلية ودستور الإسلام مجلد
	ز- فى العروض والقافية
١	الطريق المعبد: إلى علمى الخليل بن أحمد: العروض، والقافية مجلد - لنا -
	ح- الإملاء والخط
١	قواعد الإملاء، والخط، وطريقة تدريسهما جزء - لنا -
	ط- فى التصوف
١	سيدى عبد الرحيم القنائى جزء - لنا -